المخابرات العامة المصرية

بين الواقع والخيال

مجموعة من مقالات مجلة الشباب

بقلم الدكتور / نبيل فاروق

تجميع

AMR FOX

«الجنرال (بن عمتاى) يقيم حفلا، بمناسبة عيد ميلاده...»..

هذا الخبر، الذى يناسب صفحة الاجتماعيات، فى جريدة (جورساليم بوست)، كان مضمون البرقية الشفرية العاجلة، التى وصلت إلى المخابرات العامة المصرية، فى تلك الساعة المبكرة، من صباح أحد أيام شتاء ١٩٧٢م...

وعلى الرغم من أن مضمون البرقية كان مباشرا للغاية، ولاينطوى على أية مضامين خفية، إلا أن رجل المخابرات المصرية (أمجد) استقبلها باهتمام بالغ، جعله يواصل التطلع إليها لخمس دقائق كاملة، قبل أن يضعها على سطح مكتبه، ويتراجع فى مقعده، مشبكا أصابع كفيه أمام وجهه، ومسترجعا تفاصيل عملية مهمة وطويلة...

طويلة للغاية..

عمليــة عيــد الميــلاد..

ففى تلك الفترة، كان (أمجد) واحدا من المعدودين، الذين يعلمون أن الحرب على الأبواب، على الرغم من كل ما تبذله الدولة، وما تخطط له هيئة الأمن القومى، للإيحاء بالعكس تماما، وبأن القيادة السياسية والعسكرية تخشى الدخول فى حرب خاسرة مع العدو الإسرائيلى، وتستكين أكثر لحالة اللاسلم واللاحرب، التى سادت المنطقة منذ عام أو عامين..

ولأن الركيزة الأولى لأية مواجهة عسكرية هى المعلومات، فقد كان (أمجد) جزءا من فريق خاص عهدت إليه مهمة جمع كل المعلومات الممكنة عن العدو، عسكريا، واقتصاديا، وحتى اجتماعيا، قبل موعد المواجهة الشاملة..

ولقد بذل الرجال قصارى جهدهم بحق..

ولأنهم عملوا بكل جد وجهد، فقد حصلوا على فيض من المعلومات المهمة، عن الجيش الإسرائيلى ، وتسليحه، وخط (بارليف)، وتحصيناته، وجنرالاته...

فيما عدا الجنرال (بن عمتاى)..

فعلى عكس باقى جنرالات (إسرائيل) الذين سكروا بخمر انتصارهم فى يونيو ١٩٦٧م، وانتفخت أوداجهم، وأجسادهم، وكل مشاعر الزهو والغرور فى أعماقهم، وصدقوا أكذوبة جيشهم الأسطورى، الذى لايقهر، كان (بن عمتاى) مازال واقفا على أرض الواقع، مدركا أن انتصار يونيو ١٩٦٧م هذا لايمكن أن يتكرر قط، وأن العرب لن يستسلموا أبدا لمشاعر الهزيمة والعار، والحرب آتيه لاريب ، طال الوقت أم قصر..

ومن هذا المنطلق، كان الرجل شديد الجدية والالتزام والحذر، لايتحدث عن عمله خارج مكتبه قط، ويراجع أوراق كل من يعمل فى إدارته بنفسه، وبمنتهى الدقة والاهتمام، ويستبعد فورا كل من تراوده بشأنه ذرة من الشك...

ذرة واحدة...

ولكن الجنرال (بن عمتاى) كان مسئولا عن قطاع شديد الأهمية والخطورة، فى المرحلة القادمة بالذات، ألا وهو قطاع الأمن والاستطلاع، فى قلب (سيناء) المحتلة..

وحتى تكتمل المعلومات، كان من المحتم اختراق قطاع الجنرال (بن عمتاى) هذا...

وبأى ثمن...

وطوال ستة أشهر كاملة، لم تنجح محاولة لاختراق حاجز المعلومات، الذى صنعه الرجل حول نفسه، لشدة حذره وشكوكه..

ولكن رجال المخابرات المصرية لايستسلمون أبدا، ولايؤمنون حتى بكلمة مستحيل..

لذا فقد واصلوا المحاولة (بمنتهى الإصرار والتحدى، وتم إسناد العملية للسيد (أمجد)، باعتباره واحدا من أذكى وأبرع رجال الجهاز، فى تلك الفترة، وأكثرهم خبرة فى التعامل مع جنرالات (إسرائيل)...

وكعادته، حمل (أمجد) ملف الجنرال (بن عمتاى) كله إلى مكتبه، وراح يدرس كل حرف فيه لساعات طوال... للغاية..

ثمانى عشرة ساعة كاملة، قضاها (أمجد) فى حجرته، يدرس الجنرال (بن عمتاى)، وعاداته وطبائعه ، وتاريخه، وكل ذرة فى حياته وعمله...

ومع مطلع الفجر، أدرك (أمجد) أن مايقولونه صحيح..

الجنرال (بن عمتاى) منيع بحق..

ومع رشفات فنجان من القهوة المركزة، بعد صلاة الفجر، راح (أمجد) يعيد دراسة الموقف كله من منظور جديد، يعتمد على مبدأين، يؤمن بهما بكل ذرة من كيانه..

أولهما أنه لاوجود للمستحيل، لأن كل شخص، مهما بلغت مناعته وقوته، لديه حتما ثغرة ما، أو نقطة ضعف خفية، يمكن التسلل إليه عبرها..

وثانيهما أنه عندما يتعذر الانقضاض على الخصم مباشرة، لابد من الدوران حوله، والهجوم من مصدر غير مباشر...

وعلى الرغم من إرهاقه، وعينيه اللتين تقاتلان فى استماتة للبقاء مفتوحتين، فى العاشرة والربع صباحا، وضع (أمجد) يده على نقطة ضعف الجنرال (بن عمتاى) غير المباشرة...

زوجته (أنا بيلا)..

فصحيح أن (بن عمتاى) رجل قوى منيع، إلا أن (أنا بيلا) مجرد امرأة إسرائيلية عادية، طامحة إلى السباحة فى ذلك النعيم، الذى ترفل فيه زوجات الجنرالات الأخريات ، بعد انتصار يونيو، وأوسمة النصر، التى تثقل صدور أزيائهم الرسمية..

كان هذا فى منتصف عام ١٩٧٢م، عندما اجتمع (أمجد) بفريق العمل التابع له، بعد ثلاث ساعات فحسب من النوم العميق، وراح يشرح لهم خطته بكل التفاصيل..

وبمنتهى الدقة..

وكالمعتاد، لم تكن خطة تقليدية على الإطلاق، كما أنها كانت تعتمد على تجنيد جاسوس آخر..

جاسوس لم يكن من الممكن أن يخطر ببال أى مخلوق قط..

وفى اليوم التالى مباشرة، بدأ تنفيذ الخطة..

بدأت بالسيطرة على (كيتى) ، زوجة جنرال إسرائيلى آخر، يتمتع بنفوذ قوى، داخل مجلس قيادة الجيش هناك، وبصلات متينة مع كبار المسئولين العسكريين والسياسيين فى (إسرائيل)..

وعلى الرغم من منصب زوجها، كانت (كيتى) امرأة عابثة مستهترة، تميل إلى التظاهر والتباهى ، وترتبط سرا بعلاقة قوية، مع ضابط شاب وسيم، يتولى منصبا إداريا بسيطا، فى الإدارة التابعة لزوجها..

والجزء الأخير كان سريا للغاية، أو هكذا تصورت (كيتى)، التى لم تلتق بصديقها قط فى أماكن عامة، أو تبدى أى أهتمام خاص به، فى أية مناسبة تجمعهما، حرصا على مظهرها، وخشية رد فعل زوجها العنيف، وسلطاته الواسعة..

وذات يوم، سافر الزوج فى مهمة خاصة، لتفقد استحكامات خط (بارليف) الجديدة، مع فريق من المسئولين وقيادات الجيش، فانتهزت (كيتى) الفرصة، لقضاء اليوم كله مع صديقها الشاب..

وعندما غادرت (كيتى) فى المساء ذلك المنزل، الذى يستأجره صديقها، فى ضواحى (تل أبيب)، والذى لم يدلفا إليه أو يغادراه معا أبدا، وجدت سائحة فرنسية شابة تستند إلى سيارتها، وتلقى حقيبتها الصغيرة على مقدمتها فى لامبالاة ، وشعرها الأشقر الطويل ينسدل على كتفيها بلانظام، فأشارت لها بيدها فى صراحة قائلة:

ابتعدى عن سيارتى..

رمقتها الفرنسية بنظرة لامبالية، ثم التقطت حقيبتها فى بطء مستفز، وفتحتها لتلتقط منها مظروفا أصفر، اعتدلت وهى تناوله للإسرائيلية، قائلة فى لهجة

هادئة، تجمع نبراتها بين الأمر والحزم ، وبلغة عبرية ذات لكنه فرنسية واضحة:

ـ ستجدين رقم الهاتف بالداخل.

وقبل حتى أن تكتمل العبارة، كانت الفرنسية قد تركت المظروف بين أصابع (كيتى)، وانطلقت مبتعدة بخطوات سريعة ، فهتفت بها (كيتى) ، فى مزيج من الدهشة والاستنكار ، وما شأنى بهذا ؟!

لم يبد حتى أن الفرنسية قد سمعتها ، وهى تنحرف فى شارع جانبى صغير ، وتختفى عن نظرها تماما، ولآخر مرة..

ولوهلة ، فكرت (كيتى) فى أن تلقى المظروف جانبًا وتمضى فى طريقها إلا أنها لمحت بطرفى عينيها اسمها على المظروف..ليس اسم (كيتى)الذى يناديها به زوجها والأصدقاء ، ولكن اسمها الحقيقى... وبالكامل ... وبكل دهشتها حدقت (كيتى) فى المظروف ، ثم فتحته بأصابع مرتجفة مترددة، و...

وكانت الصدمة قوية .... وعنيفة ... للغاية...

فالمظروف كان يحوى مجموعة من الصور، التى تجمعها بصديقها الضابط الشاب، فى جلساتها الخاصة ، فى مناسبات عديدة، وبينها ـ لذعرها ـ صور للقائهما الذى انتهى منذ دقائق معدودة...

وامتلأت نفس (كيتى) برعب لا حدود له، وانطلقت محاولة البحث عن تلك الفرنسية بلا جدوى ، وفكرت فى العودة إلى صديقها الشاب ، وإبلاغه ماحدث ، إلا أنها خشيت أن يصيبه الرعب، فيقدم على حماقة تدمرهما معا،

بقلم : د. نبيل فاروق

فانطلقت بسيارتها عائدة إلى منزلها، ولم تغلق باب حجرتها على نفسها ، حتى التقطت هاتفها، واتصلت بالرقم المدون على الورقة الصغيرة، التى وجدتها مع الصور...

كانت تتوقع أن تجيبها تلك الفرنسية ، لذا فقد اندهشت وارتبكت ، عندما أجابها صوت رجالى خشن ، تحمل عبريته لكنه ألمانية ، فقالت فى عصبية:

معذرة ... لقد تصورت أن...

قاطعها الرجل فى صرامه:

ـ الاتصال صحيح يا (كاتالينا)...

والعجيب أن كيانها كله قد انهار دفعة واحدة ، عند هذه النقطة ، واستمعت الى أوامر، الرجل فى استسلام تام، أكد خضوعها للأمر، واستعدادها للقيام بكل ما يطلب منها مهما كان....

وفى ظهر اليوم التالى ، التقت (كيتى) بالرجل، فى دار سينما صغيرة فى (تل أبيب)... وكانت هذه هى البداية بالنسبة لها....

وبالنسبة لخطة ـ (أمجد) العبقرية أيضا...

ولقد استغرقت مرحلة إعداد (كيتى) والتيقن من ولائها شهرين كاملين ، تصورت هى خلالهما ، أن المهمة التى يعدونها لها، هى جلب أسرار زوجها وعمله ، باعتباره جنرالا مهماً فى القيادة الإسرائيلية ، لذا فقد فوجئت بحق، عندما أدركت فى نهاية المدة، أن كل المطلوب منها هو أن ترتبط بصداقة وثيقة مع (أنا بيلا) ، زوجة الجنرال (بن عمتاى)...

ولم تفهم (كيتى) الغرض من صداقة كهذه، ولم يكن من المفترض بها أن تفهم، وإنما أن تطيع الأوامر فحسب، وأن تؤدى الأمور بالأسلوب الذى قدد ريت عليه، بمنتهى الدقة والبراعة وإلا فسيتم إرسال نسخة من الصور والوثائق إلى زوجها ونشر بعضها فى صحف الفضائح الإسرائيلية أيضا.

ولأن (كيتى) لم تفهم أبدا الغرض مما ستفعله، فقد أقدمت عليه بكل اهتمامها، ونفذت ماقد ماتدربت عليه بالضبط...

ومن الواضح أن بعض خبراء علم النفس قد ساهموا فى وضع خطة التدريبات هذه، فلم تمض عدة أشهر، حتى كانت (كيتى) هى الصديقة الصدوق لزوجة (بن عمتاى)، التى لاتفارقها قط، ولاتبخل عليها بالنصح أبدا...

والواقع أن (أنا بيلا) المغلقة محدودة الذكاء، قد انبهرت بشخصية (كيتى) وأسلوبها، حتى أنها أصبحت فعليا فى موضع التابعة وليس الصديقة، وأصبحت (كيتى) هى الرادار الذى يوجه مشاعرها وتصرفاتها على نحو أفضل حتى مما حلمت به المخابرات المصرية...

وكان الضحية هو الجنرال (بن عمتاى) نفسه...

فلأول مرة فى حياتها ، بدأت (أنا بيلا) تعترض ، وترفض ، وتغضب وتصر على أن تحيا فى نفس المستوى الاجتماعى، الذى تحيا فيه زوجات الجنرالات الآخرين....

وفى البداية ، تجاهل (بن عمتاى) أسلوبها وغضبها ، بشخصيته الصارمة القاسية، ولكن نصائح وتوجيهات (كيتى) ، والتى لقنتها إياها المخابرات المصرية ، أحالت حياة الرجل إلى جحيم ، كاد يفقده صوابه، ويفسد حياته كلها، دون أن يدرك السبب الحقيقى لهذا ، بسبب أن زوجته لم تخبره قط بشأن (كيتى)، ولم تستقبلها فى منزلها أبدا ، فى غيابه أو وجوده...

ولأنه ما من رجل يمكن أن يحتمل هذه الحياة طويلا ، وافق (بن عمتاى) أخيرا على أن تقيم له زوجته حفل عيد ميلاد، فى منزلهما الأنيق فى (تل أبيب).....

وجن جنون(أنابيلا) من شدة الفرح والسعادة، وأسرعت تزف خبر انتصارها إلى صديقتها (كيتى) التى سألتها فى اهتمام:

وهل لديك من يتولى أمر حفل كهذا؟!..

أبدت (أنابيلا) دهشتها وحيرتها بهذا الشأن، وحاولت إقناع (كيتى) بأنها قادرة وحدها على تولى الأمر، ولكن (كيتى) استنكرت هذا واستهجنته تماماً، ثم أعطتها رقم هاتف شركة متخصصة فى مثل هذه الأمور، وأخبرتها بنغمة غير ذات معنى، أنها ستوصيهم بتقديم أفضل الخدمات لها..

ولأن الجنرال (بن عمتاى) رجل شديد الحذر،فقد جمع بعض التحريات عن تلك الشركة، وتأكد من سلامتها أمنياً، قبل أن يسمح لزوجته بالاتصال بها، وإسناد أمر تنظيم الحفل إليها، بشرط تحديد أسماء كل من سيدخل المنزل منهم أولاً..

والمدهش أن خطة (أمجد) كانت تتوقع ذلك الإجراء، وتستعد له منذ زمن طويل..

ففى نفس الوقت، الذى تم تجنيد (كيتى) فيه، التحق شاب بسيط المظهر بتلك الشركة، المتخصصة فى إقامة المعارض والحفلات، بتوصية من شركة سياحية شهيرة فى (تل أبيب)، وأبدى ذكاء ملحوظاً فى هذا المضمار، مما قربه من مدير الشركة، وسكرتيرتها التنفيذية، التى أغرمت به تماماً..

ولأن إقامة حفل عيد ميلاد جنرال إسرائيلى كبير، كان أمراً يهم الشركة كثيراً، فقد تم إسناد مهمة تنظيمه إلى ذلك الشاب، باعتباره خبيراً فى مثل هذه الأمور، كما أكدت توصية (شالوم تورز) للسياحة، وكما أثبت خلال شهور عمله بالمكان..

ولأن ذلك الشاب كان أحد أهم العملاء المستترين للمخابرات المصرية، فى قلب (إسرائيل)، فقد كان ملفه الأمنى نظيفاً تماماً، على نحو اطمأن معه جهاز التحريات الأمنى، الخاص بالجنرال (بن عمتاى)، ووافق على دخوله منزل هذا الأخير.

ولأن الحفل كان يضم عدداً من كبار القادة العسكريين، ورجال الصفوة فى المجتمع، وبعض السياسيين اللامعين، فقد انتشر رجال الأمن فى المكان، وقاموا بتفتيش كل رجال الشركة، والتأكد من أنهم لا يحملون أية أغراض مريبة، قبل السماح لهم بدخول منزل (بن عمتاى)، والذى بدا أكثر الجميع عصبية وتوتراً، ربما لأنها المرة الأولى، التى يستقبل فيها ضيوفاً رسميين فى منزله، أو ربما لأنها أول مرة يستقبل فيها ضيوفاً، على أى مستوى..

ولقد بدا الشاب هادئاً باسماً بسيطاً، أثناء عملية التفتيش، ولم يكن يحمل سوى دفتراً ورقياً بسيطاً، من قلم من الحبر، باعتباره المشرف العام على تنظيم الحفل، والمسئول عن متابعة كل أفراد الشركة خلاله..

ولقد بدا الشاب أشبه بشعلة من النشاط بالفعل، وهو يتحرك فى كل مكان، ويتابع

كل شىء وكل شخص، ويدون ملاحظاته هنا وهناك، حتى أن أحد رجال الأعمال المدعوين قد همس فى أذن (بن عمتاى) بانبهار:

قل لى هل باستطاعتى إقناع هذا الشاب بالعمل فى شركتى؟!

وحاول (بن عمتاى) أن يبتسم، وهو يهمهم بعبارة غير مفهومة، محاولاً السيطرة على عصبيته البالغة، ومقسماً فى أعماقه على ألا يكرر هذا الحفل أبداً، مدى الحياة..

ثم حانت لحظة إطفاء شموع كعكة عيد الميلاد، وتابع الشاب الموقف بنفسه، وبمنتهى الاهتمام، ثم أشار إلى رجاله، فأطفأوا كل أنوار المنزل، وبدأوا فى إنشاد أغنية أمريكية طويلة، قبل إطفاء الشموع..

وكان الغناء جميلاً وأنيقاً إلى حد الإبهار، حتى أنه جذب انتباه الكل، بما فيهم رجال الأمن والحراسة، وجعلهم لا ينتبهون إلى طول الأغنية، ولا إلى اختفاء الشاب فى قلب الظلام، والذى دام لخمس دقائق كاملة، قبل أن ينتهى الغناء، ويطفى الجنرال (بن عمتاى) شموع عيد ميلاده، وتعود الأضواء للسطوع مرة أخرى..

ومع عودة الأضواء، ظهر الشاب مرة أخرى، يتابع كل شىء بمنتهى الاهتمام والنشاط.. ولكنه لم يعد يدون ملاحظاته..

بل ولم يلتقط قلمه بعدها مرة واحدة، لأن القلم قد فقد الكثير من أجزائه الداخلية، ولم يعد صالحاً للعمل على نحو عادى..

وفى نهاية الحفل، تنفس (بن عمتاى) الصعداء، وشعرت (أنابيلا) بكل سعادة الدنيا، وهى تتلقى التهنئة من زوجات الجنرالات، اللاتى لم يستطعن إخفاء حسدهن، والتى تسابقن للحصول على اسم الشاب وشركته، وأرقام هواتفها، للاتصال بها عند إقامة أى حفل منزلى..

وفى ساعة متأخرة من الليل تلقى (أمجد) برقية شفرية عاجلة فى (تل أبيب)، تحوى عبارة واحدة مقتضبة:

كل سنة وأنت طيب..

وأغمض (أمجد) عينيه، وهو يبتسم فى ارتياح جارف، فالعبارة كانت تعنى أن عملية دس أجهزة التنصت، فى حقيبة الجنرال (بن عمتاى) الشخصية قد تمت بنجاح، وهذا يعنى أنه، ومن الآن فصاعداً ستلتقط المخابرات المصرية كل همسة تدور داخل مكتب مسئول الأمن والاستطلاع الإسرائيلى فى (سيناء) المحتلة..

وهذا ما كان بالفعل، حتى لحظة اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣م..

لقد صنعت المخابرات المصرية قناة اتصال ومعلومات مباشرة، مع مكتب أمن (سيناء)، فى القيادة الإسرائيلية نفسها،وحصلت على فيض جديد من المعلومات بعملية لم يدركها أو يتصورها الإسرائيليون، ربما حتى لحظة كتابة هذه السطور..

عملية عيد ميلاد..

للنصر.

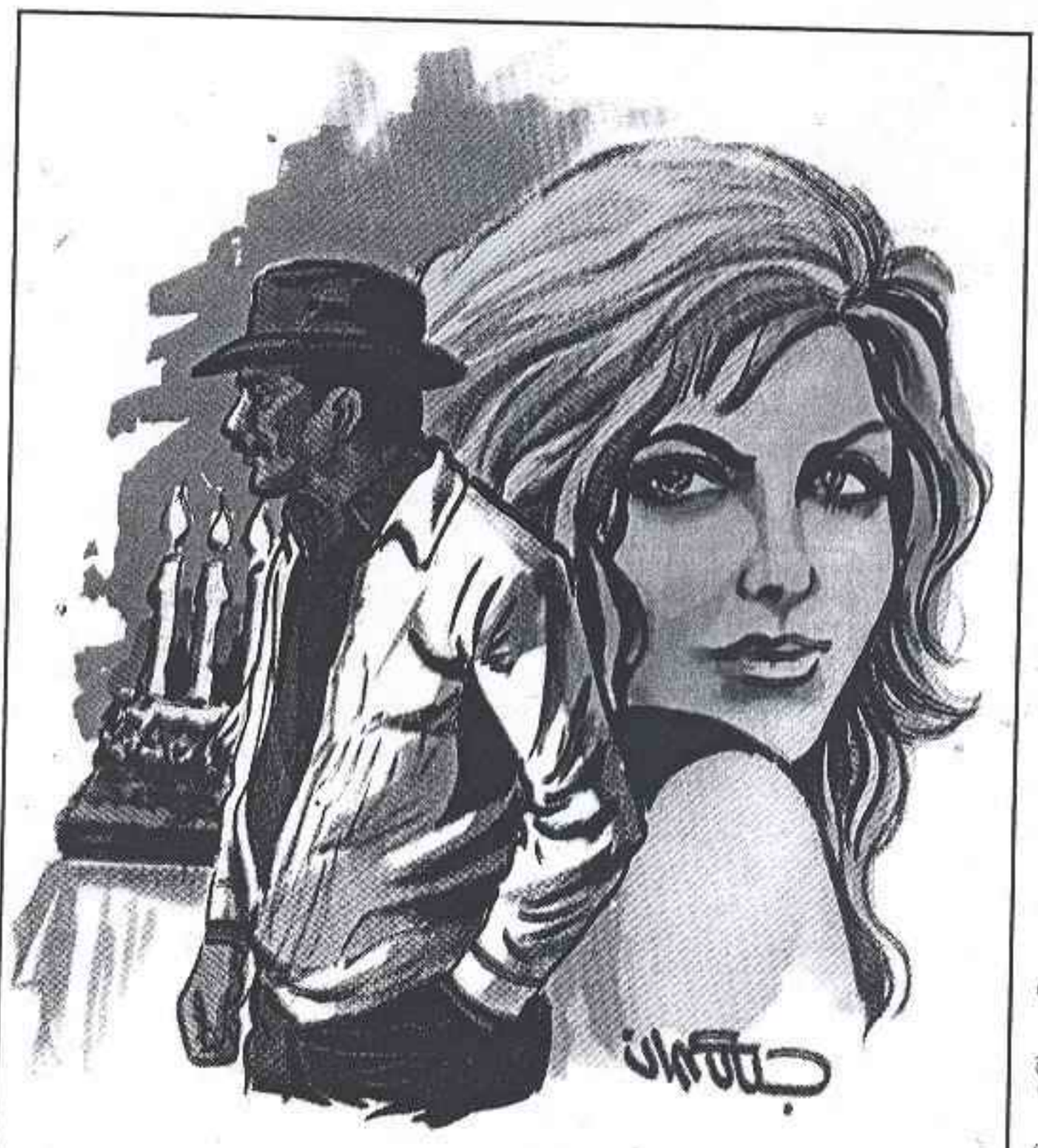

صفحات من تاريخ الجاسوسية

الإبرة.. والصاروخ

فجأة.. ودون مقدمات.. أعلن الرئيس (جمال عبد الناصر) قبول مبادرة (روجرز) لوقف حرب الاستنزاف، والضربات المتبادلة، بين الجانبين، المصرى والإسرائيلى، وإيجاد الوقت الكافى لبناء حائط الصواريخ، القادر على حماية الجبهة الداخلية، بعد أن تجاوز الإسرائيليون حدودهم أكثر من مرة، ووجهوا ضرباتهم إلى أهداف مدنية فى العمق، مثل مصنع أسمدة (أبو زعبل)، ومدرسة بحر البقر، استناداً إلى تفوقهم الجوى.. فى الوقت الذى كانت (مصر) تسعى فيه لإعادة بناء جيشها، بعد نكسة يونيو ١٩٦٧م..

ومن المؤكد أن قبول المبادرة، على هذا النحو المباغت، وبعد أن أعلن رئيس مجلس الأمة (أنور السادات)، رفض (مصر) للمبادرة - قد أربك العالم كله وأدهشه، وعلى قمته (إسرائيل)، التى تساءلت فى حذر قلق: لماذا قبل (عبد الناصر) المبادرة؟!..

ما الذى يسعى إليه بالضبط؟!

وما خططه للمستقبل؟!..

وبينما انشغلت (إسرائيل) مع قادتها وجنرالاتها فى دراسة ومناقشة الأسباب، التى دعت (مصر) إلى قبول المبادرة.. كانت القوات المسلحة المصرية تسعى بكل جهدها، بالتعاون مع الأجهزة الأمنية المختلفة، لبناء حائط الصواريخ الدفاعى، وحماية الجبهة الداخلية، حتى تحين لحظة المواجهة الكبرى..

ولم يمهل القدر الرئيس (جمال عبد الناصر)، لاستكمال خطة المواجهة الشاملة، فلقى ربه فى سبتمبر ١٩٧٠م، وخلفه (أنور السادات)، الذى بدا وكأنه صورة متناقضة تماماً مع سلفه، بهدوئه الشديد، وأسلوبه الذى يوحى بالتراخى، وبالاستسلام لفكرة اللاسلم واللاحرب، على نحو أثلج قلوب الإسرائيليين، وجعلهم، حتى فى اجتماعاتهم الخاصة والسرية، يؤكدون، بما لا يدع مجالاً للشك، أن (مصر) لن تفكر لحظة واحدة فى القتال والثار، وأنها على العكس تماما.. ستبذل قصارى جهدها وفكرها، للتوصل إلى حل سياسى دبلوماسى، يحفظ ماء وجهها، ويحجب عنها هزيمة جديدة مؤكدة، لو جرؤت على مواجهة الجيش الإسرائيلى،الذى ملأ أصحابه وجنرالاته وقادته الدنيا بأكذوبتهم الكبرى، التى أكدت أنه جيش أسطورى لا يقهر..

ولكن بناء حائط الصواريخ استمر..

وزودته (موسكو) بصواريخ دفاعية قديمة، من طراز «سام» ،كانت تكفى بالكاد لمنع الطائرات الإسرائيلية من التوغل فى العمق المصرى..

ولأن الإسرائيليين يعرفون بالفعل تركيب وتصميم صواريخ (سام) القديمة، فقد ضاعف هذا من استرخائهم وارتياحهم، وثقتهم بالنصر.. خاصة أن خط (بارليف)، الذى أقاموه على الضفة الشرقية لقناة (السويس)، بدا فى رأى كل الخبراء العسكريين كأقوى خط دفاعى منيع عرفه التاريخ، وأنه من المستحيل أن يعبره المصريون أو ينجحوا فى اقتحامه، مهما تبلغ براعتهم وقوتهم..

الشىء الذى لم يدركه الإسرائيليون، فى تلك الأيام، هو أن كل ما يبدو على الرئيس المصرى ورجاله، من هدوء واسترخاء واستسلام، ليس سوى قناع زائف، يهدف فقط إلى خداع العدو، وإيهامه بصورة غير حقيقية.. فى نفس الوقت الذى تغلى فيه كل الأحداث تحت السطح، ويتحرك عشرات الرجال، بكل همة وذكاء ونشاط، استعداداً للضربة الكبرى الشاملة..

ومع أوائل عام ١٩٧٣، تضاعفت نشاطات الكل، تحت السطح فى (القاهرة)، وبدأت المرحلة الأخيرة، والأكثر خطورة، من خطة الخداع العظمى، التى تواصل إلهاء العدو عن الهدف الحقيقى، الذى بدأ العد التنازلى له بالفعل..

ووسط كل تلك الظروف، وبينما الكل يتأهب بكل حواسه ومشاعره وقدراته، جاء ذلك الخبر بغتة، كقنبلة مدوية، وسط عالم من الصمت!..

فذات صباح، من أيام مارس ١٩٧٣م، هتف أحد رجال المخابرات، المسئولين عن مكافحة الجاسوسية الداخلية، فى اجتماع طلب عقده على وجه السرعة:

- الإسرائيليون لديهم جاسوس، فى منصب مهم جداً، فى الميناء الذى ستصل إليه شحنة الصواريخ الروسية الجديدة.

كان الخبر عنيفاً ومخيفاً للغاية، فى تلك الآونة بالذات.. فالسوفيت كانوا قد أجروا تطويراً سرياً مدهشاً، على صواريخ (سام) القديمة، ليخرجوا بطراز جديد منها وهو (سام - ٧) يمكنه تعقب مصادر الإشعال فى طائرات العدو، والانقضاض عليها، ونسفها، مهما تبلغ براعة مناوراتها، أو سرعة انطلاقها وابتعادها..

وهذه كانت أكبر مفاجأة، يختزنها المصريون لطائرات العدو، عندما تحين المواجهة المباشرة.. وكشفها، بأية وسيلة من الصور، كان يعنى خسارة عامل مهم وحيوى، وبالغ الخطورة، من عوامل النصر..

وبسرعة، قفزت إلى أذهان الرجال فكرة واحدة، عبرت عن نفسها على لسان أحدهم، وهو يقول:

فلنلق القبض على هذا الجاسوس فوراً..

تساءل آخر فى حماس:

- ألدينا كل الأدلة الكافية؟!..

أجاب ثالث فى سرعة:

- كل ما يكفى لإدانته وإعدامه.

هتف رابع:

- ماذا ننتظر إذن؟!

وهنا ارتفع صوت (أ.ص)، رجل المخابرات المحنك، وهو يشير بسبابته، قائلاً بهدوئه الشهير:

- أعتقد أننى أخالفكم الرأى!

كانت عبارته تكفى، ليسود المكان صمت تام مباغت، ولتستدير العيون كلها إليه، بكل حيرة ودهشة، فتابع بنفس الهدوء:

- ربما كان وجود جاسوس كهذا، فى ظروف كهذه، أمراً بالغ الخطورة بالفعل، لو أمكنه كشف أمر الصواريخ الجديدة.. ولكن ماذا لو أنه لم ينجح فى هذا؟!

قال أحد الرجال معترضاً:

- لا يمكننا أن نجازف باحتمال كهذا.

مال (أ.ص) إلى الأمام، وهو يسأل فى اهتمام:

- السؤال الآن هو: كيف سيمكنه كشف أمر تلك الصواريخ الجديدة؟!.. إنها، من الناحية الظاهرية، صورة طبق الأصل من الصواريخ القديمة.. بل لقد حرصنا على أن تبدو أجسامها الخارجية وكأنها ملقاة فى مخازن السوفيت منذ عامين على الأقل.. فكيف سيعلم أنها حديثة؟!

أجاب حامل الخبر فى حزم:

- المشكلة أن ذلك الجاسوس هو أحد أهم عملاء المخابرات الإسرائيلية هنا، ولقد تم تزويده بجهاز خاص، صغير الحجم، أنتج منه الأمريكيون ثلاث نسخ فحسب، وذلك الجهاز الصغير لديه قدرة مدهشة، على كشف وجود أية أجهزة إلكترونية داخل الصواريخ.. ومن المؤكد أنه سيكشف أمر الخلية الحرارية الجديدة.. وهذا سيعنى للإسرائيليين كل شىء!

التقى حاجبا (أ.ص)، وهو يتراجع فى مقعده ببطء، ويقول وكأنما يحدث نفسه:

جهاز كشف إلكترونى من ثلاث نسخ فحسب؟!.. آه.. من الواضح بالفعل أنه جاسوس خطير جدا، وأن الإسرائيليين يولون الأمر جل اهتمامهم!

قال حامل الخبر بحزم اكبر:

- هذا صحيح.

ازداد انعقاد حاجبى (أ.ص) بشدة، وشرد بصره بضع لحظات، وغرق فى تفكير عميق.. حتى لقد بدا وكأنه قد انفصل تماما عن كل المحيطين به، والذين لاذوا بدورهم بالصمت التام، وعيونهم كلها تتجه نحوه، وكأنهم يدركون مدى عبقريته، وموهبته فى التعامل مع أعقد الأمور وأغربها، بأساليب مبتكرة وبارعة للغاية..

ثم فجأة، عاد (أ.ص) إلى من حوله، ومال إلى الأمام، على مائدة الاجتماعات، وهو يسأل فى اهتمام بالغ:

- ألدينا فكرة عن تصميم جهاز الكشف الإلكترونى هذا؟!

هز المسئول عن الأمر رأسه، قائلا:

- ليس بصورة كافية.. إننا نعلم أسلوب تشغيله فحسب.

تألقت عينا (أ.ص)، وكأنما كان هذا الجواب يكفيه، وتراجع فى مقعده، وهو يفرد كفيه على سطح مائدة الاجتماعات، قائلا فى حماس:

- عظيم.

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة واثقة، وهو

بقلم : **د. نبيل فاروق**

يضيف:

- أعتقد أيها السادة أن علينا أن نبقى على ذلك الجاسوس فى الميناء، وأن نرعى جهازه الحديث أيضا!

ولم تبد الدهشة على وجوههم هذه المرة، ربما لأنهم يدركون أنه يعنى كل حرف نطق به..

وأن لديه حتما خطة جديدة..

وعبقرية!..

ولقد نطق (أ.ص) عبارته، ثم نهض من مقعده، وراح يدور حول مائدة الاجتماعات كعادته، وهو يشرح خطته..

وكالمعتاد.. كانت الخطة عبقرية، مدهشة.. وبسيطة للغاية..

ولم يدرك الإسرائيليون أو يتصوروا قط، أن أبرع جواسيسهم، وأقوى وأحدث أجهزتهم، قد أصبحا، منذ تلك اللحظة، تحت عيون رجال المخابرات المصرية، وفى قبضتهم.. المحكمة..

فلقد سار كل شئ كما خططوا تماما، وراح جاسوسهم ينتظروصول شحنة الصواريخ الجديدة فى اهتمام بالغ، وذلك الجهاز الحديث، الذى يبدو أشبه براديو ترانزستور صغير، لايفارق يده قط، بحجة أنه يهوى البرامج الإذاعية إلى درجة الإدمان، كما أبلغ كل المحيطين به وأقنعهم..

ثم وصلت السفينة السوفيتية، وتوقفت داخل المياه الإقليمية المصرية، وطلبت الإذن بالرسو عند الميناء، فى الصباح الباكر، لإفراغ شحنتها العسكرية، ذات الطابع الخاص.

وبكل اهتمامه وحواسه، استعد الخائن لفحص الشحنة، وإرسال تقريره إلى سادته فى (تل أبيب)..

وفى الخامسة صباحا، اتجهت السفينة السوفيتية نحو الميناء.

واستعد الجاسوس، و...

وفجأة، وجد أمامه المفتش العسكرى للميناء، والذى واجهه فى شئ من الصداقة، قائلا:

- هل استعددتم لاستقبال هذه السفينة؟!

أمسك الجاسوس جهازه فى اهتمام، وهو يقول:

- بالتأكيد.. سيتم إفراغها فور رسوها، ونقلها إلى الشاحنات العسكرية دون إبطاء.

نطقها الجاسوس، وهو يختلس النظر إلى الرجل هادئ الملامح، الذى جاء مع المفتش العسكرى، والذى بدا بحلته البسيطة، ولحيته المخضرة، أشبه بأحد موظفى الشحن المدنيين، الذين يتولون الأمور والإجراءات الإدارية فى الميناء.. ولقد بدا ذلك الرجل هادئا لامباليا، حتى إن الجاسوس لم يلبث أن فقد اهتمامه به، وأولى جل اهتمامه إلى المفتش، الذى واصل حديثه معه عن أمور فنية، قبل أن يقول فى صرامة:

- هيا.. اكتب ماسأمليه عليك.

لم يكد المفتش ينطقها، حتى التقط الرجل الهادئ من جيبه ورقة وقلما، وناولهما إلى الجاسوس، الذى ارتبك لحظة، ثم لم يكن أمامه إلا أن يضع الجهاز على المنضدة المجاورة، ليلتقط الورقة والقلم بيديه معا..

وبحركة عفوية بسيطة، التقط منه «الهادئ» جهاز الراديو، ووضعه على المنضدة، وهو يبتسم فى مودة، ثم لم يلبث أن تراجع فى بساطة، ليقف إلى جوار المفتش، الذى أملى الجاسوس بعض التعليمات البسيطة المعتادة، قبل أن يقول فى حزم:

- أريدك أن تنفذ هذا فور انتهاء نقل الشحنة.. هل تفهم؟!

أجاب الجاسوس فى سرعة وتوتر:

- بكل تأكيد.

غادر المفتش المكان بعدها، مع ذلك «الهادئ»وهو يناقش معه بعض الأمور الإدارية، على نحو أكد للجاسوس حسن استنتاجه، قبل أن يختطف جهازه فى لهفة، ويعدو لاستقبال سفينة الشحن السوفيتية، وشحنة الصواريخ الجديدة..

وبينما يتم نقل الصواريخ إلى الشاحنات العسكرية، راح الجاسوس يختبرها بكل اهتمام وعناية..

ولكن جهازه الحديث جدا، بقى صامتا، ساكنا، على نحو يؤكد أن هذه الصواريخ الجديدة لاتحوى أى جديد، يزيد عما كانت تحويه الصواريخ القديمة..

وانتهت عملية التفريغ، ورحلت الشاحنات العسكرية بحملها الثمين، وأسرع الجاسوس ليعد تقريره إلى (تل أبيب)، مؤكدا أنه لاجديد..

وفى المساء، وعندما غادر الجاسوس مقر عمله، متجها إلى منزله، لإرسال تقرير الخيانة، التقى مصادفة بذلك الهادئ، الذى صافحه فى حرارة، وذكره بنفسه، ثم التقط الجهاز من يده، قائلا فى حماس:

- راديو رائع... من أين ابتعته؟!

أجابه الجاسوس فى حذر:

- إنه هدية..

لم يبد الهادئ اهتماما أكبر بالراديو، وإنما أعاده إليه، وهو يقول فى بساطة، وابتسامة ودودة:

- هدية قيمة بالتأكيد!

ثم راح يتحدث إليه بعض الوقت فى مودة، قبل أن يعتذر الجاسوس فى ضجر، ويغادره فى لهفة إلى منزله..

وفى نفس اللحظة، التى أرسل فيها الجاسوس تقريره السلبى إلى (تل أبيب)، مؤكدا أنه مامن جديد.. كان الهادئ يدلف إلى قاعة اجتماعات مبنى المخابرات العامة المصرية، وهو يحمل ابتسامة كبيرة، ويشير بيده التى تحمل إبرة صغيرة، قائلا:

- لقد نجحنا!

لم يكن الهادئ سوى (أ.ص)، الذى قرر القيام بالعملية شخصيا، لما يتميز به من خفة يد، جعلته ينافس أبرع الحواة! أما تلك الإبرة الصغيرة، التى دسها فى الجهاز، عندما التقطه من يد الجاسوس، قبل فحص الشحنة، ثم عاد وانتزعها بعدها بنفس الخفة والبراعة، فقد كانت عبارة عن إبرة مغناطيسية بسيطة، جذبت إليها مؤشر الجهاز الإلكترونى، ومنعته من الاستجابة للخلية الحرارية الخاصة، فى الصواريخ الجديدة، وأجهزة التوجيه المتصلة بها..

إبرة ممغنطة، هزمت أحدث جهاز إلكترونى، وحمت الصواريخ السوفيتية الجديدة!..

فى أوائل مايو ١٩٧٣م، صدر قرار بنقل الجاسوس إلى منصب إدارى بعيد عن الميناء، مع ترقيته نظرا لكفاءته.. كما جاء فى الأوراق الرسمية!..

ثم اندلعت حرب السادس من أكتوبر..

وفوجئ الإسرائيليون بتلك الصواريخ الدفاعية الجديدة، التى راحت تطارد طائراتهم كشياطين صغيرة، لتنسفها نسفا بلا هوادة، كلما جرؤت على اختراق العمق المصرى..

وفى نفس اللحظة، التى تساقطت فيها طائرات العدو كالذباب، وجن فيها جنون قادة الطيران والدفاع الجوى فى (إسرائيل).. كان (أ.ص) يقتحم مكتب الجاسوس، ويعلن شخصيته الحقيقية، وهو يلقى القبض عليه، قائلا بكل صرامة:

- كان ينبغى أن تدرك أن عين (مصر) ساهرة لاتنام.. وأن خائنها لايربح فى النهاية سوى الهزيمة والفشل والعار!

وكان من الطبيعى أن ينهار الخائن لحظتها، وأن يدلى باعترافه التفصيلى، الذى لف حول عنقه حبل المشنقة.. الذى حسم المعركة..

معركة الإبرة.. والصاروخ!

صفحات من تاريخ الجاسوسية

الصقر

«الإسرائيليون اعتقلوا الصقر».. تلك الكلمات القليلة، التى حملتها برقية شفرية عاجلة إلى المخابرات العامة المصرية، فى الساعات الأولى من صباح أحد أيام فبراير ١٩٧٣ كانت أشبه بقنبلة، تفجرت في المكان كله، وخلقت موجة من التوتر النشيط، جعلت الرجال يعقدون اجتماعاً عاجلاً طارئاً، فى حجرة الاجتماعات الرئيسية، وكل منهم يحمل ملفاً خاصاً، لمناقشة الموقف كله..

فالصقر.. كان ذلك اللقب الذى أطلقه الرجال على واحد من أفضل عملائهم وأخطرهم، فى (تل أبيب)، والذى يمكن أن يؤدى اعتقاله إلى فجوة معلومات ضخمة، لايمكن تعويضها بسهولة فى هذه الأشهر القليلة المتبقية، على الضربة الحاسمة..

وقد اجتمع الرجال لثلاث ساعات كاملة، لمراجعة ملف (الصقر) باكمله بحثا عن تلك الثغرة، التى ربما نفذ منها الإسرائيليون، لكشف الهوية الحقيقية لرجلهم، الذى تم زرعه فى المجتمع الإسرائيلى منذ أعوام طويلة بدقة متناهية، وعلى نحو لايمكن أن يتطرق إليه الشك.

والواقع أن ذلك العميل (شوكت نصر الدين)، كان شخصاً متميزاً منذ حداثته، عندما ولد ونشأ فى أسرة مصرية بسيطة، يعولها أب مصرى صميم، كان يعمل فى وظيفة حكومية مرموقة، وأم من أصول تركية، لم تبرز إلا فى اختيارها لاسم ابنها الأصغر، الذى بدا لها عند مولده، أكثر جمالاً من شقيقه الأكبر، وشقيقته الرقيقة، التى اختطفها الموت فى طفولتها، بمرض نادر عجيب..

وعلى الرغم من أن (شوكت) هو آخر العنقود، كما يقولون فى الأسر المصرية، فإنه لم يحظ بالدلال التقليدى فى مثل هذا الموقف، بسبب مرض أمه، بعد ولادته بأشهر قليلة، بمرض أقعدها لشهرين أو ثلاثة، قبل أن تسوء صحتها أكثر وأكثر، ثم تلقى ربها (سبحانه وتعالى) ، وصغيرها لم يتم عامه الأول بعد..

ولأن ضربات القدر لاتأتى أبداً فرادى، فقد اختطف الموت الوالد أيضاً، تحت عجلات الترام ذات يوم حار كئيب، ليترك ولديه (إبراهيم) و (شوكت) يتيمين، وحيدين.. يفتقدان إلى الحنان والحب والرعاية.

وعى الرغم من أنها لم ترض أبداً بهذا الزواج، فقد احتضنت الجدة التركية الصغيرين، وشملتهما بحبها وحنانها ورعايتها، حتى بلغ (إبراهيم) عامه العاشر، والتحق (شوكت) بالمدرسة الابتدائية..

ثم رحلت الجدة بدورها..

ومع رحيلها، أصبحت الحياة صعبة، وعسيرة .. بل وقاسية أيضاً..

ولأن أحدا من أفراد الأسرة لم يكن على استعداد لإعالة صغيرين فى آن واحد فقد تم اتخاذ قرار صارم بالتفرقة بين (إبراهيم) و (شوكت) ، بحيث يحيا الأول مع خالته ويستقر الثانى فى بيت عمه، الذي أصر، على الرغم من فقره، على رعاية ابن شقيقه الراحل، الذى لم يحظ بالحنان أبداً..

وكانت أصعب لحظة فى حياة (إبراهيم) و(شوكت) عندما حانت لحظة الفراق، وتشبث كل منهما بالآخر، وهما يصرخان ويبكيان، قبل أن ينتزعوا كلا منهما بعيدا عن الآخر فى عنف وحزم، لينتقل كل منهما إلى بيت آخر..

وكانت آخر مرة يلتقيان فيها، فى عمرهما كله!

فلم يمض عام واحد، حتى غادرت الخالة مسكنها فى (الإسكندرية) ورحلت مع (إبراهيم) إلى (تركيا)، حيث انقطعت أخبارهما هناك تماما.

أما (شوكت)، فقد ظل يبكى أخاه شهرا كاملا، ثم لم يلبث أن استسلم للأمر، وخضع لنوائب الزمن، وإن لم ينس شقيقه قط ، ولم يعد يضحك أو يبتسم أبداً، خاصة عندما راحت زوجة عمه تعلن استياءها لوجوده، ومشاركته أولادها رزقهم ومكانهم وحياتهم بلامبرر.. كما رددت دوماً فى غيابه ووجوده!

ولأن مثل هذه الحياة شاقة.. مرهقة، فقد استمر (شوكت) فيها طويلاً، واعتاد خلالها الانزواء والصمت، واكتساب عشرات المهارات الفردية، التى يكتسبها فى المعتاد أصحاب العقول المبدعة، إذا ما أحاطت بهم صعاب القدر..

ولقد تفوق (شوكت) فى دراسته، على نحو ملحوظ أثار حفيظة زوجة عمه، لأن أولادها لم يمكنهم تحقيق التفوق ذاته، ولم تبد عليهم علامات الذكاء، مثل ابن عمهم يتيم الأبوين، الذى لا يضحك أبداً!

وبسرعة أنهى (شوكت) مرحلته الابتدائية، ثم الإعدادية، وحصل على درجات عالية تؤهله فى بساطة للالتحاق بالمرحلة الثانوية.. فى نفس الوقت الذى فشل فيه ابن عمه فى دراسته، وراح يفكر فى عمل بسيط قريب..

وهنا ثارت ثائرة زوجة العم، وأصرت بشدة على أن يكتفى (شوكت) بالمرحلة الإعدادية، وألا يكمل دراسة الثانوية، باعتبار أنه لن يتفوق علي أسياده.. على حد قولها!..

ولكن (شوكت) خرج عن صمته هذه المرة، وثار فى عنف، وطالب بحقه فى مواصلة دراسته، حتى لو اضطر للعمل من أجل هذا ..

ورفضت زوجة العم هذا العرض فى عنف، ووضعت الجميع أمام أمرين، لا ثالث لهما .. إما أن يكتفى (شوكت) بالمرحلة الاعدادية، أو يغادر منزلها إلى الأبد..

وقبل (شوكت) التحدى!..

وخلال ساعة واحدة، كان قد جمع أشياءه الشخصية فقط .. ورحل.

ولم يدر أحد كيف قضى الصبى تلك السنوات القاسية، وهو الذى لم يبلغ الخامسة عشرة من عمره بعد، ولكن المؤكد أنه كان يمتلك إرادة فولاذية، تفوق سنوات عمره بكثير، لأنه واصل دراسته بالفعل، وحصل على الثانوية العامة، ثم التحق بكلية التجارة، وتخرج فيها عام ١٩٦١م..

والغريب أن عمه لم يحاول السؤال عنه ولو مرة واحدة، منذ غادر منزله، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، وكأنما نسى أمره تماماً، ولم يعد يعنيه شأنه بالمرة!..

وفى أوائل عام ١٩٦٢م، التقط رجل المخابرات (ص) (شوكت)، وأدرك أنه يمتلك كل المواهب والإمكانيات التى تؤهله للعمل مع جهاز المخابرات، الذى ينظم نفسه، وينشئ أجهزته الخاصة، ويخطط لزرع عدد من الرجال فى قلب أكبر عدو له حينئذ..

فى قلب (إسرائيل)..

ودون الدخول فى الكثير من التفاصيل، التى لم يرغب أحد فى الإفصاح عنها الأن، يكفى أن تعرف أن (شوكت) كان مستعداً للمهمة الخطيرة تماماً، وأنه قد قضى عاماً فى التدريب الشاق العنيف المتصل، قبل أن يسافر إلى (تركيا) التى تعلم لغتها وأتقنها تماماً، ليصبح هناك (دافيد سولومون)، ابن التاجر اليهودى (سولومون بن زايون) الذى فر من جحيم النازية، فى الحرب العالمية الثانية، وفر مع أسرته إلى (اسطنبول) لتقضى زوجته وابنته نحبها في الطريق الشاق، ويصل هو وحده، مع ابنه (دافيد) وقد أرهقهما التعب والألم والحزن، ثم لم يلبث الأب أن مات، مع منتصف الخمسينيات، تاركاً ابنه وحده، يسعى لتأمين معيشته، والبحث عن لقمة عيشه، فى (أنقره) و (أزمير)

وقضى (شوكت) عامين كاملين فى (تركيا)، أتقن خلالهما اللغة التركية أكثر وأكثر، وعمق قصته وأكدها، فى نفس الوقت الذى رتقت فيه المخابرات المصرية كل ثقب محتمل فى قصة نشأته، وراجعتها ألف مرة، حتى أيقنت أنه من المستحيل كشف حقيقته أبداً.

وعندئذ.. عندئذ فقط، بدأ (شوكت) رحلته إلى (إسرائيل)، التى هاجر إليها فى أواخر ١٩٦٤، حاملاً كل مدخرات عمله فى (تركيا)، وكل الوثائق، التى اكتسبت خلال العامين المنصرمين كل الرسمية والشرعية..

ووسط عدد من المهاجرين، وصل (شوكت) - أو (دافيد سولومون) - إلى (إسرائيل) ..

وحتى منتصف ١٩٦٦م، لم يكن لدى (شوكت) مهمة، سوى تثبيت قدميه فى عالمه الجديد، وتأكيد هويته الإسرائيلية، واكتساب ثقة كل المحيطين به.

ثم بدأت مرحلة البناء، وعقد الصداقات والارتباطات..

وهنا برزت موهبة (شوكت) الحقيقية..

فخلال عام واحد، وقبل يونيو ١٩٦٧م ،كان أحد الشخصيات المعروفة فى (تل أبيب)، وأحد رجال الأعمال الصغار، الذين يتوقع لهم الكل مستقبلاً باهراً..

ثم حدثت نكسة يونيو ١٩٦٧م..

وعاش (شوكت) أسوأ لحظات عمره، وهو يرقص احتفالاً بانتصار الإسرائيليين، وقلبه يبكى دما، لما أصاب وطنه الأم (مصر)! ..

ولكن هذا لم يحبطه أو يدمره، وإنما ضاعف من حماسه أكثر وأكثر، وفجر فى أعماقه رغبة أكبر فى الثأر والانتقام، وفى أن يثبت للإسرائيليين أن (مصر) لا تسقط أبداً، مهما طال الزمن، ومهما تكالبت عليها الخطوب.

وراح (شوكت) يواصل عمله فى إصرار وتحدٍ، ويرتبط بعلاقات أكثر وأكثر، ويرسل إلى (مصر) المزيد والمزيد من المعلومات بالغة الأهمية والخطورة.. ووضعه الاقتصادى يتحسن وينتعش أكثر وأكثر، فى نفس الوقت الذى أصبح فيه أحد نجوم المجتمع، الذين يسعى الكل لمصادقتهم، والارتباط بهم فى كل يوم ، مما جعل المخابرات المصرية تطلق عليه لقب (الصقر)! ..

ثم فجأة.. وفى قمة نجاحه، وصلت هذه البرقية القصيرة..

واشتعلت الدنيا كلها..

ولكن اجتماع الرجال أثبت، بما لايدع مجالا للشك، أنه من المستحيل أن يكشف الإسرائيليون شيئاً عن حياته السابقة.. فلماذا اعتقلوه إذن؟!

ووصلت المعلومات من (إسرائيل)، حاملة كل مايرغبون فى معرفته..

لقد تم إلقاء القبض على (شوكت) بسبب ارتباطه ببعض التجار، الذين ثبت عملهم كجواسيس للمخابرات السورية، مما أحاطه بالكثير من الشكوك، التى استدعت اعتقاله واستجوابه، كما أنهم يشون إخضاعه لاختبار جهاز كشف الكذب، مع بداية الأسبوع التالى، بعد أن ترهقه الاستجوابات ولا يعود باستطاعته خداع الجهاز بالسيطرة على أعصابه وهدوئه.

وكانت مشكلة عويصة للغاية، أمام رجال المخابرات

بقلم : د. نبيل فاروق

المصرية، فعلى الرغم من أن (شوكت) قد تلقى تدريبا خاصًا على مواجهة جهاز كشف الكذب، منذ بضع سنوات، فإن إرهاقه وتوتره قد يهزمان أعصابه، ويكشفان أمره أمام الإسرائيليين..

وهذا لايعنى فقدان عميل بالغ البراعة والخطورة فحسب، ولكنه يعنى وجود فجوة رهيبة فى نطاق المعلومات أيضاً، لفترة لا يعلم أحد - إلا الله (سبحانه وتعالى) - مداها، وإمكانية رتقها وتعويضها فى تلك الفترة الحرجة..

ثم إن اجتياز (شوكت) لهذه الأزمة، سيعني عودته إلى حياته واتصالاته ومعارفه، واستمرار تدفق المعلومات على نحو متصل وطبيعى..

ولقد راجع الرجال هذا الأمر طويلاً، وبحثوه من كل الأوجه، وفندوه من كل الجوانب، وناقشوا كل الاحتمالات.

فلكى يثق الإسرائيليون فى براءة (شوكت) لابد من القيام بعدد من الأمور.. أولها التأكد من عدم وجود أية ثغرة، فى قصة تغطيته كلها، يمكن للإسرائيليين النفاذ إلى الحقيقة من خلالها.. وثانيها - وهو الأكثر أهمية - معاونته على اجتياز اختبار جهاز كشف الكذب بنجاح..

وهذه هى المهمة الأكثر صعوبة، خاصة مع ضيق الوقت وخطورة الأمر، ونوع المكان الذى سيجرى فيه الاختبار..

وللوهلة الأولى، بدت تلك المهمة مستحيلة تماماً!

ولكن هذه هى حياة رجال المخابرات، الذين يؤمنون دوما بقاعدة ذهبية، اشتهر بها (نابليون بونابرت)، القائد الفرنسى الشهير ..

ففى قاموسهم ، لم يكن هناك وجود لكلمة (مستحيل)!..

ولأن المهمة عسيرة ومعقدة، وتحتاج إلى عقل من نوع خاص، فقد أسندت المخابرات المهمة لواحد من أفضل رجالها، فى ذلك الحين (أ. ص)..

وأول مافعله (أ. ص) عندما بدأ مهمته، بعد أربع ساعات فحسب ، من وصول تلك البرقية الشفرية، هو أنه جمع ملفات الخبراء والفنيين، فى جهاز كشف الكذب الإسرائيلى، وراح يطالعها مع فريقه، ويدرسون كل حرف منها، ويطالعون كل معلومة، مهما تبدو تافهة أو بسيطة، لإيمانهم التام بأن ثغرة صغيرة، قد تكفى لعبور فيل كامل، لو تم كشفها فى الوقت المناسب!.

ولقد استغرقت عملية البحث هذه وقتاً طويلاً للغاية، قبل أن يهتف (أ. ص) فجأة، على طريقة (أرشميدس) وهو يشير إلى معلومة حديثة، جاءت فى أحد الملفات: وجدتها!..

ولثلاث ساعات أخرى، راح الرجال يناقشون فكرته البسيطة، التى بدت سخيفة فى البداية، ثم سرعان ما أدرك الرجال قوتها وفاعليتها، مما جعلهم يبدأون عملهم ، فور انتهاء الاجتماع، فى الخامسة فى صباح اليوم التالى مباشرة.

.....

وفى الحادية عشرة، بتوقيت (تل أبيب)، اتجهت (إستر)، زوجة (إفرايم) فنى جهاز كشف الكذب، فى المخابرات الإسرائيلية، إلى النادى كعادتها لتجالس شلة صديقاتها، ورحن يتبادلن بعض الأحاديث التافهة، والدعابات المبتذلة، والحكايات السخيفة، قبل أن تظهر (ليليان)، المجندة الإسرائيلية الشابة، وتتجه نحوهن مباشرة، ثم تشير إلى (إستر) قائلة:

هل يمكننى التحدث إليك وحدنا لحظات؟!

تبعتها (إستر) إلى منضدة قريبة، تجلس عندها شابة فاتنة، محمرة العينين قدمتها لها (إستر) قائلة:

صديقتى (كيتى)، من أيام الدراسة، وهى تطلب منك خدمة بسيطة

سألتها (إستر) فى حذر:

– أى نوع من الخدمات؟!

لم تكد تلقى سؤالها، حتى انفجرت (كيتى) باكية، وسالت دموعها على وجهها فى غزارة، وهي تروى قصة صديقها رجل الأعمال (دافيد سولومون) الذى تم اعتقاله ظلماً، وكيف أنها تبكى طوال الوقت، وتتمنى رؤيته، ولو للحظة واحدة، لتبلغه حبها وتحياتها..

وبدت دهشة حذرة على وجه (إستر) وهى تسأل:

وما شأنى أنا بكل هذا؟!

واصلت (كيتى) بكاءها، فى حين مالت (ليليان) على (إستر)، قائلة:

. كل مانريده هو أن تقنعى زوجك بتقديم خدمة لصديقتى (كيتى)، لأن صديقها معتقل عندهم هناك .. في المخابرات الإسرائيلية.

هتفت (إستر):

مستحيل! .. (إفرايم) يرفض تماماً أى تدخل فى عمله، ولن يقبل القيام بهذه المهمة قط .. ثم إنه لايستطيع اصطحابها لزيارة صديقها إلا بموافقة رؤسائه..

قالت (كيتى)، بدموع تدعو للرثاء:

– ليس من الضرورى أن ألتقى به أو أراه .. يكفى أن ينقل زوجك رسالتى إليه فحسب ليدرك كم أحبه .. أرجوك.

هزت (إستر) رأسها فى قوه هاتفة:

- قلت مستحيل!! لن يوافق (إفرايم) على هذا أبداً!

قالت (ليليان) فى هدوء:

– كل زوجة لديها ألف وسيلة لإقناع زوجها بالقيام بما تريده، لو أرادت هذا .. استخدمى معه إحدى وسائلك!

ثم مالت على أذنها، مضيفة فى صرامة:

– بعض ماتستخدمينه مع صديقك الدكتور (دان)!

اتسعت عينا (إستر)، وارتجف جسدها فى عنف، وهى تحدق فى وجه (ليليان) وقد فهمت رسالتها، واستوعبت مغزاها، وأدركت ماينبغى أن تفعله، حتى لاتفضح (ليليان) علاقتها بالدكتور (دان)، المتزوج من امرأة شرسة ذات نفوذ!

ومنذ تلك اللحظة، لم ينعم (إفرايم) بلحظة هدوء واحدة، وزوجته تواصل الحديث ليلا ونهاراً عن (كيتى) المسكينة، ودموعها، وحزنها .. و رسالتها..

ولقد غضب الفنى الإسرائيلى فى البداية، وثار، وهدد وتوعد.. ولكن مع أول مرة، رفضت فيها (إستر) السماح له بلمسها، استسلم تماماً!.. ووافق على توصيل الرسالة الشفهية، بعد أن راجعها فى ذهنه ألف مرة، وتأكد من أنها لاتحوى أية كلمات مشتبه فيها..

ولأن فنى جهاز كشف الكذب لايمكنه أن يخبر أحداً من زملائه بالأمر كان من الطبيعى ألا يمكنه توصيل الرسالة إلا فى لحظة بعينها

وهو يعد (شوكت) لجلسة الاختبار

اختبار كشف الكذب..

صحيح أن (شوكت) يتميز بأعصاب قوية، إلا أنه فى تلك اللحظات، وهم يوصلون جسده بأسلاك جهاز كشف الكذب، كان يشعر بشئ من التوتر فى أعماقه، ويلقى على نفسه سؤالاً مقلقاً..

ترى هل سيمكنه خداع جهاز كشف الكذب هنا، كما نجح فى خداعه فى تدريبات المخابرات المصرية؟! وبينما يدور السؤال فى رأسه، انحنى عليه (إفرايم) فى لحظة غفل عنه فيها الآخرون وهمس فى توتر:

– (كيتى) تبلغك تحياتها، وتؤكد أنها تحبك، وأن (الصقر) فى رعايتها دائماً

وانتفضت كل ذرة فى كيان (شوكت)، عندما سمع العبارة.

فاسم (كيتى) هو الذى كانت توقع به كل البرقيات المشفرة، التى تصل إليه من (أوروبا)، حاملة تعليمات المخابرات المصرية.. أما (الصقر) فهو لقبه السرى الخاص، ومن المستحيل أن يعرف (إفرايم) هذا إلا لو كانت المخابرات المصرية معه هنا .. فى قلب جهاز المخابرات الإسرائيلية!

ومن الطبيعى أن يبث هذا فى كيانه كل الثقة والهدوء والارتياح وهو يقدم على اختبار جهاز كشف الكذب..

وفى صباح اليوم التالى تلقى (شوكت) عشرات الاعتذارات، من مسئولى الحكومة، والمخابرات الإسرائيلية، بعد أن اجتاز بنجاح اختبار كشف الكذب.. وتم الافراج عنه مباشرة.

ولقد التزم (شوكت) بحياته التقليدية، دون محاولة لجمع المعلومات أو الاتصال بالمخابرات المصرية، أيا كانت الأسباب، طوال الأشهر الثلاثة التالية.. وبعد أن وصلته برقية خاصة، من المخابرات المصرية، تشير إلى أن فترة مراقبته قد انتهت بدأ (شوكت) يعود إلى نشاطه رويدا رويداً..

ومنذ أول سبتمبر - وبناء على طلب جهاز المخابرات نفسه - تضاعف كم مايرسله إلى (القاهرة) من معلومات وتزايدت غزارته، حتى اندلاع حرب أكتوبر ١٩٧٣م وفى هذه المرة، كان على (شوكت) أن يبكى مع الإسرائيليين على الهزيمة، وقلبه يرقص طرباً، فرحاً بانتصار (مصر)!

وفى السابع من نوفمبر، وبناء على برقية شفرية، سافر (شوكت) إلى (روما)، ليلتقى هناك برجل المخابرات المصرية (أ. ص) لأمر مهم وعاجل.. كما أشارت البرقية.

وعندما التقيا - وربما لأول مرة فى حياتهما! - تصافحا فى قوة وحرارة، و (أ ص) يبتسم ابتسامة كبيرة قائلاً:

– مرحبا أيها (الصقر) .. مرحبا يابطل .. (مصر) تقدم لك خالص شكرها، على كل ماقدمته لها طوال السنوات الماضية.

قال (شوكت) فى حرارة:

– رقبتى فداء الوطن ..(مصر)..

اتسعت ابتسامة (أ. ص) وهو يقول:

– لقد أردنا أن نقدم لك هدية خاصة، ولكننا أدركنا أنك قد صرت ثرياً إلى درجة لايمكن أن تنبهر بأية هدية! لذا فقد فكرنا فى شئ خاص جداً..

قالها واستدار إلى باب جانبى خرج منه رجل طويل القامة، ارتفع حاجباه فى تأثر، وارتجفت شفتاه فى انفعال، وهو يقول:

– كيف حالك أيها الكتكوت التركى؟!

لم يكد (شوكت) يسمع ذلك الاسم، الذى افتقده منذ زمن طويل، حتى حدق فى ذلك الطويل لحظة فى ذهول، قبل أن يندفع نحوه بكل قوة.. صارخا بانفعال الدنيا كله:

(إبراهيم)..

وأمام عينى (أ. ص)، وابتسامته الواسعة الدافئة، تعانق الشقيقان، بعد أن فرقت بينهما الأيام لعشرات السنين، وحرمت كلاً منهما من حب وحنان الآخر..

وبصعوبة، كتم (أ. ص) دموع تأثره، وهو يشعر بسعادة جمة، لأن (مصر) قد قدمت أفضل هدية لرجلها، الذى بذل من أجلها الكثير، وهو يراقب عدوها، طوال سنوات عديدة .بعينين تعشقان تراب الوطن..

..عينا (صقر).. مصرى!

عملية عاجلة

لا أحد يدرى لماذا جاء صيف ١٩٧٣م شديد الحرارة؟!.. وكأنما يشعر الطقس بكل تلك التحركات الساخنة، التى تدور تحت غطاء بارد هادىء، استعداداً لتوجيه ضربة ثأرية مركزة للعدو الإسرائيلى، الرابض فى صحراء (سيناء)، والذى يقف متبجحاً ساخراً، عند الشاطىء الشرقى لقناة (السويس)، واثقاً بأن خط (بارليف)، الذى اعتبره المؤرخون العسكريون أقوى خط دفاعى استحكامى عسكرى عرفه التاريخ، سيقف كجدار من الصلب فى وجه أية محاولة مصرية للعبور، أو استرداد الأرض السليبة.

وفى نفس الوقت، الذى ترهل فيه جنرالات (إسرائيل)، من نشوة النصر والثقة المفرطة، والإحساس بالذات والقوة، الذى تضخم أكثر مما ينبغى، استناداً إلى أكذوبة أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لا يقهر، والتى أطلقوها للتأثير فى المعنويات العربية، ثم ما لبثوا أن صدقوها، وغرقوا فيها حتى النخاع! - كان المصريون يعملون، على قدم وساق، ويبذلون الجهد والعرق والمال، والحياة أيضاً، لوضع خطة التحرير، وما ينبغى أن يسبقها، من خطة الخداع الاستراتيجية المتكاملة..

وفى الوقت الذى بلغت فيه الأمور ذروتها أو كادت، وصلت تلك المعلومة المخيفة: الإسرائيليون تعاونوا، مع إحدى دول (أمريكا اللاتينية)، لتطوير وتحديث وسائل الكشف والتأمين والدفاع داخل خط (بارليف)..

كانت خطورة الخبر تكمن فى أن الرجال قد عملوا كثيراً وطويلاً، طوال الأشهر الماضية، لجمع كل المعلومات الممكنة، عن خط (بارليف)، من كل الزوايا الممكنة، حتى إنهم قد استطاعوا صنع نموذج متكامل لإحدى وحدات (بارليف)، ليتم تدريب قوات الاقتحام عليه، وتم تدريب قوات الكوماندوز بالفعل.. والتغيرات المفاجئة، فى هذا الوقت، تصنع ارتباكاً غير مطلوب على الإطلاق.. ثم إن الوقت ضيق للغاية، ولو أن الخبر صحيح مائة فى المائة، فمن المحتم أن يحصل الرجال على التغيرات الجديدة، بأسرع وأضمن وسيلة ممكنة، حتى يعاد تدريب قوات الاقتحام لتحقيق النتائج المنشودة، وتفادى المفاجآت غير المتوقعة، فى اللحظات الحاسمة.. وكالمعتاد، اجتمع الرجال مع ملف عملية (بارليف)، والملف الكامل للعلاقات والتعاون بين (إسرائيل) وتلك الدولة فى (أمريكا اللاتينية).. وفى الوقت ذاته، نشط عملاء المخابرات المصرية، لجمع كل المعلومات الممكنة، مهما بلغت دقتها، حول هذا التطور وأبعاده.. ولم يكن الأمر سهلاً بالتأكيد؛ فلا شك فى أن الإسرائيليين سيحرصون أشد الحرص على إخفاء ما يحدث، وعلى إحاطة الأمر كله بالسرية البالغة، وحمايته طوال الوقت «بأى ثمن».. ولقد فعلوا هذا بالطبع، ولكن عيون المخابرات المصرية وآذانها نجحت فى اختراق الجدار الفولاذى، وتسللت إلى قلب العدو، وعرفت ما يحدث.. ولكن هذا كان مجرد بداية.. فعلى الرغم من كل ما بذل من جهد وعرق ودم، لم تتوصل المخابرات المصرية إلى طبيعة التعديلات والتغيرات فى نظم الأمن والدفاع داخل خط (بارليف)، ولكنها استطاعت تحديد المكان، الذى توضع فيه تصميمات التغييرات، ومعرفة أسماء بعض العاملين فيه ونوعياتهم ووظائفهم.. وكان من الواضح أن الإسرائيليين قد أجادوا اللعبة إلى حد مدهش هذه المرة، وأنهم قد أحاطوا عملهم بسياج لا يقهر بالفعل، لحجبه وحمايته.. ولكن الرجال فى القاهرة، كانوا يؤمنون بأمر واحد.. أنه لا يوجد مستحيل..

هناك حتما ثغرة ما، فى مكان ما..

وهناك عقول تفكر، وتبحث، وتدبر، وتخطط..

وتلك العقول هى التى عثرت على الثغرة.. فلو أن اختراق منطقة العمل مستحيل، والحصول على الخطة والتغييرات، بعد وصولها إلى (إسرائيل)، يحتاج إلى جهد شديد، ووقت غير متوافر.. إذن فأفضل مرحلة يمكن فيها الحصول على المطلوب، هى مرحلة النقل.. نقل التصميمات الجديدة، من (أمريكا اللاتينية) إلى (تل أبيب).. وبدأ الرجال بالفعل، فى دراسة تلك الخطوة الجديدة.. كان هناك خبراء فى فهم أسلوب تفكير العدو الإسرائيلى والتعامل معه، وهؤلاء قدروا مجتمعين أن (إسرائيل) - كوسيلة من وسائل السرية - لن تحاول نقل التصميمات تحت حماية مشددة واضحة، حتى لا تجذب الانتباه إلى مضمونها وخطورتها، وإنما ستحاول استخدام وسيلة جديدة، مع تأمينها على نحو سرى غير مباشر.. ولا أحد يمكنه أن يتصور كم كانوا عباقرة!.. فهذا ما فعله الإسرائيليون بالضبط.. لقد لجأوا إلى أسلوب جديد بالفعل، ولكنه فعال إلى حد كبير، فقد عهدوا بالتصميمات إلى واحد من أبرع رجالهم، وهو رجل المخابرات (دان كوهين)، الذى وضع تلك التصميمات داخل حقيبة خاصة، مزودة برتاج من أحدث الأنواع المعروفة، فى ذلك الوقت، مجهز بحيث ينثر مادة حمضية مركزة، على كل التصميمات داخل الحقيبة، عند أية محاولة لفتحها بالقوة، والحقيبة نفسها تم ربطها بأغلال فولاذية، إلى معصم رجل أعمال يهودى، اعتاد استخدام تلك الوسيلة، لحماية الأموال الكثيرة، التى يحملها معه فى صفقاته، من السارقين واللصوص، بحيث يحمل رجل الأعمال التصميمات السرية فى حقيبته، المثبتة فى معصمه، فى حين يسافر (دان) معه على الطائرة نفسها، حاملا حقيبة ملابس عادية، لحراسة التصميمات وحمايتها طوال الوقت، دون أن تبدو منه أدنى بادرة، توحى بمعرفته لرجل الأعمال..

وعلى الرغم من أن أحد عملاء المخابرات المصرية، ممن لهم باع طويل فى أمريكا اللاتينية) قد حصل على تفاصيل الخطة كاملة، فإن الأمر لم يتجاوز طبيعته الأولى..

جدار صلب من الفولاذ، يصعب اختراقه أو تجاوزه..

كيف يمكن الحصول على تصميمات مهمة كهذه، من حقيبة يحملها رجل، بواسطة أغلال فولاذية حول معصمه، دون أن يدرك العدو ما حدث، حتى لايعمد إلى تغيير النظم مرة أخرى، أو تعديل خطط أمنه ودفاعاته، لتفادى كشف تصميماته الجديدة؟!

ومرة أخرى، كان على الرجال أن يواجهوا المستحيل..

المستحيل المطلق..

وفى مبنى المخابرات العامة المصرية، ظلت حجرة الاجتماعات الرئيسية مضاءة، طوال أكثر من عشر ساعات متصلة، استهلك الرجال خلالها مايقرب من ستة لترات من القهوة، وهم يدرسون الموقف الجديد من كل الوجوه، ويراجعون كل مالديهم، عن رجل المخابرات الإسرئيلى (دان)، وعن رجل الأعمال اليهودى..

كل التفاصيل مهما بدت تافهة، كانت تعنى الكثير دوماً، فى مثل هذه الظروف..

العادات.. الذوق.. الموسيقى المفضلة.. أو حتى نوع الجوارب المستخدمة

وفجأة، هتف رجل المخابرات المصرى (أ.ص) فى الخامسة إلا عشر دقائق فى فجر اليوم التالى:

-وجدتها!

وبحماس شديد، هب من مقعده، وراح يشرح للكل خطته العبقرية المدهشة، وهو يدور حول مائدة الاجتماعات، ويستخدم ذراعيه وأصابعه لوصف انفعالاته وتوضيحها، ويشرح تفاصيل فكرته، وأبعادها، واحتمالاتها، كعادته كلما اندمج بمشاعره كلها فى أمر ما.

وبمنتهى الاهتمام، راح الكل يستمع إليه، ويتابعه، ويناقشه أو يستوضحه، حتى انتهى من شرح مالديه، فران على المكان صمت مهيب، استغرق دقيقة كاملة على الأقل، قبل أن يقول قائد المجموعة فى خفوت:

- فكرة عجيبة ومجنونة..

ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة حماسية، وهو يضيف:

- ولكنها ممكنة التحقيق.

سرت بين الجميع همهمة استحسان وارتياح، جعلته يستدرك فى حزم صارم: لو أحسنا أداء كل خطوة منها، وحرصنا بشدة على التوقيت.

فكانت عبارته هذه إيذاناً ببدء دورة جديدة من الاجتماعات والمناقشات، لم تنته قبل الخامسة عصراً، عندما تم اتخاذ قرار نهائى بتنفيذ الخطة، وعهد بها لصاحبها كالمعتاد، (أ.ص)..

كان الوقت أضيق مما ينبغى، لذا، وعلى الرغم من أنه لم يذق لحظة واحدة من النوم، خلال الثمانية والأربعين ساعة الأخيرة، فقد بدأ (أ.ص) على الفور سلسلة من الاتصالات الدولية، وتحدث إلى عشرات من عملاء المخابرات المصرية، فى (أمريكا اللاتينية) و (أوروبا) قبل أن يستقل الطائرة إلى (مدريد)فى العاشرة والنصف مساءً حيث فرد مقعده عن آخره، وترك جسده بهدوء فى نوم عميق للغاية طوال الرحلة..

وفى مساء اليوم التالى، وفى أمريكا اللاتينية استقل رجل الأعمال اليهودى طائرته ،المتجهة إلى

بقلم : **د. نبيل فاروق**

(أسبانيا)، ومنها إلى (تل أبيب)، وهو يمسك بقوة تلك الحقيبة الخاصة، المثبتة بأغلال فولاذية فى معصمه، واستقر على مقعد فى الدرجة الأولى، وخلفه بأربعة مقاعد فقط جلس رجل المخابرات الإسرائيلى (دان) ،يراقبه بعينى صقر شرس، مستعد ومتأهب ومتحفز للانقضاض، فى أيه لحظة، إذا مالاح الخطر من بعيد..

وبعد ساعة واحدة من الانطلاق، طافت مضيفة حسناء الطائرة، تسأل الركاب عما يرغبون فى تناوله، وتدفع أمامها عربة صغيرة، عليها عدد من المشروبات المرطبة والروحية المختلفة..

وعندما وصلت إلى رجل الأعمال اليهودى، لم تكن عربتها تحوى سوى زجاجة واحدة صغيرة من البوبورن.. المشروب المفضل له دوماً..

وكان من الطبيعى أن يلتقطها، من بين كل المشروبات الأخرى، ومن الطبيعى أيضاً أن تمنحه المضيفة الحسناء ابتسامة ساحرة، وهى تقول:

بالهناء والشفاء ياسيدى..

سحرته ابتسامتها بالفعل، وظلت عالقة بذهنه، طوال الساعات التالية، والطائرة تواصل رحلتها عبر المحيط.. و..

وفجأة، وبالقرب من سواحل (أوروبا) بدأ رجل الأعمال يشعر بتلك الأعراض المؤلمة...

مغص محدود، في أسفل الجانب الأيمن من بطنه، مع ارتفاع طفيف في درجة الحرارة، وميل شديد للقئ..

ثم راحت تلك الأعراض تتطور وتتطور، حتى بدأت مرحلة القئ العنيف، والمغص الشديد والحمي ، حتي إن رجل الأعمال راح يتلوى من الألم،و على الرغم من المسكنات التي حقنه بها مضيف الطائرة، والمتوافرة في صندوق الإسعافات الأولية..

ولأنه من الضروري ألا يبدي (دان) أية معرفة برجل الأعمال اليهودي، إلا في حالات الخطر القصوى، فلقد اضطر رجل المخابرات الإسرائيلي إلى التزام الصمت والسكون، وقائد الطائرة يبلغ مطار (مدريد) بوجود مريض يحتاج إلى إسعاف عاجل، فور الهبوط هناك..

وقبل حتى أن تلامس إطارات الطائرة مهبط المطار، كانت هناك سيارة إسعاف تقف هناك، في انتظار المريض، الذي فقد الوعي داخل الطائرة بالفعل، من شدة الألم...

وبسرعة توحى بالخبرة والثقة، شخّص الطبيب المصاحب لسيارة الإسعاف الحالة، باعتبارها التهاباً حاداً، وانفجاراً بالزائدة الدودية، ممايحتم إجراء جراحة عاجلة فورية، ثم أبدى قلقه لوجود تلك الحقيبة، المتصلة بمعصم الرجل، وسأل عن أى شخص مصاحب للرجل ، حيث لم يتم العثور على مفاتيح الأغلال في ثياب رجل الأعمال..

وعلي الرغم من أن (دان كوهين) كان يحمل المفاتيح الأصلية في جيبه، إلا أنه لم يفصح عن هذا قط، كضابط مخابرات محترف، يدرك أهمية الحفاظ على سر عمله وغطائه..

وهنا تساءلت المضيفة الحسناء، عما إذا كان بالإمكان إجراء الجراحة، دون فصل الحقيبة، فتردد الطبيب بعض الوقت، قبل أن يجيب بأن هذا ممكن، ولكنه غير مريح، ثم لم يلبث أن قلب كفيه في استسلام، وقبل الأمر، على نحو يوحي بأنه مرغم على هذا..

وكاد عقل (دان) يطير، عندما انصرفت سيارة الإسعاف حاملة رجل الأعمال اليهودي، وحقيبة الأسرار، ولم يعد أمامه سوى التخلي عن إكمال الرحلة بدوره، بأية حجة كانت ليتابع الموقف عن كثب، ويطمئن إلي مصير الحقيبة..

وفي (مدريد) تم نقل رجل الأعمال اليهودي إلى قسم الطوارئ بالمستشفى العام، حيث كان في انتظاره فريق من الأطباء تم انتقاؤه بدقة تفوق الوصف.

وتحت إشراف ورعاية (أ.ص) شخصياً!

وداخل غرفة العمليات والطوارئ، حدثت أمور يعجز العقل عن استيعابها!

فبينما انهمك الأطباء في إجراء عملية إزالة الزائدة الدودية، لرجل الأعمال اليهودى بالفعل، كان الفريق التابع للمخابرات العامة المصرية يعمل بنشاط ودقة وسرعة مذهلة، وببراعة تستحق إعجاباً يفوق الوصف..

خبير خاص قام بفتح الرتاج، لتفادي انطلاق نظامه الدفاعي، والحفاظ على سلامة الوثائق التي تم انتزاعها، وتصوير كل سنتيمتر منها، ثم إعادتها إلى الحقيبة بنفس الترتيب والتنسيق.

كل هذا خلال ربع الساعة التي يستغرقها إجراء عملية إزالة الزائدة الدودية ودون نزع الأغلال، التي تربط الحقيبة بمعصم الرجل..

وفي رواق المستشفى، راح (دان كوهين) يتحرك في عصبية كذئب جريح، ويجري مجموعة من الاتصالات، أدت إلى استدعاء طبيب يهودي من منزله، وإبلاغ القيادة في (تل أبيب) بذلك التطور غير المتوقع أو المنتظر..

ولقد وصل ذلك الطبيب اليهودي بأقصى سرعة، واندفع على الفور إلى حجرة عمليات الطوارئ، في نفس اللحظة التي كان فريق الأطباء يغلق فيها الجرح، بعد أن انصرف الفريق التابع للمخابرات المصرية، دون أن يترك خلفه أدنى أثر..

وكطبيب.. كان ينبغي للرجل أن يبدي الاهتمام الأول بالمريض الراقد أمامه، إلا أنه وعلى الرغم من هذا راح يلقي عشرات الأسئلة عن الحقيبة المثبتة بمعصمه فأجابه فريق الأطباء بأنها تزعجهم وتربكهم كثيراً، ولكن ماباليد حيلة، لأنهم يجهلون تماماً وسيلة انتزاعها..

ومن المؤكد أن (دان) قد شعر بالارتياح الشديد، عندما سمع من الطبيب اليهودي هذا.. إلا أنه أرسل في طلب خبير خاص، للاطمئنان على أن أحداً لم يمس الحقيبة أو محتوياتها، بأية صورة كانت.

ولقد وصل ذلك الخبير الإسرائيلي في مساء الليلة نفسها، وانتزع الحقيبة من معصم رجل الأعمال اليهودي، ثم فتح رتاجها بوسيلة خاصة، وفحص محتوياتها بكل دقة واهتمام، قبل أن يقول في حزم:

كل شئ سليم .. الوثائق والتصميمات لم تمس..

وهنا فقط تنفس (دان كوهين) ورؤساؤه الصعداء، وأرسلوا إلى (دان) يطلبون منه تسليم الحقيبة للخبير، ليعود بها على طائرة خاصة، إلى (تل أبيب)..

وفي نفس اللحظة، التي وصلت فيها الحقيبة إلى (تل أبيب)، كان (أ.ص) يصل بكل الصور والوثائق إلى (القاهرة)..

وقبل حتى أن يبدأ الإسرائيليون في تنفيذ التصميمات والتعديلات الجديدة، داخل خط (بارليف)، كان المصريون يدرسونها، ويفحصونها، ويضعون كل الخطط للتعامل معها..

والسيطرة عليها ..

بل وسبقوا الإسرائيليين إلى تنفيذ التعديلات ، وتدريب قوات الكوماندوز ومجموعة الاقتحام الأولى عليها فى سرية بالغة، بلغ من دقتها وتعقيدها ، أن الإسرائيلين لم يعلموا بأمرها، إلا مع العبور والاقتحام الفعلى .. فعندما اندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣م ، وانطلقت موجة الطيران الأولى لتدك الحصون والمطارات فى قلب حصون خط (بارليف)، كان الإسرائيليون يتصورون أن الاستعدادات والتطويرات الجديدة ستفاجيء المصريين ، وتسحقهم سحقاً بلا رحمة.. ولكن المفاجأة كانت من نصيبهم هم..! لقد اقتحم المصريون حصون خط (بارليف) ، وهم يعرفون طريقهم جيداً ، وينطلقون فى ثقة وجرأة وثبات . كما لو أنهم يعرفون طريقهم جيداً! ..

وعندما وصلت الأخبار ، بسقوط خط (بارليف) ، أقوى مانع عسكرى فى التاريخ، وانهيار أسطورته،مع أسطورة الجيش الإسرائيلى الذى لايقهر.. ابتسم (أ . ص) فى ثقة وارتياح..

ابتسم ، لأنه يدرك أن خطته كانت جزءاً من هذا النجاح ..

خطة العملية العاجلة..

العملية التى استأصلت زائدة ضارة، من الجسد الأم ..

زائدة اسمها العدو .. الإسرائيلى !

الخطر الأحمر!

الخامس والعشرون من سبتمبر ١٩٧٣م... بدأ العد التنازلى بالفعل، استعداداً لساعة الصفر، فى السادس من أكتوبر التالى، ولحظة المواجهة الكبرى، التى تستعد لها كل أجهزة الدولة، منذ عدة سنوات..

أقوى خطة خداع عسكرى بلغت مرحلتها الأخيرة، لإقناع العدو بأن فكرة الحرب لم ترد لحظة واحدة ببال القيادة المصرية السياسية، أو العسكرية..

الكل تأهب وتحفز، وراح يمضى فى عمله بكل الحماس والقوة والإصرار، والقلوب كلها تخفق بالحزم والأمل، و...

وفجأة، وصلت تلك المعلومة المخيفة إلى جهاز المخابرات العامة المصرية.. أحد الجنرالات السوفييت، هو فى حقيقة أمره عميل للمخابرات الإسرائيلية!

معلومة بدت أشبه بقنبلة مدوية، وسط صحراء من الصمت والتكتم، والعمل المثمر الطويل..

فعلى الرغم من أن الرئيس (السادات) قد اتخذ قراره الحاسم بالفعل، منذ عدة أشهر، بطرد وإنهاء خدمة كل الخبراء السوفييت فى (مصر).. فإن الجيش لايزال يعتمد على الأسلحة والذخائر الروسية، كما أن الضرورات السياسية، والعسكرية أيضا، كانت تحتم أن يتم إبلاغ السوفييت بموعد الهجوم المصرى الوشيك، قبيل اندلاعه بعدة ساعات على الأقل..

ووجود جاسوس إسرائيلى وسط السوفييت، يعنى خطر تسرب الخبر إلى الإسرائيليين، الذين سيهرعون لرفع حالة الاستعداد إلى أقصاها حتما، مما يعرض عملية العبور لخطر داهم لا يعلم مداه سوى الخالق عز وجل..

وفى الوقت نفسه، لم يكن رجال المخابرات المصرية يمتلكون الأدلة الكافية، لإقناع القيادة السوفيتية بالأمر، فى الوقت المناسب..

ولأن الأمر أخطر من أن يناقش بوساطة المخابرات العامة وحدها، كان من المحتم عرضه على أكبر قيادة سياسية وعسكرية فى البلاد..

على رئيس الجمهورية شخصياً..

وبهدوئه المعتاد، وبينما ينفخ دخان غليونه الشهير، استمع الرئيس السادات إلى المعلومة الخطيرة، دون أن يقاطع مدير المخابرات بحرف واحد.. وما أن انتهى هذا الأخير من حديثه، حتى هز الرئيس رأسه، وأكد أن الأمر خطير بالفعل، لما يحمله من مزيج عسكرى وسياسى مخيف.. ففى حالة عدم قدرتنا على تأكيد عمل ذلك الجنرال السوفيتى لحساب الإسرائيليين، بأدلة قوية موثقة، سنكون مضطرين إما إلى التغاضى عن إبلاغ السوفييت بموعد الهجوم، بكل ما يمكن أن يجره هذا من مشكلات سياسية وعسكرية مستقبلية، خاصة مع اندلاع القتال، واحتمالات احتياجنا لقطع غيار أو ذخائر سوفيتية.. أو إلى تأجيل ساعة الصفر، حتى يتم إثبات عمالة الجنرال السوفيتى، مما سيضيع توقيتا مدروسا، توصل إليه الخبراء بعد جهد شاق طويل..

ولثلاث دقائق كاملة بعدها، ظل الرئيس صامتاً، ينفث دخان غليونه، وسط تفكير عميق، قبل أن يقول فى صرامة حازمة:

- لابد من حل ثالث.. حل لا يضطرنا إلى أى من الحلين السابقين.

ثم مال نحو مدير المخابرات، مضيفاً:

- حل يبعد ذلك الجنرال السوفيتى عن عمله، حتى ساعة الصفر.

والتقط مدير المخابرات طرف الخيط!

وفى اجتماعه مع رجاله ومعاونيه، بعد ساعة واحدة، أبلغهم ما طرحه السيد الرئيس، ثم طلب منه التحرك فى حدوده.. وفى نهاية الاجتماع أسند المهمة كلها إلى واحد من أبرع وأكفأ وأخبث ثعالب المخابرات المصرية..

إلى (أ. ص)..

وبعدها لم يغمض لرجل المخابرات المحنك جفن، طوال ساعات عشر، قضاها يفكر بلا توقف، ويدرس ملفات جنرالات السوفييت صفحة صفحة، وجملة جملة، وحرفا حرفاً.. وبالذات ملف الجنرال العميل، الذى سنطلق عليه هنا اسم (سيرجى).. وهو بالطبع ليس اسمه الحقيقى..

ومع نسمات الفجر الأولى، وقر فى نفس (أ. ص) أمر واحد..

الحل يكمن فى مزيج أيضا من السياسة والعسكرية..

وبعد حلاقة سريعة، وقدح قهوة مركز، وبعض التنظيم في الأوراق والملفات، طلب (أ. ص) مقابلة رئيسه، وطرح أمامه فكرته كاملة..

ومن الواضح أنها كانت كالمعتاد، خطة بسيطة وعبقرية للغاية، حتى إن مدير المخابرات قد حملها بنفسه، بعد ساعة واحدة فقط، ليعرضها على السيد رئيس الجمهورية.. الذى طالعها فى عناية شديدة، وهو ينفث دخان غليونه فى بطء وصمت، قبل أن يرفع عينيه إلى المدير، قائلاً:

- غداً أول أيام رمضان.. كل عام وأنتم بخير.

ابتسم المدير فى هدوء، قائلاً:

- وسيادتكم بخير يا فخامة الرئيس.

تنهد الرئيس فى عمق، وتراجع فى مقعده، وغمغم، وكأنه يحدث نفسه:

- أظنها بشارة خير..

ثم عاد يدير عينيه إلى المدير فى حزم، وهو يغلق ملف الخطة، قائلاً:

- على بركة الله.

وكانت عبارته هى إشارة البدء!

●●●

وفى اليوم التالى مباشرة، وعن طريق القنوات الدبلوماسية المصرية، تلقت القيادة السوفيتية خطاباً رسمياً، يقول فيه المصريون إنهم يعانون مشكلة عويصة فى سلاح الطيران، تحتاج إلى خبراء على أعلى مستوى، ويطالبون السوفييت بإرسال لجنة عليا، يرأسها جنرال سوفيتى، لمناقشة المشكلة مباشرة، مع القيادة العسكرية المصرية..

ولقد أدهش الخطاب السوفييت بالطبع!

كيف يطرد المصريون الخبراء السوفييت، ثم يعودون، لطلب لجنة منهم، لمعالجة مشكلة لم يفصحوا عنها فى خطابهم؟!..

ولكن الدهشة لم تمنع السوفييت من أن ينفخوا أوداجهم، ويبتسمون فى زهو شامت، وهم يعلنون موافقتهم على المطالب المصرية، التى تؤكد حدوث خطأ لا يغتفر، فى طرد كل الخبراء السوفييت فيما سبق..

والواقع أن هذا الخطاب كان ضربة معلم بحق! فعلاوة على أن الجنرال العميل كان بالتأكيد أفضل خيار سوفيتى لرياسة اللجنة المرسلة إلى (مصر)، كان الخطاب نفسه يوحى، بأسلوب غير مباشر، بأن سلاح الطيران المصرى ليس كفئا، فى الوقت الحالى، لشن أية هجمات حاسمة، على الجانب الإسرائيلى..

وفى الوقت نفسه، ولتأكيد الأمر، وتعميق الفكرة، أشيع أمر المشكلة، التى يعانيها سلاح الطيران المصرى، على نحو يوحى بأنه معلومة سرية، تسربت دون وعى..

ولأن السوفييت كانوا يتلهفون لسماع أمر المشكلة، التى تثبت للمصريين أنهم قد أخطأوا بطرد خبرائهم، فقد استقبلوا الأمر بارتياح، وصدقوه على الفور، وصدقه بالتالى جنرالهم، الذى يعمل لحساب الإسرائيليين..

وبسرعة، وقبل مرور ثلاثة أيام، تم تشكيل اللجنة المطلوبة، برياسة الجنرال (بريماكوف).. وقام الملحق العسكرى للسفارة السوفيتية بعرض أسماء أعضاء اللجنة على القيادة المصرية، التى اعترضت على اسم (بريماكوف)، بسبب احتكاك حدث بينه وبين بعض قادة الطيران المصريين، منذ فترة طويلة..

والبراعة الحقيقية تكمن فى رفض (بريماكوف) دون ترشيح (سيرجى) كبديل، ولكن خبراء المخابرات المصرية، الذين استشارهم (أ. ص)، قبل أن يضع خطته، كانوا قد أكدوا أنه لا يصلح لرياسة لجنة كهذه، سوى رجلين فقط، من وسط كل الجنرالات السوفييت، إما الجنرال (بريماكوف)، أو الجنرال (سيرجى).. وهذان الاسمان بالطبع ليسا اسميهما الحقيقيين..

ولم يمض يوم واحد، حتى أعلن الملحق العسكرى السوفيتى اسم رئيس اللجنة العاجلة الجديد..

وتنفس الكل الصعداء، فى حين ابتسم (أ. ص) فى ظفر واضح واثق، وهو يقرأ اسم الجنرال (سيرجى)!

●●●

وفى الثانى من أكتوبر ١٩٧٣م، وصلت اللجنة إلى مطار (القاهرة)، فى ملابس مدنية، ودون احتياطات أمن معلنة، حفاظاً على سرية الأمر، كما أكد رجال الأمن المصريون، لنظرائهم السوفييت..

وفى مساء اليوم نفسه، التقى (أ. ص) بالجنرال (سيرجى) شخصياً، وقدم نفسه باعتباره أحد خبراء الطيران المصريين، ولأنه طيار سابق، فقد تمكن من إقناع الجنرال السوفيتى بهويته الزائفة، من خلال بعض الأحاديث والمصطلحات الخاصة السريعة..

بقلم : **د. نبيل فاروق**

ولقد كان الجنرال السوفيتى شديد اللهفة على بدء مهمته، للاطلاع على طبيعة المشكلة العويصة، التى تواجه سلاح الطيران المصرى، لينقل تفاصيلها بالطبع لمن ينتظرونه على جمر فى (تل أبيب)!

ولكن القيادة المصرية بدت هادئة، متراخية توحى بالإهمال واللامبالاة، وهى تؤجل عرض الأمر ليومين متتاليين، وكأنما لا أحد فى (مصر) كلها يسعى لحرب أو قتال، أو لأدنى استفادة من سلاح الطيران المصرى فى الوقت الحالى..

ومن المؤكد ـ دون أدنى شك ـ أن السوفيتى قد نقل هذه الصورة المقصودة جداً، إلى من يعمل لحسابهم فى (إسرائيل)..

وكان هذا أحد أهداف الخطة العبقرية..

وفى اليوم الرابع من أكتوبر ١٩٧٣، أعلن (أ. ص) للجنرال (سيرجى) ـ بابتسامة هادئة كبيرة ـ أن القيادة المصرية مستعدة لبدء الاجتماعات، بشأن المشكلة الوهمية، التى تواجه سلاح الطيران المصرى..

وفى نفس اللحظة، كان الرئيس السادات يرسل مندوبا خاصا إلى الاتحاد السوفيتى، لإبلاغ القيادة السوفيتية بموعد شن الهجوم المرتقب، فى السادس من أكتوبر، أى بعد يومين فقط..

وفى نفس اللحظة، التى وصل فيها المندوب المصرى إلى (موسكو)، كان بعض رجال الطيران المصرى يلتقون سراً باللجنة السوفيتية، وهم يعلمون جيداً، ما ينبغى طرحه أو قوله، للإيحاء بوجود مشكلة ما فى السلاح الجوى بالفعل..

ولكن الأمر لم يكن سهلاً بالتأكيد، إذ كان من الضرورى إيجاد مشكلة قوية، يمكن أن تقنع الخبراء السوفييت، وتبرر طلب إرسال لجنة عاجلة.

ولقد عكف خبراء الطيران المصريون على دراسة الموقف بمنتهى الدقة، حتى افتعلوا على الورق مشكلة وهمية منطقية، فى الطائرات السوفيتية الصنع، حتى إن الخبراء صدقوا إمكانية حدوثها، وأبدوا دهشتهم من ظهورها فى طائراتهم بهذه السرعة!

ولكن (أ. ص) لم يكن يشعر بأن كل هذا يكفى، لأنه لايزال هناك احتمال قائم، بأن يتم إعلام (سيرجى)، عبر الملحق العسكرى السوفيتى، بموعد حرب أكتوبر قبل لحظة الصفر، باعتباره أحد جنرالات السوفييت، حتى ولو كان خارج بلاده..

لذا، فقد كانت خطته تتضمن استبعاد الجنرال (سيرجى) من الساحة كلها، منذ إعلام السوفييت، وحتى لحظة الصفر..

وفى أثناء حفل العشاء اليومى، طلب الجنرال (سيرجى) كأساً من الفودكا وأفرغه فى جوفه دفعة واحدة كعادته، وترك وجهه يحتقن، مع ابتسامته الكبيرة العريضة، وهو يتحدث مع (أ. ص) فى حماس، محاولاً انتزاع بعض المعلومات منه، حول نيات القيادة المصرية، و...

وفجأة، احتقن وجه الرجل أكثر، وزاغت عيناه، وتراجع فى مقعده، وهو يلهث على نحو غير طبيعى، وأمسك ساعده اليسرى فى ألم واضح، وهو يصيح:

ـ ما.. ماذا يحدث لى؟!..

وبسرعة مدهشة، ظهر الطبيب المصرى، واندفع يفحص الجنرال (سيرجى) ويحل أزرار عنق قميصه، وهو يسأل زملاءه عن حالة قلبه وصدره..

وخلال دقيقة واحدة، وصلت سيارة إسعاف مجهزة، ثم نقل الجنرال (سيرجى) إليها، مع بعض رفاقه، الذين أصابهم الذعر بشأنه، إلى مستشفى القوات المسلحة فى المعادى، حيث استقبله، قسم رعاية الحالات الحرجة فوراً، وتم وضعه على فراش طبى مجهز، وتوصيل الأجهزة وأنابيب الفحص والتغذية إلى جسده بأقصى سرعة ممكنة..

وفى نفس اللحظة، وصل مندوب إلى السفارة السوفيتية، ليعلم الملحق العسكرى أن الجنرال السوفيتى قد أصابته نوبة قلبية مباغتة، وهو يتناول عشاءه..

ولقد كان (أ. ص) على حق تماما فى خطته.. فقد استقبل الملحق العسكرى السوفيتى الخبر فى هلع، وأكد ضرورة مقابلة الجنرال (سيرجى)، لأنه يحمل له رسالة دبلوماسية عاجلة، من القيادة فى (موسكو)..

ولم يحاول أحد منع الملحق العسكرى من الذهاب إلى مستشفى المعادى لرؤية الجنرال، الذى بدا غائبا عن الوعى، ومحاطا بقدر مدهش من العناية والرعاية، وأكد له الأطباء أن حالته تتحسن، وأنه سيعود إلى وعيه خلال ساعات قليلة..

ولسبب ما، أو ربما كقاعدة عامة، أصر الملحق العسكرى على استدعاء طبيب قلب شهير فى (موسكو)، لمتابعة حالة الجنرال، مادام نقله من المستشفى يعرض حياته كلها لخطر الموت، كما أكد كل الأطباء المصريين المعالجين..

ولقد وافق الكل بالطبع على حضور الطبيب السوفيتى، الذى حدد لوصوله ظهر يوم السادس من أكتوبر..

وبالطبع، تأجل نظر المشكلة الوهمية، لحين تعافى الجنرال (سيرجى)..

وفى القيادة الإسرائيلية، استقبل الكل الموقف بضيق شديد، بعد أن انقطعت الأخبار التى يرسلها الجنرال، بسبب النوبة القلبية المباغتة (الزائفة)، التى صنعها العقار المدهش، الذى تمت إضافته إلى كأس الفودكا اليومى للجنرال..

ولكن الانطباع العام كان قد استقر فى وجدان الإسرائيليين، وواكب هواهم وميولهم، وهم يرتكنون إلى وجود مشكلة فى سلاح الطيران المصرى، ليوقنوا أن الحرب غير واردة على الإطلاق، فى الوقت الحالى على الأقل!..

وهذا ما أكدته تقاريرهم الرسمية، للقيادة السياسية فى (تل أبيب)، فى صباح السادس من أكتوبر ١٩٧٣م..

●●●

وفى الثانية ظهرا من ذات اليوم، أثبت سلاح الطيران المصرى للعالم أجمع، أنه لا يعانى أدنى مشكلة، وطائراته كلها تعبر قناة السويس، فى لحظة واحدة، وهدير يصم الآذان، لتقصف طائرات ومطارات ومعسكرات ومواقع العدو، وتنسف استحكاماته المتقنة فى خط (بارليف) ،وتمهد الطريق لعبور أخطر وأصعب مانع مائى عرفه التاريخ، وتحطيم أقوى خط دفاعى على طول الزمان، ورفع العلم المصرى على الضفة الشرقية لقناة (السويس)، وبدء الخطوة الأولى لتحرير واستعادة (سيناء)!..

وعندما استعاد الجنرال (سيرجى) وعيه ـ صناعيا أيضا! ـ فى مساء السادس من أكتوبر كانت بانتظاره أكثر من مفاجأة!

كان فى انتظاره خبر اندلاع الحرب، فى الثانية ظهرا..

وخبر ضربة النصر المذهلة لسلاح الطيران المصرى، والتى تم تخطيطها، وإعدادها، وتنفيذها ببراعة وعبقرية مذهلتين، أدهشتا العدو والصديق..

وخبر عدم وصول طبيب القلب السوفيتى الشهير، بسبب إغلاق المطارات، مع بدء الحرب!

وكان فى انتظاره أيضا الملحق العسكرى السوفيتى، الذى يحمل خطابا جديدا، غير ذلك الذى كان يحمله، عند بدء النوبة القلبية المصطنعة..

خطابًا أرسلته القيادة السوفيتية، بعد أن حصل المصريون على الأدلة المطلوبة، وأبلغوها بها، لتأكيد خيانة الجنرال، وعمله لحساب الإسرائيليين..

ولأن السوفييت لا يتهاونون أو يتسامحون فى مثل هذه الأمور، فقد كان قرارهم حاسما، حازما، صارما.. وسريعا..

إلقاء القبض على الجنرال السوفيتى، فى سرية تامة، والتحفظ عليه بمعرفة جهات الأمن المصرية لحين ترحيله لمحاكمته فى (موسكو)..

●●●

وبينما كان الرئيس (السادات) يلقى خطبته الشهيرة، فى مجلس الشعب المصرى، ويوزع الأوسمة والرتب والنياشين، على قادة الجيش المصرى المنتصر، كان الجنرال (سيرجى) والذى ثبتت إدانته، مقيدا بالسلاسل الحديدية فى زنزانة حقيرة فى (سيبيريا) فى انتظار تنفيذ الحكم بإعدامه بتهمة الخيانة..

وكعادة السوفييت..فى سرية تامة، ودون إعلان!

أما فى (مصر) فقد انشغل (أ. ص) فى متابعة أخبار النصر، وهو مطمئن إلى أن الخطر الذى كان يسعى خلفه قد انتهى أمره تماما..

الخطر الأحمر!

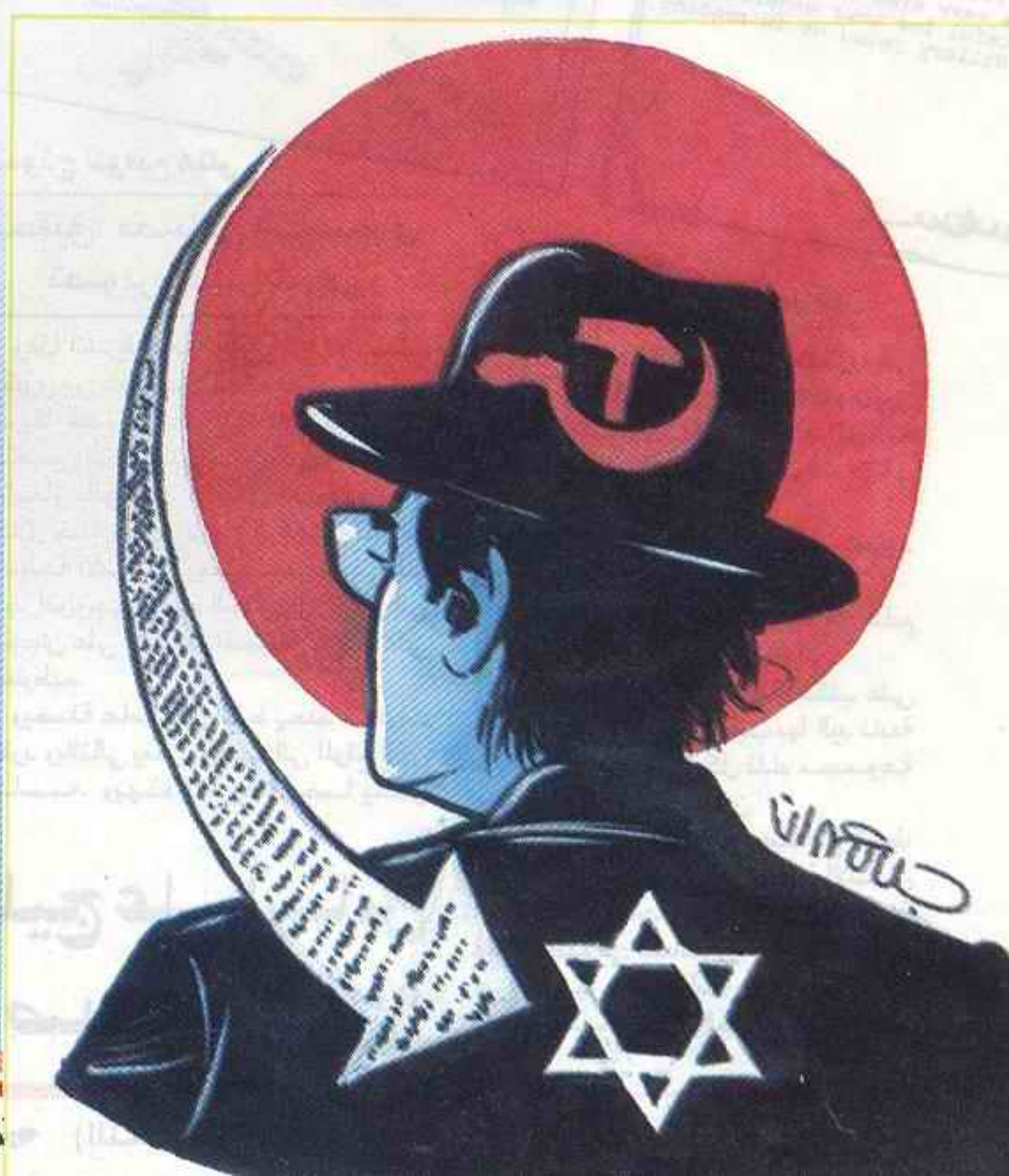

صفحات من تاريخ الجاسوسية

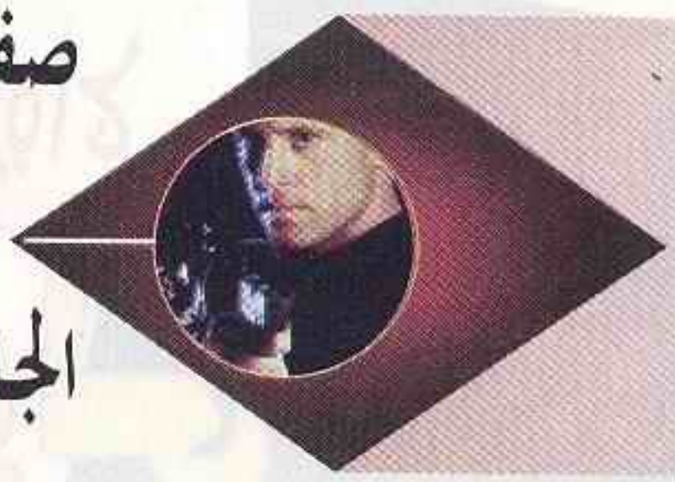

انهمرت دموع المصريين والعرب أنهارا فى ذلك اليوم الحزين، من أيام سبتمبر ١٩٧٠م، والشعوب العربية كلها تودع الزعيم (جمال عبد الناصر) إلى مثواه الأخير، وراحت القلوب تبكى بدموع من دم، حسرة على القائد الذى رحل وسط المعركة، وترك شعبه يرزح بنير احتلال إسرائيلى بغيض، التهم جزءا غاليا من الوطن..

أوراق اللعبة..

وبمزيج من القلق والحذر والترقب، استقبل الكل القائد الجديد (أنور السادات)، الذى بدا على عكس سلفه، بسيطا هادئا، يتحدث دون حماسة جارفة، أو ألفاظ فخمة رنانة، ولا يفجر مشاعر الحماس والقوة فى عروقهم، أو يتوعد الكل بالويل والثبور وعظائم الأمور.. مما جعل الأمل فى أعماقهم ينحسر ويرتجف وينكمش، إلى الحد الذى تصوروا فيه أن الحق قد ضاع، والثأر قد غاب فى غياهب النسيان، وأن القيادة الجديدة قد استمرأت حالة اللاسلم واللاحرب، وقنعت من الغنيمة بالصبر والاستسلام!..

ولكن الذى لم يدركه الكل حينذاك، أن ذلك الهدوء العجيب كان مجرد ستار متقن بارع، لإخفاء استعدادات قوية، وتدريبات مكثفة، تستهدف الثأر، واستعادة أرض الوطن السليبة.

كل أجهزة الدولة كانت تعمل من أجل هذا الهدف، بكل النشاط والهمة والحماس.. والسرية أيضا..

وعلى رأس تلك الأجهزة، وعند قمة النشاط والسرية المطلقة، كان جهاز المخابرات العامة المصرية..

كان وحده يحمل على كاهله كمًا لا حصر له من المهمات والمشاكل، التى تؤرق مضجع كل العاملين فيه ليلا ونهارا ..بلا استثناء..

كان عليهم أن يبذلوا جهدا خرافيا، وتضحيات لا حصر لها، لجمع كل المعلومات التى تطلبها كل أجهزة الدولة الأخرى، وتحتاج إليها بشدة، للقيام بعملها، والتخطيط للمرحلة القادمة التى يتوقف عليها مصير الأمة العربية كلها..

وفى كل أركان الأرض تقريبا، انتشر رجال المخابرات المصرية وعملاؤهم، لصنع أكبر وأقوى شبكة جمع معلومات عرفها التاريخ، منذ الحرب العالمية الثانية..

وفى كل يوم تقريبا، كان هناك طلب جديد للمعلومات..

وخطة جديدة للحصول عليها..

وفى ذلك اليوم، وبينما كان طلاب (مصر) يثورون فى عنف، ويتهمون الرئيس (السادات) بالتخاذل وبيع القضية، متصورين أنه قد ألقى فكرة الحرب الثارية جانبا، خاصة أنه سبق له إعلان حتمية حسم المعركة فيما سمى بعام الحسم، ثم مضى العام دون أن يضع إعلانه موضع التنفيذ..

فى ذلك اليوم نفسه، كان رجال المخابرات العامة يتلقون طلبا خاصا من القوات الجوية، بضرورة بذل كل جهد ممكن، لمعرفة شفرة إطلاق صواريخ الدفاع الجوى الإسرائيلية، قبل يوم الحسم ، حتى يمكن ابتكار وسيلة مضمونة لتفاديها، وإلا بلغت نسبة الخسائر ما يقرب من ثلاثين فى المائة مع الضربة الجوية الأولى..

وفى مثل تلك الفترة، وهذه الظروف العصيبة، كان ذلك المطلب أشبه بالمستحيل..

ولكن هذا لم يفت فى عضد الرجال لحظة واحدة..

لقد اعتادوا مثل هذه الأمور..

واعتادوا مواجهة المستحيل..

لذا، وعلى الرغم من صعوبة المطلب وتعقيداته، اجتمع الرجال لبحث الأمر، ودراسته، والبحث عن كل الوسائل الممكنة لتحقيق المطلوب، وخفض الخسائر المنتظرة إلى أقل رقم ممكن.. مهما يكن الثمن.

وكإجراء تقليدى، راح الجميع يراجعون كل ما لديهم، عن نظام الدفاع الجوى الإسرائيلى..

أساليبه.. أسلحته.. قادته.. جنوده.. نظمه.

كل شىء..

ولكل نقطة فى النقاط السابقة، كانت هناك عشرات الملفات، والمعلومات، والبيانات، التى تم جمعها بالجهد والعرق والدم، طوال الأشهر الماضية..

وكان هذا يحتاج إلى ساعات، وساعات، وساعات..

وبصبر لا مثيل له، راح الرجال يراجعون، ويدرسون، ويفحصون، ويراجعون..

وكلما توقفوا عند نقطة ما، راحوا يناقشونها، ويمحصونها، ويدرسون كل ما يتعلق بها، حتى صار كل منهم أشبه بجهاز كمبيوتر بشرى، يحفظ الأمور كلها عن ظهر قلب..

ولقد استغرقت تلك الاجتماعات الطويلة المجهدة ما يقرب من أسبوع كامل، قبل أن يتفق رأيهم جميعا على أن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الشفرة المطلوبة، هى من خلال الرجل المسئول عنها بصفة مباشرة..

الجنرال (إيزاك رابينوفيتشى)..

والجنرال (رابينوفيتشى) هذا من اليهود الروس، الذين كانوا أول من هاجر إلى (فلسطين)، أو فروا إليها بمعنى أدق، قبل حرب عام ١٩٤٨، وإعلان دولة (إسرائيل)، التى التحق بأول جيش لها، وراح يتقدم ويترقى فيه، حتى حصل على رتبة الجنرال، بعد حرب يونيو ١٩٦٧م مباشرة.

وعلى الرغم من جنسيته الروسية، لم يكن (رابينوفيتشى) يحمل أية ملامح روسية على الإطلاق، اللهم إلا قامته الفارهة وجسده الضخم، وكرشه الكبير، وفيما عدا هذا كان يهوديا شرقيا حتى النخاع.. فهو فاحم الشعر، على الرغم من سنوات عمره الخمسين.. أسمر البشرة، كث الحاجبين، ضخم الشارب، ثم إنه يعشق المال، بأكثر مما يعشق أى شىء آخر فى الدنيا كلها..

والعجيب فى شخصية (رابينوفيتشى)، أنه يحمل الكثير من المتناقضات فى آن واحد، فعلى الرغم من عشقه للمال والادخار، والبخل اليهودى الذى اشتهر به بين زملائه ورجاله، فإنه كان لا يستطيع مقاومة لعب الورق، فى أمسيات السبت، وهو يسعد للغاية بالربح، ويكاد يبكى للخسارة، على الرغم من أنه يلعب دائما بمبالغ صغيرة للغاية!..

وكان من الممكن أن يعتبر قادته لعبه للورق هذا نقيصة تمنعه من تولى أى مناصب قيادية، فى فترة حرب كهذه ، لولا أن حياته كلها كانت تؤكد حقيقة واحدة، لم يثبت عكسها قط، تحت أى ظروف أو ملابسات..

إنه يدين بالولاء لدولته، وليس لديه أدنى استعداد لخيانتها، ولو بكل أموال الدنيا..

وهذا التناقض العجيب وضع الرجال فى حيرة شديدة..

فدراستهم كلها أثبتت أن السبيل الوحيد لتلك المعلومة يأتى من خلاله، وفى الوقت نفسه لا يوجد سبيل واحد إليه هو..

ولكن الرجال كانوا يؤمنون بقاعدة ذهبية، أثبتت نجاحها دوما فى كل الظروف والأحوال..

ما من نظام أمن بلا ثغرات، أو بشر بلا نقاط ضعف..

هناك حتما ثغرة ما، أو نقطة ضعف يمكن النفاذ منها، إلى أى مخلوق، مهما بدا كاملا متكاملا، لأن الكمال لله (سبحانه وتعالى) وحده دون سواه..

ومن هذا المنطلق، عاد الرجال يدرسون الأمر مرة أخرى..

وبنفس الدقة والعناية والرعاية..

كان ولعه بلعب الورق نقطة ضعف واضحة، ولكنه يحميها بحذره الزائد، وانتمائه القوى لبلده (إسرائيل) بحيث لا يمكن استغلالها كدافع للخيانة..

لابد إذن من البحث عن نقطة ضعف أخرى..

أو وسيلة جديدة ومبتكرة..

وهذه هى مهمة الرجال، الذين لم يعد لهم من هم فى الدنيا ، سوى البحث عن تلك الوسيلة، والتفكير فيها ليلا ونهارا..

ثم ..فجأة، قفز حل عبقرى إلى الأذهان، وانطلق عبر الألسنة إلى العقول، وخفقت له القلوب فى حماس وظفر..

لم يكن حلا سهلا أو تقليديا، وإنما كان انقلابا فى كل الموازين، وكسرا لكل قواعد العمل السرى، والسعى خلف المعلومات..

وهنا تكمن عبقريته..

فالأمر الذى علموه، من خلال تحريات دقيقة للغاية، هو أن الجنرال (رابينوفيتشى) يحتفظ بنسخة من كل الوثائق البالغة السرية، فى خزانة خفية منيعة داخل منزله، وأن أحدا لا يعلم موضع تلك الخزانة، حتى زوجته نفسها..

ولأن الاقتحام أمر مرفوض تماما فى عملية كهذه، نظرا لأن الأسرار تفقد أهميتها، إذا ما أدرك الخصم أنك قد كشفت أمرها.. فقد كان من الضرورى البحث عن وسيلة عبقرية لدخول منزل الجنرال، والبحث عن خزانته السرية، وفحص كل ما تحويه، دون أن يدرك أو يشك فى أن هذا قد حدث!..

ولأن العملية غير تقليدية على الإطلاق، فقد عالجها الرجال بأسلوب غير تقليدى أيضا، وقرروا أن أفضل شخص، يمكن أن يصل إلى الجنرال

بقلم : **د. نبيل فاروق**

(رابينوفيتشى) لابد وأن يكون مقامرا محترفا، يجيد اللعب،و....

والخسارة..

نعم.. إنك لم تخطىء قراءتها، والمطبعة لم تخطىء كتابتها! فهذا بالضبط ما كان يحتاج إليه الأمر.. مقامر محترف، يعرف جيدا كيف يلعب، وكيف يخسر باحترافا!..

ولأن طبيعة رجال المخابرات بعيدة تماما عن المقامرة، بكل صورها وأنواعها، فقد احتاج الأمر إلى البحث عن عميل من عملائها، داخل (إسرائيل) نفسها، يمكن تدريبه على الأمر، فى وقت قياسى، ويمكن دفعه على نحو يبدو طبيعيا للغاية، فى طريق الجنرال..

وبعد بحث أكثر دقة، وقع اختيار الرجال على (دافيد باراهودا)، رجل الأعمال الإسرائيلى، الذى هاجر إلى (إسرائيل) من (سويسرا)، وأبغض الحياة الاستبدادية داخلها، على نحو جعله يعمل بمنتهى الحماس والتفانى لحساب المخابرات العامة المصرية، منذ أوائل عام ١٩٧٠م..

وفى بداية شتاء ١٩٧٢م، سافر (دافيد) إلى (باريس)، بناء على برقية شفرية من المخابرات المصرية، والتقى هناك برجل المخابرات (أمجد) ، وعدد آخر من الرجال، بينهم خبير فى ألعاب الورق، راح يدربه على أبرع حيلها وأدق أسرارها..

وفى نهاية الشهر، عاد (دافيد) إلى (تل أبيب)، بصحبة رجل أعمال (فرنسى)، يحمل جواز سفر سليمًا، باسم (فرانسوا موليه)، ويهوى أيضا ألعاب الورق..

ومع منتصف الشتاء، كان فريق (دافيد ـ فرانسوا) قد اشتهر بالبراعة فى هذا المضمار، وعقد عددا من الصداقات، مع بعض من يمارسون اللعب فى ليالى السبت فحسب..

وفى نهاية الشتاء، قدم بعضهم (دافيد) و(فرانسوا) إلى الجنرال (رابينوفيتشى)، باعتبارهما هواة لعب الورق، بنفس الحذر والمبالغ الصغيرة التى يهوى هو اللعب بها..

وكان من الطبيعى أن يُقبل (رابينو فيتشى) على لعب دورة واحدة مع اللاعبين الجديدين، كنوع من الحذر، الذى يتسم به، ولقد قامر بمبلغ صغير للغاية، خشية الخسارة ..

ولكنه ربح هذه المرة..

وفى المرة الثانية .. والرابعة .. والسابعة...

ربح ثلاث دورات كاملة، لأول مرة فى حياته! حتى إنه راح يصرخ فى فرح طفولى، جعل الفرنسى يبتسم، قائلا:

ـ يبدو أننا نجلب لك حسن الحظ ياجنرال!.

وهنا قهقه (دافيد)، هاتفا:

ـ ونجلب لأنفسنا سوء الحظ أيضا!..

ولأول مرة فى حياته ينسى الجنرال (رابينوفيتشى) نفسه، ويتجاوز الحدود الصارمة التى وضعها لنفسه، ويشترك فى دورة عاشرة أيضا..

وعندما ربح فى تلك المرة أيضا، كاد يجن من فرط السعادة، حتى إنه ربت على ظهر (دافيد) فى عنف، وهو يصافحه منصرفا، وهتف بصوت حمل كل حماس الدنيا:

ـ لابد وأن نلتقى مساء كل سبت.. إن اللعب معكما متعة!

كان يعنى كل حرف نطق به، فقد أورثه الربح لهفة للعب، لم يعرفها فى حياته كلها، حتى إنه صار يتعجل السبت التالى..

ومع توالى الأسابيع والربح، أدمن الرجل اللعبة، وصار يسهر حتى بعد منتصف الليل على المائدة، وسط أوراق اللعب، كما لم يفعل طيلة عمره، وتصاعدت ضحكاته وقهقهاته، على غير المعتاد، وبدأ يتعامل مع (دافيد) و (فرانسوا) كصديقين حميمين، خاصة أنهما كانا يتقبلان الخسارة بنفس صافية، دون غضب أو حنق..

والواقع أن الرجلين كانا يخفيان ابتساماتهما الظافرة بالكاد، وهما يلعبان ببراعة ليس لها مثيل، ليخسرا دورة من كل دورتين تقريبا، لحساب الجنرال (رابينوفيتشى)، الذى انبهر بالأرباح، وأصبح يعتبر اللعب، ولأول مرة فى حياته، وسيلة شبه منتظمة للربح، ولم يعد يروق له اللعب مع أية مجموعة أخرى.

حتى كان ذلك اليوم.. فى بدايات صيف ١٩٧٣م..

يومها.. كان كل شىء يسير كالمعتاد ، والجنرال يحصى أرباحه، ويطلق ضحكاته وقفشاته، عندما حدث شجار بسيط بين (فرانسوا) ونادل المقهى، وكان يمكن أن ينتهى فى لحظات، إلا أنه، ولسبب ما، تطور بسرعة، وتصاعد على نحو عجيب، وانتهى بمشاجرة عنيفة، غادر الفرنسى بعدها المكان وهو يسب ساخطا، ويقسم بأرواح آبائه وأجداده أنه لن يطأه مرة أخرى أبدا!

ولأنه يعد ضيفا على (دافيد)، فقد غادر الأخير المكان معه، وهو يحاول تهدئته، والجنرال يبذل قصارى جهده، فى محاولة لتهدئة الموقف حتى لا يخسر أرباح الليلة، التى اعتاد عليها، بعد كل هذا الوقت..

وغادر الجنرال المكان بدوره، فى حسرة محنقة، وهو يمنى نفسه بتعويض كل هذا فى السبت التالى، عندما تدور الأوراق مرة أخرى بين الأصابع..

ولكن (دافيد) والفرنسى لم يحضرا فى السبت التالى..

ولا حتى الذى يليه..

وبعد مرور أربعة أسابيع دون أرباح، انهارت مقاومة الجنرال، وراح يبحث عن رفيقى اللعب بكل لهفة وحماس.. وقد تصور أن الحظ قد تخلى عنه مع غيابهما..

وعندما عثر عليهما لم يكن الأمر مرضيا له كما تصور، فالفرنسى أقسم أنه لن يدخل ذلك المقهى ثانية أبدا، و(دافيد) بدا يائسا مستسلما، يستحى أن يتصدى لرغبة ضيفه، الذى تمادى فى الأمر، وأقسم أنه لن يلعب فى أى مكان عام بعد الآن حفاظا على كرامته وهيبته..

وأسقط فى يد الجنرال، وراح يعتصر عقله، بحثا عن وسيلة مناسبة لمواصلة حلقة الربح، الذى أحبه وأدمنه، ولم يعد بإمكانه التخلى عنه..

ثم جاءته الفرصة على طبق من ذهب، عندما ربحت زوجته رحلة مجانية لمدة شهر كامل، فى شركة (بيتون) للسياحة، التى أعلنت أنها ستتكفل بمصروفات السفر والإقامة، مع جائزة مالية قيمة للمصروفات الخاصة..

ولأن الأمر لا يقاوم ، سافرت زوجته (إيلينا)، وتركته وحده فى منزلهما، طوال الفترة فى منتصف أغسطس إلى منتصف سبتمبر ١٩٧٣م..

لذا، فقد تلقى (دافيد) والفرنسى الدعوة لقضاء أمسيات السبت فى منزل الجنرال (إيزاك رابينوفيتشى)، حول مائدة لعب خاصة..

ومع سكرة الربح، كانت أمام الفرنسى فرصة مثالية، للتجول فى المنزل، خاصة بعد أن يرهق اللعب والربح الجنرال، فينام على مقعده، ويرتفع شخيره عاليا، مع نسمات الفجر الأولى، وهو يحتضن أمواله وأوراق اللعب..

ومع نومه، كان (دافيد) يجلس لحراسته فى انتباه كامل، فى حين يبدأ عميل المخابرات المصرى، الذى ينتحل شخصية فرنسى، ليخفى حقيقته كخبير خزائن لا يشق له غبار، فى فحص كل شبر فى المنزل، بحثا عن تلك الخزانة السرية الخفية، التى تحوى كل أوراق الجنرال ووثائقه السرية..

والواقع أن تلك الخزانة كانت تحفة أمنية بكل المقاييس، حتى إن خبير الخزائن المحنك قد احتاج إلى ثلاث أمسيات كاملة، قبل أن يعثر عليها، وإلى أربع ساعات متصلة فى الأمسية الرابعة والأخيرة، قبل عودة (ايلينا)، حتى يتجاوز كل استحكاماتها الأمنية، وأجهزة الإنذار داخلها، ثم يفتحها مع أول ضوء شمس، ليبدأ البحث وسط كل ما تحويه من أوراق سرية، عن شفرة الدفاع الجوى..

ولكن من المؤكد أن المخابرات العامة فى (مصر) قد أدركت كم كانت خطتها عبقرية رائعة، على الرغم من بساطتها، عندما تلقت ثلاثة من الميكروفيلم، تحوى عشرات الصور، التى التقطها عميلها لكل الوثائق السرية، التى تحويها الخزانة، قبل أن يعيد إغلاقها، على نحو لا يمكن معه كشف ما فعله بها وبمحتوياتها..

وفى الوقت نفسه الذى تلقت فيه القوات الجوية شفرة الدفاع الجوى الإسرائيلية، كان (دافيد) ورفيقه الفرنسى يواصلان اللعب والخسارة، أمام الجنرال (رابينوفيتشى)، الذى عادت ضحكاته تعلو فى المقهى، الذى وافق الاثنان على العودة إليه، بعد عودة (إيلينا) فى رحلتها المجانية، التى دفعت المخابرات المصرية ثمنها، عبر واحد من أهم وأخطر عملائها فى (تل أبيب)!..

وفى الرابع من أكتوبر ١٩٧٣، سافر (دافيد) وعميل المخابرات المصرية، عائدين إلى (باريس)، مع وعد منهما للجنرال (رابينوفيتشى)، بقضاء أمسية السبت التالى فى المقهى، ليواصل أرباحه من نقودهما..

ولكن الجنرال لم يكن يدرك أنها آخر مرة يحصل فيها على نقود المخابرات المصرية! ففى ظهر السبت التالى، السادس من أكتوبر ١٩٧٣، انقضت الطائرات المصرية عبر قناة (السويس)، على خط (بارليف) وكل استحكامات ومعسكرات ومطارات الجيش الإسرائيلى، فى قلب (سيناء).. وجن جنون الإسرائيليين، عندما فشلت دفاعاتهم الجوية فى اصطياد نسور (مصر)، الذين انطلقوا يحطمون ويدحرون وينسفون الغطرسة الإسرائيلية، ويمحون إلى الأبد أسطورة جيش إسرائيل الذى لا يقهر أبدا!..

وفى القاهرة، راح الرئيس (السادات) يلقى خطاب النصر، ويوزع الأوسمة والنياشين على قادة الجيش المنتصر، ويتلقى تهانى وفرحة شعبه الذى أسكره النصر، وأعاد إليه ثقته فى قادته وحكومته.. فى الوقت نفسه الذى أخذ رجال المخابرات يراجعون فيه تقارير العمليات الأخيرة، ويبتسمون فى ظفر واثق، وهم يدركون أنهم كانوا يمسكون أوراق اللعبة كلها فى أيديهم طوال الوقت..

لعبة الحرب..

والنصر!

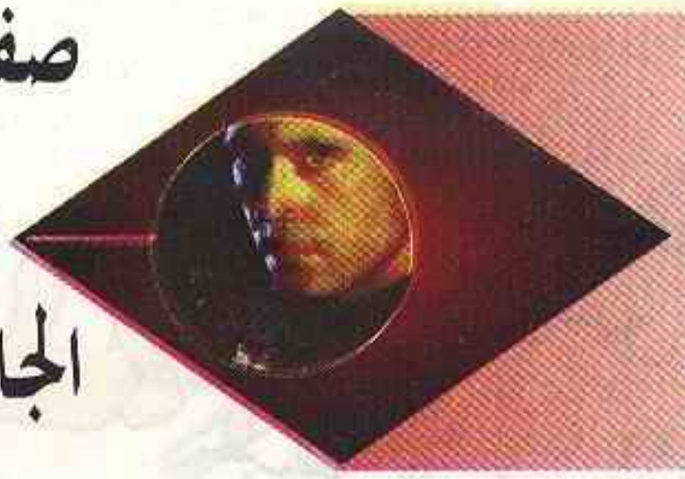

السر..

انتصف عام ١٩٧٣م أوكاد، وكل (مصر) تحيا فى توتر كامل.. فبعد شعور مبهم بأن القيادة السياسية قد استمرأت حالة اللاسلم واللاحرب، وارتاحت لاستقرار الأوضاع على الجبهة، بعد بناء حائط الصواريخ، وإيقاف حرب الاستنزاف، وقبول مبادرة (روجرز)، وانشغال الرئيس (السادات) بقضية الاستقرار على مقعد الحكم، وتأكيد وجوده، بعد سنوات طوال، لم يكن المصريون يتصورون خلالها أن شخصا سوى الزعيم الراحل (جمال عبدالناصر) يمكن أن يحتل منصب الرئيس، ليقود الشعب كله إلى الانتصار على العدو، الذى أذاقنا هزيمة مريرة فى عام ١٩٦٧م، راح يتباهى بها طوال الوقت، ويعلن فى كل مناسبة، وبلا مناسبة، أنه يمتلك جيشا أسطوريا، لا يقهر أبدا..

ومن ناحية أخرى، بدت كل القيادات، السياسية والعسكرية هادئة مسترخية بالفعل، وكأنما تؤكد ما يدور بأذهان الشعب، وتعمقه أكثر وأكثر، مع كل أحاديثها وتصريحاتها، التى اتسمت بالمسالمة، والابتعاد تماما عن النبرة الصارمة أو الساخنة،أوحتى عن مناقشة القضايا الحاسمة، على الصعيد العسكرى..

ولكن تحت القناع الهادئ، كانت هناك صورة مختلفة تماما.

صورة لبحر متلاطم، فى النشاط والحيوية، وبركان ثائر تحت السطح، تغلى حممه وتفور، استعداداً للانفجار العارم..

عندما تحين اللحظة المناسبة..

وهناك، فى كوبرى القبة، وداخل مبنى المخابرات العامة المصرية، كان النشاط قد بلغ ذروته، والتوتر تصاعد إلى قمته، مع بدء العد التنازلى، الذى لا يدركه سوى فئة محدودة، فى أعلى القيادات، استعدادا للمواجهة الكبرى، والحرب الشاملة المنتظرة...

وكانت أمام الرجال عشرات المشكلات والقضايا، التى تحتاج إلى تحركات قوية متصلة، وحلول عاجلة مبتكرة، حتى يمكن تحقيق كل الأهداف المطلوبة للمواجهة..

كان عليهم أن يقنعوا العدو بأن (مصر) لا تفكر، مجرد تفكير، فى شن أية حروب، لا فى الوقت الحالى، ولا حتى فى المستقبل القريب..

وأن يخفوا كل أسرارهم عنه.

ويكشفوا كل ما يمكنهم من أسراره، فى الوقت نفسه..

وتحقيق هذه الأهداف كان يحتاج إلى كل الجهد..

وكل الوقت..

وكان أخطرها وأهمها، من وجهة نظر الكل، هو خطة الخداع الرئيسية..

لابد وأن يقتنع الإسرائيليون بما اقتنع به الشعب المصرى كله..

بحالة الركود، والسكون، واستمراء اللاسلم واللاحرب، وخوف القيادة السياسية والعسكرية من المواجهة المباشرة، بأية صورة من الصور..

وفى سبيل هذا، صنع الرجال عشرات المحاور والخيوط..

كل شىء تمت دراسته بمنتهى الدقة والعناية..

كميات المواد التموينية، ومعدلات استيرادها..

المخزون السلعى والاستراتيجى..

تحركات وإجازات ضباط الجيش وجنوده..

وحتى ابتسامة الرئيس والوزراء وقادة الجيش، وصورهم فى المناسبات الرسمية، تمت دراستها، بحيث توحى بالهدوء والاسترخاء، حتى يتصور العدو أن الترهل قد أصاب القيادة، ولم تعد فكرة الحرب واردة فى الأذهان!

ولكن العدو أيضا كان يعمل بنفس الهمة والنشاط لكشف الحقائق، وتحديد المواقف والأهداف..

وكانت له عيونه، خارج (مصر) وداخلها..

ومن بين تلك العيون كان (خالد)...

شاب فى الثلاثين من عمره، من أسرة متوسطة، مثل كل أو معظم الأسر المصرية فى ذلك الحين، والده مدير بإحدى المصالح الحكومية، وأمه ربة بيت بسيطة، ودخل الأسرة يكفى بالكاد لحياة كريمة، دون فائض أو مدخرات، أو حاجة لمد الأيدى للآخرين..

ولأن والده مصرى أصيل شريف، اعتاد ألا ينفق على أبنائه إلا من حلال، فقد ارتضى تلك الحياة، وبذل كل جهده لتنشئة أبنائه الأربعة على الإيمان والكفاح والقناعة والشرف..

ومن المؤكد أنه قد أفلح فى هذا مع ابنتيه، وطفله الصغير (آخر العنقود)..

ولكنه فشل تماما مع الابن الأكبر (خالد)..

فمنذ حداثته، كان (خالد) متمردا على هذه الحياة المتواضعة، وطامحا للعيش فى رغد وثراء، مثل أولاد خاله التاجر بحى (الموسكى)، والذين يقيمون فى المنزل المقابل لهم تماما..

وعبثا حاول والده إقناعه بأن الله (سبحانه وتعالى) قد جعل الناس فوق بعض درجات، وأنه أعلم بالسرائر وخفايا النفوس، وبأن المال يكون أحيانا مدخلا إلى الفساد والفشل والضياع، وليس العكس..

ولكن (خالد) صم أذنيه تماما عن كل نصائح والده، وظل يحلم بالثراء ورغد العيش، بأية وسيلة ممكنة، شريفة أو غير شريفة..

ولكن الرياح لا تأتى دوما بما تشتهى السفن..

لقد حاول، وحاول، وحاول.. وسلك كل السبل، ولكن رزقه ظل محدودا، يكفيه بالكاد للحد الأدنى من الرفاهية، مما لا يشبع رغباته وطموحاته، أو يحقق أحلامه وآماله وتطلعاته الطبقية..

حتى لاحت فرصة السفر إلى (إيطاليا)..

وعلى الرغم من توسلات أبيه، ودموع أمه، وحزن أشقائه - تعلق (خالد) بأمل السفر، واستخرج الجواز، وحصل على التصريح اللازم، واستقل أول طائرة إلى (روما)، مع صديق طموحاته وتطلعاته (عمر)..

وفى (روما)، لم يكن الحال بأفضل مما كان عليه فى (مصر)..

العمل شاق مرهق للغاية، والأجور قليلة ضعيفة إلى حد مستفز..

على الأقل، فى (مصر) كان يجد فراشا ينام عليه فى آخر الليل، دون أن ينفق من أجله نصف ما عمل به طوال النهار..

وهكذا سارت الأحوال من سيئ إلى أسوأ..

حتى كانت تلك الليلة..

انتهى من عمله الشاق مع (عمر)، فى وكالة للشحن والنقل، ثم خرجا معا لقضاء السهرة فى بار صغير، فى الحى الشعبى الذى يقيمان فيه..

وهناك التقيا بالسيد (عدنان)..

رجل شرقى الملامح، شامى اللهجة، بدا بحلته الفاخرة، والسيجار الضخم بين أصابعه، متناقضا تماما مع ذلك البار المتواضع الصغير، الذى اكتظ بالعمال والموظفين المرهقين الذين يكتفون بخمر ردىء رخيص، وراقصة تجاوزت شرخ الشباب، لتخطو أولى خطواتها نحو بئر الشيخوخة!

وبسرعة، وبوسيلة لم يدركها (خالد) أو (عمر)، وجدا نفسيهما ضيفين على مائدة السيد (عدنان)، الذى بدا سعيداً للغاية لكونهما عربيين مصريين، وراح يدعوهما لتناول كل ما يروق لهما، من طعام وشراب على حسابه الخاص، بعد أن اتضح لهما أنه يتردد على ذلك البار بصفة شبه مستديمة، وبصحبته دوما أجمل الفتيات، وأكثرهن حسنا وفتنة..

وكان من الطبيعى، والحال هكذا، أن تتوطد الصداقة بين (خالد) و(عمر) وبين السيد (عدنان) السخى.. ولكن هذا الأخير لم يلبث أن خص (خالد) باهتمامه الزائد وصداقته القوية، وخاصة بعد أن أدرك مدى مايملأ نفسه من غضب وسخط ونقمة وكراهية ، تجاه الوطن الذى أنجبه ورباه ،وصنع منه شابا يافعا قويا..

وماهو إلا شهر واحد ، حتى توقف السيد (عدنان) عن السهر فى ذلك البار الردىء ، ونقل سهراته إلى آخر أنيق ، فى الشارع الرئيسى ، فى منتصف العاصمة ، ونقل معه (خالد) وحده، دون (عمر)..

وذات ليلة ، سأله فى اهتمام:

- قل لى ياخالد ألاتفكر فى الحصول على عمل سهل ، بدخل يبلغ خمسة أضعاف دخلك الحالى على الأقل ؟!

هتف به (خالد) فى لهفة:

بقلم : **د. نبيل فاروق**

- دلنى عليه ، وسأقبله فورا بلاتردد .
تراجع (عدنان) وسأله فى حذر :
- ألايشغلك التساؤل عن نوعيته ؟!
هز (خالد) رأسه فى قوة ، وهو يجيب :
- إننى مستعد للقتل ، فى سبيل مبلغ كهذا !
وهنا ابتسم (عدنان) ، ورمقه بنظرة خاصة ، وهو يقول :
- اطمئن .. الأمر لن يبلغ حد القتل!
ومع بداية كهذه ، كان من الطبيعى أن يتطور الأمر فى سرعة ، ليعلم (خالد) ان السيد (عدنان) هذا ليس عربيا ، ولكنه إسرائيلى ، وأن المطلوب منه أن يعمل لحساب المخابرات الإسرائيلية فى (مصر).
ولقد قبل كل الشروط ، دون اعتراض واحد ، واختطف رزمة النقود ، التى أعطاه إياها (عدنان) بكل لهفة الدنيا ، ووجه يحمل ابتسامة كبيرة..
ابتسامة خائن ..
ومن (عدنان) ..انتقل الأمر إلى ضابط إسرائيلى ، فى جهاز (الموساد) بدأ معه مرحلة تدريب وإعداد ، استعدادا لعودته إلى (مصر).
وفى أوائل عام ١٩٧١م ،عاد (خالد) إلى (مصر) فى حال غير الحال ..
والعجيب أنه لم يذهب لزيارة أسرته مباشرة، وإنما ذهب أولا لاستئجار شقة خاصة فى منطقة راقية ، وتأثيثها بأفضل الاثاث ، ووضع داخلها جهاز الراديو الأنيق ، الذى أحضره معه من (روما)!
ثم بدأت مرحلة الصداقات والارتباطات ..
وفى تلك المرحلة فقط ، ذهب لزيارة أسرته ..
ولقد استقبله الجميع بفرحة عارمة ، وتصوروا أنه قد أتى من المطار إليهم مباشرة، إلا أنه لم يحاول حتى التظاهر بهذا ، وإنما أخبرهم بأمر وصوله ، وتأثيثه شقته ، متعللا بأنه أراد مفاجأتهم بما وصل إليه ، وبما أصبح عليه حاله ..
والواقع أنهم جميعا قد انبهروا بشقته الجديدة ، وموقعها ، وأثاثها الفاخر ..
فيما عدا والده ..
هو وحده شعر بقلبه ينقبض ، عندما خطا داخلها لأول مرة .. وأخبر زوجته ، بعد عودتهم إلى منزلهم أنه شديد القلق على ابنه..
أما ذلك الابن ، فقد راح يعمل بمنتهى الحماس والنشاط ، لتحقيق الهدف من عودته ، فبدأ بجمع المعلومات ، وإرسالها إلى عنوان حدده له ضابط المخابرات الإسرائيلى فى (باريس) ، ثم تطور الامر إلى استقبال التعليمات لاسلكيا ، واستخدام الحبر السرى..

وبعدها سافر (خالد) مرة أخرى إلى (روما) فى نهاية عام ١٩٧١م ليحصل على دورة متقدمة ، فى استخدام اللاسلكى ، والتعامل بالشفرة ، وتصوير المستندات بآلة تصوير صغيرة للغاية ..
وعاد (خالد) فى الشهر الثالث فى عام ١٩٧٢م وقد تطور دوره ، وصار عليه أن يعمل لتجنيد آخرين ، من فئات تم تحديدها بدقة ..
وفى هذه المرحلة بالذات ، انكشف أمر (خالد) وأدركت المخابرات العامة أنها تواجه جاسوسا إسرائيليا خطيرا ..
ولكن أحدا لم يحاول إلقاء القبض عليه ، أو كشف أمره ..
ففى مثل هذه الظروف ، يكون وجود أمثاله مفيدا جدا ..
وخاصة عندما يصبح تحت السيطرة التامة..
ومن خلال (خالد) ، ودون أن يدرى هذا الأخير! ، راحت المخابرات المصرية ترسل إلى الإسرائيليين كل ماتريد ان تقنعهم به ..
وبأسلوب دقيق مدروس!
كومة من المعلومات الصحيحة بمنتهى الدقة، وبينها معلومة أو معلومتان ، تكفيان لإفساد خط تحليل الموقف تماما ..
وفى الوقت نفسه ، تعرف (خالد) بأسلوب بدا تلقائيا وغير مقصود ، بأحد الضباط العاملين فى القيادة المشتركة للجيش برتبة رائد ، وتوطدت بينها صداقة عميقة ، كان الجاسوس هو الساعى اليها بالطبع .
وفى شقته الفاخرة ، قضى (خالد) عدة سهرات من الرائد ، وراحا يتحدثان فى عشرات الأمور ، بحيث يمكنه استدراجه إلى الإفضاء بعدد من الأسرار العسكرية على نحو يبدو تلقائيا تماما.
وطوال تسعة أشهر كاملة ، لم يحصل (خالد) على معلومة واحدة خاطئة ، من الرائد (مصطفى)!
كلها معلومات صحيحة وسليمة ودقيقة تماما ، على الرغم من أنها تلقى بعشوائية ، وسط عشرات الاحاديث العادية ، حتى إن المخابرات الإسرائيلية قد أبدت ارتياحها الشديد لتلك الصداقة ، وأوصت جاسوسها بالاستمرار فيها بحذر .. ولكنها رفضت تماما اقتراح (خالد) بمحاولة تجنيد الرائد (مصطفى) .. نظرا لأن الأمور كانت تسير على مايرام ، ومحاولة التجنيد قد تفسد كل شىء بلاداع !

وفى سبتمبر ١٩٧٣ م كانت القيادة الإسرائيلية مقتنعة تماما بأن (خالد) هذا أحد أفضل جواسيسها فى (مصر) ،وأن الرائد (مصطفى) هو أفضل مصدر دقيق للمعلومات العسكرية على الإطلاق ، دون أن يدرى ..
أوهكذا كانت تتصور ..
وهنا رأى الرجال أن اللحظة التى طال انتظارهم لها قد حانت ..
وأن الهدف الرئيسى من زرع الرائد (مصطفى) ، فى منزل وحياة (خالد) قد حان وقته ، وأتى أوانه .
وفى واحدة من سهراتهما فى نهاية سبتمبر ١٩٧٣ م ، مال (مصطفى) على أذن (خالد) وقال بلهجة رجل مخمور ، لايدرك ما الذى يتفوه به:
- هل تعلم أن القادة كلهم يخشون خوض حرب مع (إسرائيل)؟!
غمغم (خالد) فى حذر :
كنت أتصور العكس :
هزّ الرائد (مصطفى) رأسه فى قوة ، ثم تلفت حوله ، وكأنما يحيط بهما جمع غفير ، فى الشقة الخالية إلا منهما ،وقال :
- هل أخبرك بسر؟!
سأله (خالد) فى اهتمام أكثر حذرا :
- وماهو ؟!
مال نحوه مرة أخرى ، قائلا :
- اليوم طالعت مذكرة سرية ، مرسلة من رئيس الجمهورية ، إلى وزير الدفاع ، يطلب منه فيها دراسة إمكانية قيام القوات المسلحة بعملية محدودة لتهدئة الرأى العام، فى بدايات فبراير ١٩٧٤ م بحيث لاتثير غضب الإسرائيليين إلى الحد الذى يدفعهم للثار بعملية عنيفة ..
برقت عينا (خالد) لسماع هذه المعلومة المذهلة ، التى تحسم الكثير والكثير من القلق والتساؤلات الإسرائيلية فى الآونة الأخيرة ، فى حين تراجع الرائد (مصطفى) ملوحا بيده ، ومتابعا:
- هل رأيت خوفا يفوق هذا ؟!
وابتسم (خالد) دون تعليق ..
وفى الليلة نفسها ، بث هذه المعلومة بالشفرة إلى (إسرائيل).
وفى قسم الاعتراض ، بالمخابرات العامة المصرية ، التقط الرجال رسالته ، وعلت وجوههم ابتسامة واثقة ، والرائد (مصطفى) يغمغم:
- عظيم .. يبدو أن ما احتملته طويلا سيؤتى ثماره الآن !
قالها بوقار وتركيز شديدين ، لايشبهان قط لهجته المتهالكة ، التى نقل بها السر الزائف للجاسوس ..
وعندما بلغ الخبر الإسرائيليين ، لم يكن لديهم سبب واحد لعدم الاعتقاد فى صحته !
كل الشواهد والدلائل ، التى تم صنعها بدقة مدهشة ، كان تؤكده تماما ..
ثم إن الرائد (مصطفى) لم ينقل إلى (خالد) معلومة واحدة خاطئة قط..
وهكذا اطمأنت قلوبهم جميعا ..
وقلب الجاسوس (خالد) أيضا
حتى ظهر السادس من أكتوبر ١٩٧٣ م
ففى تلك الساعة ، انقضت النسور المصرية على الجيش الإسرائيلى ..
وطرق صقور المخابرات العامة باب منزل الجاسوس .
ونال الاثنان جزاءهما العادل!
ومع مرارة الهزيمة ، وأمام حبل المشنقة ، كشف الإسرائيليون وجاسوسهم سر الرائد (مصطفى) والجهاز القوى من خلفه ، والشعب الذى لم يعتد أبدا الاستسلام للهزائم.. السر المصرى..
الحقيقى!

صفحات من تاريخ الجاسوسية

العرّاف..

فرحة عارمة غمرت (إسرائيل، والإسرائيليين) عقب انتصارهم فى حرب يونيو ١٩٦٧م ..

وسائل إعلامهم صنعت من تلك الحرب القصيرة معجزة جديدة، من معجزات العصر الحديث، تستحق أن تكتب فى التوراة (على حد قولهم)، واعتبرتها شهادة تقدير وإثبات لقوة الجيش الإسرائيلى، الذى يصف نفسه بالأسطورة التى لاتقهر، ولجهاز المخابرات (الموساد)، الذى أعلن أنه المسئول الأول عما سماه بالانتصار الساحق على الجيوش العربية مجتمعه، بفضل خداعه لهم، وحصوله على كل المعلومات الممكنة منهم.

وفى غطرسة لامثيل لها، خرج (موشى ديان)، وزير الدفاع الإسرائيلى، ليقول فى مؤتمر صحفى علنى : إن الانتصار على المصريين لم يكن بالأمر العسير، لأن العرب لايقرأون، ولا يتعلمون من أخطاء الماضى والتاريخ ..

أما جنرالات الجيش الإسرائيلى، فكانوا أشبه بذكور الطاووس، من فرط زهوهم وغرورهم، وشعورهم الفائق بالظفر والانتصار ..

ومع زهو الانتصار، وإشادة الصحف الإسرائيلية بالجنرالات، والاحتفالات التى أقيمت فى كل مكان، نسى الجميع حقيقة تلك الحرب القصيرة المحدودة، وصدقوا كل مايقال عنها، وعن كونها أعظم انتصارات التاريخ ..

ولأن للشهرة بريقا يخبو إلى جواره كل بريق، ذاب الجنرالات وسط الاحتفالات والتكريم والتصفيق والهتاف..

وحدث لديهم مايطلق عليه اسم (استرخاء مابعد النصر)....

وفى أحاديثهم الشخصية، كان جنرالات الجيش الإسرائيلى يسترجعون ماحدث، ويؤكدون لبعضهم البعض أن حرب يونيو قد حطمت ليس الجيوش العربية وحدها، ولكن الإرادة العربية أيضا، ولم يعد من الممكن، مهما طال الزمن، أن تاتى صحوة جديدة، ينهضون فيها من هزيمتهم هذه..

وكان من المؤكد ـ من وجهة نظرهم ـ أن انتصارهم صار أبديا..

دون أدنى ذرة من الشك ...

ولكن المرأة أكثر تأثرا بالشهرة والبريق، فقد أصيبت زوجات الجنرالات بهوس لامثيل له إلا بين نجمات السينما، وعارضات الأزياء الشهيرات، ورحن يتنافسن فى استخدام أدوات الزينة، وارتداء أحدث الأزياء، الواردة من (باريس) خصيصا، ويتدربن على الابتسام أمام المرأة، حتى تنشر الصحف صورهن، فى أبهى صورة ممكنة..

وكتداع طبيعى، رحن يتهافتن على كل جديد وغريب، فى محاولة لإثبات علو شأنهن، وانتمائهن لطبقة تفوق كل الطبقات، فى المجتمع الإسرائيلى الجديد..

وفى تلك الفترة، فى أواخر الستينيات، كانت (إسرائيل) تمر بمرحلة تغيير كبيرة بالفعل..

انتصارها، وما أعقبه من انبهار إعلامى، جعل أعداد المهاجرين إليها تتضاعف، وانهمارهم وتهافتهم عليها يتزايد، فى كل بقاع الأرض ..

وكان على الإسرائيليين أن يعملوا بمنتهى الدقة، لفحص ودراسة أوراق كل مهاجر جديد، من بين المئات، الذين يفدون عليها يوميا، للتيقن من جنسيتهم وديانتهم، ومراجعة كل نقطة يتبادر إليها الشك بشأنهم..

ومن بين هؤلاء المهاجرين الجدد، كان (يورى كرينهال) ..

شاب نحيل ، شاحب، من أصل سوفيتى، يوحى مظهره بالفقر ورقة الحال، وإن عكست عيناه الزرقاوتان التماعة عجيبة، تجعلك تقسم، دون أن تتبادل معه حرفا واحدا، أن عبقريته ربما تفوق عبقرية (ألبرت أينشتين) نفسه ..

وكما يحدث فى المعتاد، ودون أن يبالى أحد بهذا الذكاء الواضح، تم نقل (يورى) إلى أقرب مزرعة أو (كيوبتز)، ليعمل بالزراعة والأعمال الشاقة، حتى يتم العثور على عمل مناسب له..

ولأن ملفه لم يكن يحوى أية أمور مثيرة للاهتمام، فقد نسيه مكتب الهجرة، فور إرساله إلى تلك المزرعة..

وهناك ـ ودون أدنى شكوى ـ راح الشاب يعمل طوال الوقت، ويوزع ابتسامته الشاحبة المرهقة على الجميع، ثم يجد فى آخر النهار الوقت الكافى، ليعاون عجوزا على حمل الماء، أو الاستماع إلى شيخ يندب حظه، الذى جعله يصدق الدعاية الإسرائيلية، ويترك وطنه فى (بولندا)، ليلقى بنفسه وسط هذا العذاب الشاق...

وطوال ثلاثة أشهر كاملة، قص (يورى) قصته أكثر من ألف مرة، على الرغم من أنها قصة بسيطة للغاية ..

فهو مجرد يهودى سوفيتى، اعتقل الحزب الشيوعى والده، بسبب خلاف فى الرأى، قبل أن يتجاوز هو الحادية عشرة من عمره، ثم قضت أمه عمرها كله لتربيته وتنشئته، وهى تحلم معه بعودة والده، الذى لم يعد قط، حتى لحظة كتابة هذه السطور ..

وكان الجميع يتعاطفون مع (يورى)، لطيبته وتهذيبه، ووجهه الشاحب النحيل..

ثم فجأة، بدا اهتمامهم به يتخذ منحنى آخر...

فذات ليلة صافية، امتلأت فيها السماء بالنجوم، وتألق وسطها القمر، الذى يغمر المنطقة كلها بضوئه الفضى، جلس (يورى) يتحدث مع جارته الفاتنة (راشيل) وأمها العجوز، و ...

وفجأة، توقف (يورى) عن الحديث، وشرد ببصره بضع لحظات، قبل أن يقول، وكأنه يحدث نفسه، أو يتحدث مع شبح خفى :

ـ (يارون بلونسكى) أخطأ كثيرا، عندما رفض الاعتراف بمافعل.

بُهتَتْ (راشيل) وأمها، وحدقتا فيه بذهول تام، إذ إن ذلك الشخص، الذى يتحدث عنه، كان صديقا قديما للشابة (راشيل) فى (بغداد)، تورطت معه فى علاقة غير شرعية، أسفرت عن حمل سفاح، استنكره (يارون)، ورفض الاعتراف به تماما، بل وفر من (بغداد) كلها إلى جهة مجهولة، قبل عام واحد من هجرة أسرة (راشيل) إلى (إسرائيل) ..

ولم يكن من المحتمل .. بل كان من المستحيل تماما، أن يعرف (يورى) حرفا واحدا فى هذه القصة، التى أخفتها الأسرة تماما، ولم تتحدث بشأنها مع أى كائن كان، فى محاولة لنسيانها، ونسيان ماتجمعه من جهد ومال، لإجهاض (راشيل)، وإنقاذها من الفضيحة ..

وبشفتين مرتجفتين، سألته (راشيل) :

ـ ما .. ماذا تقول يا (يورى)؟!

لم يبد حتى أن الشاب قد سمعها، وهو يردد بنفس الشرود العجيب:

ـ لقد شعر بالندم، وسيدفع الثمن .. سيدفع الثمن ...

راح يكرر العبارة الأخيرة، وقد شملته رعدة غريبة، وتصبب العرق على وجهه الشاحب النحيل، ثم لم يلبث أن سقط فيما يشبه الغيبوبة ..

وعندما استعاد الشاب وعيه، أنكر واستنكر تماما ماقاله، وأكد أنه لايذكر حرفا واحدا منه..

وكان من الممكن أن ينتهى الأمر عند هذا الحد ..

لولا ماحدث، مع بداية الأسبوع التالى ..

لقد تلقت (راشيل) فجأة شيكا بمبلغ ضخم، يمكن صرفه من أى بنك فى (إسرائيل)، ويحمل توقيع (يارون بلونسكى)، مع كلمة واحدة.

اقبلى اعتذارى.

ومع فرحة (راشيل) الغامرة، انتشرت القصة فى المكان كله، وتحدثت الأم فى انبهار عما قاله (يورى)، مع تركيزها على نبوءته، دون أن توضح سبب وصول هذه الثروة إلى ابنتها.

وقبل أن تهدأ العاصفة، ألقى (يورى) نبوءة جديدة..

كان الجميع يرقصون، فى حفل بسيط، مع نهاية الأسبوع، عندما توقف فجأة، وشرد بصره على ذلك النحو العجيب، ثم ارتجف جسده كله، وهو يقول:

ـ ياللخسارة: لماذا ينكسر محراث جميل لهذا؟!. لماذا؟!

بدت العبارة عجيبة للجميع، خاصة أن كل المحاريث فى المزرعة تم تجديدها وإصلاح كل ما يمكن إصلاحه فيها، ومنحتهم الشركة ضماناً لمدة عام كامل بعدها.

ولكن (يورى) لم يعلق على هذا، وإنما أنكر ما قاله، وأكد أنه لا يذكر حرفا واحداً منه، وإن لم يفقد الوعى هذه المرة.

ولا حتى لحظة واحدة

وقبل ظهر اليوم التالى، تحققت النبوءة:

انكسر المحراث بغتة، دون أن يدرى أحد سببا لهذا ...

وهكذا تحول (يورى) فجأة، من عامل مزرعة بسيط، إلى أسطورة، يتحدث عنها المهاجرون الجدد، فى المنطقة كلها.

وتوافد البعض، من مناطق

بقلم :

د. نبيل فاروق

شتى، ليشاهدوا ذلك العراف المدهش، الذى ظل ينكر موهبته، ويصر على أنه لا يدرى عنها شيئا، إلا أن اصراره هذا لم يزد الناس سوى انبهار وتهافت، خاصة أنه كان يتوقف بغتة، ويدير عينيه إلى أحد الحاضرين، ثم يلقى نبوءة هنا، وأخرى هنا، أو يتحدث عن ماض خفى، أو حادثة لا يعلم عنها الآخرون.

وكان من الطبيعى، والحال هكذا، أن تتجاوز شهرة الشاب حدود معسكرات العمل البسيطة، أو تقفز إلى أرض أكثر صلابة.

إلى (تل أبيب) نفسها..

وذات يوم، وجد (يورى) من يطلب منه السفر فورا إلى (تل أبيب) ، ليلتقى ببعض الأشخاص المهمين هناك..

وبدا الشاب هلعا مذعورا، وهو يستقل السيارة الكبيرة الفاخرة، التى أتت لإحضاره، ويرتدى الحلة الأنيقة، التى أحضرها معه سائق السيارة، وراح يلقى عشرات الأسئلة، التى تشف عن خوفه وارتياعه، وحيرته حول السبب فى استدعائه..

وانطلقت به السيارة خارج (الكيوبتز)، الذى قدر له ألا يراه مرة أخرى قط.

وفى (تل أبيب) ، فوجىء الشاب بأن الأشخاص المهمين، الذين يطلبون رؤيته، عبارة عن فريق من النساء..

زوجات القادة والجنرالات وكبار المسئولين فى (إسرائيل)، كن يسعين للالتقاء به، ورءوسهن محشوة بعشرات الأسئلة، حول مصير أزواجهن، ومستقبلهم، واحتمالات الترقى والثروة.

وفى خوف واضح، أكد الشاب أنه لا يمتلك أية موهبة، وحاول أن يقنعهن بإعادته إلى مكانه، إلا أن ما سمعنه من مواهبه الخارقة، كان يؤكد استحالة قبولهن للفكرة، وإصرارهن على بقائه، حتى ولو استغرق شهرا كاملا، قبل أن يتفوه بشىء ما أو نبوءة واحدة.

فقبل أن ينتصف الليل، انتابت (يورى) تلك الحالة العجيبة، من الشجون والتوتر والارتجاف، واستدار إلى زوجة سكرتير وزير الصناعة، وراح يروى لها خبايا ماضيها، ثم أخبرها أن زوجها يواجه خطرا كبيرا.

وقريبا..

ومع هلع المرأة وذعرها حاولت أن تعرف المزيد من التفاصيل، إلا أنه عاد ينكر ويستنكر كل ما قاله، ويؤكد فى حيرة أنه لا يذكر حرفا واحدا منه.

أى حرف..

ثم أنه لم يطرح أية نبوءة أخرى تلك الليلة، وترك زوجة سكرتير وزير الصناعة تعود إلى بيتها أشد شحوبا منه، وهى تتساءل عما يعنيه، حتى أن النوم لم يعرف طريقه إلى عينيها قط..

وفى الصباح التالى مباشرة، تحققت النبوءة.

فجاة انكشفت انحرافات سكرتير الصناعة، ووصلت إلى النائب العام الإسرائيلى كومة من الأدلة، حول وقائع فساد ورشوة واستغلال نفوذ.

وكانت فضيحة كبرى فى إسرائيل..

وقنبلة تفجرت حول (يورى كرينهال)، الذى ذاع صيته، وعلا شانه وتحسنت سمعته، وكاد يحمل لقب (العراف الرسمى للكبار).

كل الكبار...

وزوجاتهم على وجه الخصوص..

وعلى الرغم من الأضواء المبهرة، التى تسلطت عليه، ظل (يورى) كما هو...

بسيطا، شاحباً...

وخائفا...

ولم يعترف مرة واحدة، بأنه يمتلك أية قدرات روحانية خاصة.

لم يعترف بذلك أبدا..

ولكن هذا لم يمنعه من إلقاء نبوءة تلو الأخرى..

وكلها تتحقق..

وعلى نحو مدهش

ولم يعد الأمر يقتصر على الزوجات وحدهن..

الجنرالات أيضا انضموا إلى القائمة، وأتوا بأزيائهم العسكرية النظيفة، وأوسمتهم الكبيرة الملونة، وكروشهم الضخمة، التى نمت كنتاج للانتصار والاستقرار، والشعور الدائم بالظفر والتفوق.

فى البداية كانوا يكتفون بحضور الحفلات، ومراقبة الشاب فى حذر وهو ينكمش فى أحد الأركان، أو يتحدث إلى واحدة من الزوجات، فى أدب جم وخفوت شديد..

ثم وهو يشحب ويرتجف ويلقى نبوءة جديدة.

وكالمعتاد، تتحقق نبوءته بمنتهى الدقة..

ورويدا رويدا، راحوا يجتمعون به فرادى..

كل منهم كان يدعوه إليه، ويسأله فى لهفة عن مصيره ومستقبله، ودوره فى الوزارة القادمة أو الحكومة المنتظرة..

والشاب يواصل إصراره واستنكاره، وتأكيده أنه لا يمتلك أية معلومات.

والجنرالات يزدادون لهفة، وتهافتا، وإصراراً على أن يخبرهم بكل ما ينتظرهم، فى المستقبل القريب والبعيد.

ولجميعهم تقريبا، قال العرّاف الشاب، بصوته الشاحب الباهت الضعيف:

- فى أوائل العام القادم، ستصبح ذا شان كبير للغاية..

ومن المؤكد أن كلا منهم قد شعر بارتياح عارم لهذه النبوءة..

ومن المؤكد أكثر أنه اخفاها عن كل من حوله..

وخصوصا فى تلك الفترة، من نهايات أغسطس، عام ١٩٧٣م..

ثم فجاة، وبلا مقدمات، ومع نهاية سبتمبر، من العام نفسه، اختفى (يورى كرينهال) تماماً، من حفلات المجتمع الإسرائيلى..

من كل الحفلات..

بل ومن (إسرائيل) كلها..

وعبثا، بذل الجنرالات وزوجاتهم جهدا مضنيا، للبحث عنه، والعثور عليه..

ثم توقفوا عن كل هذا دفعة واحدة.

فى السادس من أكتوبر عام ١٩٧٣م..

توقفوا مع الضربة الجوية المدهشة، التى حطمت غرورهم وغطرستهم، مع اللحظة الأولى للحرب.

الحرب التى شنتها (مصر) والعرب، بعد أن تصور جنرالات (إسرائيل) أنها أمر غير محتمل الحدوث على الإطلاق.

ومع عبور قناة (السويس) وارتفاع العلم المصرى على الضفة الشرقية، انهارت أسطورة الجيش الإسرائيلى تماما.

وانهارت دفاعاته.

وقواته..

وقبل كل هذا.. كرامته

ومع القتال العنيف، والهزائم التى تتوالى بلا انقطاع، راح جنرالات (إسرائيل) يتساءلون فى ذعر عن سر كل هذا..

كيف نهض المصريون من كبوتهم بهذه السرعة؟!

كيف حققوا ما تصور الجميع أنه مستحيل؟!

ثم كيف جمع رجال المخابرات المصرية كل هذه المعلومات، التى تجعلهم يقاتلون، كما لو أنهم يحفظون دفاعات (إسرائيل) عن ظهر قلب؟!

كيف؟!

وفى الوقت نفسه، الذى يلقون فيه تساؤلاتهم، كان أحد ضباط المخابرات العامة المصرية يبتسم، وهو يربت على كتف شاب مصرى نحيل شاحب، تتالق عيناه بذكاء فطرى عجيب، وهو يقول:

- أجدت دورك تماما يا(حسين).. انتماؤك إلى أب مصرى وأم سوفيتية جعلك مقنعا للغاية كمهاجر روسى فقير، وقدراتك على التمثيل أقنعتهم كلهم بأنك عراف حقيقى.

ابتسم الشاب قائلا:

- الفكرة نفسها كانت عبقرية، ثم أنكم وضعتم خلفى فريقا كاملا، يجمع المعلومات، ويبلغنى بالتطورات، وينفذ العمليات، حتى كدت أصدق قدرتى على التنبؤ.

ثم اتسعت ابتسامته وهو يضيف:

- الواقع أنكم انتم من يستحق التهنئة.

قالها، وشفتاه تحملان ابتسامة ظافرة كبيرة

وعيناه تتالقان بذلك البريق المدهش

بريق عبقرية..

ووطنية..

بلا حدود.

المطاووس

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت السابعة بعد، في ذلك اليوم من بدايات صيف ١٩٧٣م، في (تل أبيب)، عندما استيقظ رجل المخابرات الإسرائيلي، البولندي الأصل (يارون ديلشمسكي)، على رنين الهاتف المجاور لفراشه، فأسرع يختطف سمّاعته، قائلا بصوت خشن، لم تفارقه رائحة النوم بعد:

(ديلشمسكي).. من المتحدث؟!

أتاه صوت رئيسه المباشر، وهو يقول في صرامة:

– استيقظ وافتح عينيك يا (يارون).. اريدك في مكتبي بعد نصف الساعة فحسب.. الأمر عاجل للغاية.

أنهى رئيسه الاتصال، بعد هذه العبارات المقتضبة مباشرة، علي نحو يوحي بأنه غير مستعد لإضاعة لحظة واحدة، فهب الرجل من فراشه، وراح يرتدى ملابسه على عجل، ولم يمض نصف الساعة، الذى أشار إليه رئيسه، حتى كان يقف أمامه، في مبنى (الموساد) وهو يقول

– ترى أى أمر عاجل هذا، الذى يستدعى العمل في هذه الساعة المبكرة؟!

رمقه رئيسه بنظرة جافة، ومط شفتيه لحظة، قبل أن يقول:

– رئيسة الوزراء تقول: إن المصريين يستعدون لشن الحرب.

ارتفع حاجبا (ديلشمسكى) في دهشة، لم تلبث أن استحالت إلى ابتسامة ساخرة وهو يقول:

– ومن أين استقت سيادتها معلوماتها هذه؟!.. المفترض أننا الجهاز المسئول عن مدّها بالمعلومات

هز رئيسه رأسه، قائلاً في حزم:

– لسنا وحدنا في هذا .. هناك المخابرات الحربية (أمان) وجهاز الأمن الداخلي (شين بيت) وكلاهما لديه جواسيس وعملاءفي كل مكان وربما حصل أحدهم على معلومة ما

قال (ديلشمسكى) في حزم واثق:

– لايمكن أن يحصل أحدهم على معلومة لم تبلغنا

ثم أشار إلى صدره في زهو شديد، مضيفاً

– نحن الأفضل.

أشاح رئيسه عنه بوجهه، وانعقد حاجباه، وهو يمط شفتيه في ضيق واضح..

كان هذا بالضبط مايمقته فيه ويبغضه كل البغض..

صحيح أنه رجل مخابرات بارع في مضماره، ادار عمليات ناجحة عديدة، إلا أن زهوه وغروره، وثقته الزائدة بنفسه امور بغيضة، تجعله أشبه بطاووس متباه، لايحلو له أن يسير إلا مفرود الذيل. متفاخراً مرحاً..

وبنفس الثقة المستفزة، واللهجة المثيرة للأعصاب، قال (ديلشمسكي)، وهو يلوح بيده في أناقة، وكأنما يؤدى مشهدا تمثيليا

– مادامت المعلومة لم تصلهم من خلالنا، فلا يمكن الوثوق بها أبداً

ابتلع رئيسه ضيقه هذه المرة، وهو يقول:

– المهم أن نثبت هذا، على نحو لايقبل الشك

سأله (ديلشمسكى) في اهتمام:

– وكيف هذا؟!

أشار رئيسه بيده، مجيباً:

– رئيسة الوزراء رشحتك شخصياً، بصفتك المسئول عن المعلومات العسكرية المصرية، للتحقق من الأمور، والحصول على جواب صحيح ومباشر، لايقبل الشك، للسؤال الذى يقلق كل مسئول في (إسرائيل) الأن

ثم مال نحوه، مضيفاً في حزم صارم:

– هل سيحارب المصريون أم لا؟!

منذ نطق رئيسه بالعبارة، لم يعد هناك عمل لرجل المخابرات الاسرائيلي سوى البحث عن جواب السؤال، وجمع كل المعلومات الممكنة، حول استعدادات المصريين، وقدراتهم ورغبتهم الفعلية في شن الحرب، والسعى لاستعادة أرضهم المحتلة

وعلى الرغم من زهوه وغروره، كان (ديلشمسكى) بالفعل رجل مخابرات بارع، يعمل دوما في دقة ومهارة، ويجيد التعامل مع رجاله، وتوزيع الأدوار عليهم، وجمع كل ماجلبوه من معلومات، وتنقيدها، وتصنيفها، والفوز بأكبر قدر ممكن من الفائدة منها..

لذا فقد اطلق ذئابه في كل صوب، ،طلب منهم جمع كل معلومة ممكنة، سواء أكانت عسكرية، أم أقتصادية، أم حتى اجتماعية

ولكن كل ماجمعه زبانيته من معلومات، لم يكن من الممكن أن يحسم الأمر قط..

فالرئيس (السادات) يبدو منشغلاً بمشكلات الجبهة الداخلية، ومحاولات الاستقرار علي مقعد الحكم، والقاعدة الطلابية تبدى غضبها وتوترها ورفضها لاستمرار حالة اللاسلم واللاحرب، ومشكلة الخبراء السوفيت بلغت أوجها، كما صنع طردهم المفاجئ فجوة غير محسوبة، في النظام العسكرى، الذى اعتاد وجودهم لعدة سنوات

وكل هذا يتعارض مع بعضه البعض، ويتداخل، على نحو يجعل الوصول إلى قرار حاسم أمرا مستحيلا.

وبحسبة محترفة بسيطة، وجد (ديلشمسكى)أنه بحاجة إلي جاسوس..

ليس جاسوساً عادياً، وإنما شخص فى مركز كبير أو حساس، بحيث يمكنه الاطلاع على مايجهله العامة، وبلوغ قدر من المعلومات، لايتوافر للشخص العادى..

ولابد وأن يكون هذا الشخص من العاملين أو المرتبطين ارتباطا وثيقاً بالقوات المسلحة المصرية، على نحو أو آخر..

وبكل همة ونشاط مع كثير من الثقة، راح (ديلشمسكى) يدرس الأمر مع فريق خاص من رجاله، وقضوا الليالى فى البحث والتنقيب، والفرز والتجنيب، وسط كومة من ملفات كل الأشخاص، الذين يمكن استغلال مواقعهم، فى (مصر)و (سوريا)

وبعد أسبوع كامل بلانوم، وقع اختياره على (إبراهيم)

المهندس (إبراهيم كريم) ، كبير مهندسى أحد المصانع الحربية المصرية، والمسئول الأول عن خط انتاج الذخائر والأسلحة الخفيفة فى حلوان، والوثيق الصلة ببعض كبار قادة وضباط الجيش

المشكلة الوحيدة كانت فى البحث عن نقطة الضعف، أو وسيلة السيطرة المباشرة على المهندس (إبراهيم)، لإجباره على العمل لحساب (الموساد) وتزويده بكل المعلومات المطلوبة، عن الجيش، استعداداته، واحتمالات خوضه للحرب من عدمه

ولم يستغرق هذا طويلا، بالنسبة لرجل مثل (ديلشمسكى)

فنقطة ضعف (إبراهيم) الوحيدة هى ابنه..

ولقد انجب (ابراهيم ابنه (طارق) هذا، بعد عشر سنوات من الزواج، وبعد ان دار مع زوجته على عيادات الأطباء، ومستشفيات (مصر) و (اوروبا)، حتى تسرب اليأس إلى نفسيهما، وتصورا انهما سيقضيان عمرهما بلا ابناء

ثم فجأة، حدث الحمل..

لم يصدقا نفسيهما فى البداية، وراحا يدوران مرة أخري على الأطباء ويجريان عشرات التحاليل والفحوصات، قبل أن يطمئنا إلى أن الأمر حقيقة، وأن الله (سبحانه وتعالى) قد منّ عليهما أخيراً بالانجاب..!

ولم تكن فترة الحمل بالأمر السهل فقد كان على الزوجة أن ترقد خلالها على فراشها، وتحذر اية حركات مفاجئة، أو تصرفات عنيفة، وأن يقوم هو ووالدتها على خدمتها، بكل صبر وعناية وأمل..

وأخيراً، جاء (طارق) طفلاً جميلاً باسم الثغر، ورث جمال أمه وذكاء أبيه وصار أملهما الوحيد فى الحياة والمستقبل..

واليوم كبر (طارق) وصار شاباً يافعاً، فى عامه السادس عشر

وصار أيضاً من وجهة نظر (ديلشمسكى)، نقطة الضعف الكبرى، فى حياة المهندس (إبراهيم)، الذى لايسكر، أو يقامر، أو يهتم بالعلاقات النسائية

ولثلاث ليال أخرى، راح (ديلشمسكى) يدرس الأمر مع رجاله، للبحث عن وسيلة مثلى، للاستفادة من نقطة الضعف هذه، لتجنيد (ابراهيم) ودفعه لمدهم بكل المعلومات المطلوبة والمنشودة

ولم ترق فكرة واحدة، من كل الأفكار التي تم طرحها، لرجل المخابرات الثعلب (ديلشمسكى) الذى لم يلبث أن طرح فكرته فى النهاية

كانت فكرة مجنونة للغاية، تحمل غروره،

بقلم : د. نبيل فاروق

وغطرسته، وثقته الزائدة بنفسه، ولكنه راح يدافع عنها بعناد وإصرار،حتى وافق الجميع عليها مع مطلع الفجر.

وفى أوائل سبتمبر ١٩٧٣م، اختفى (طارق) فجأة..

وجن جنون (إبراهيم) وزوجته، وقفزت أفكارهم إلى الاتصال بالشرطة، للبحث عن ابنهما الوحيد، لولا أن تلقيا اتصالاً محدوداً

«طارق» عندنا، وسيتم ذبحه بلارحمة، لو حاولتما الاتصال بالشرطة، أو بأية جهة أخرى..»

وحدد المتحدث موعداً ومكانا للقاء

وبكل ذعره ورعبه وهلعه، ذهب المهندس (إبراهيم) إلى المكان المحدد، فى الموعد المطلوب تماماً..

وانتظر..

انتظر طويلا وكثيراً، قبل أن يظهر شخص نحيل طويل، متجها إليه بسيارة صغيرة ثم يقول فى صرامة:

– هيا لنذهب الى حيث (طارق)

قفز المهندس (إبراهيم) إلي السيارة، ودق قلبه فى توتر بلا حدود، وهو يسأل سائقها، الذى انطلق بها فى طريق المقطم:

– اين (طارق)؟! ..كيف هو؟!

اجاب الرجل فى برود:

– بخير.. لو أطعت أوامرنا

هتف بسرعة

– سأفعل كل ماتريدون، وسأدفع أى مبلغ، مقابل إعادة ابنى

أوقف الرجل سيارته، فى منطقة مقفره تماماً وهو يجيب:

– اطمئن.. لن تدفع شيئاً.. بل ربما تحصل على ثروة

لم يفهم المهندس (إبراهيم) مايعنيه هذا فسأله فى حيرة:

– وكيف؟!

لم يجب الرجل على سؤاله، وإنما غادر السيارة، ووقف على مسافة مترين منها، فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه سيارة أخري اتجهت نحوهما مباشرة، ثم هبط منها رجل فى مثل طول الأول ونحوله، وجلس إلى جوار (إبراهيم) وهو يسأله

– هل ترغب حقا فى استعادة ابنك؟!

هتف (ابراهيم) في لهفة:

– ومستعد لفعل أى شئ في الدنيا؛ فى سبيل هذا

ابتسم الرجل قائلا:

– عظيم

ثم اخرج من جيبه عدة اوراق، قدمها له، مستطرداً

وقع هذه الأوراق إذن.. بعد أن تعيد كتابتها بخطك بالطبع

واتسعت عينا (ابراهيم) فى رعب حقيقى، وهو يحدق فى الأوراق..

كانت عبارة عن اعتراف بعمله لحساب المخابرات الاسرائيلية، منذ عام ١٩٧١م مع عدد من الخطابات التى تحتوي اسراراً عسكرية عديدة، مرسلة الى عنوان (الموساد) فى روما، وايصالات بتلقي مبالغ مختلفة من الاسرائيليين، نظير معلومات خطيرة

باختصار، كان هناك كل ما يكفى لإدانته بتهمة الخيانة العظمى، وفى زمن الحرب، مما يستوجب اعدامه بلا رحمة..

وكان الرجل واضحا صريحاً..

إما إعادة كتابة الخطابات والتوقيع عليها

أو حياة (طارق)

ولم يكن امام المهندس (ابراهيم) مجال للاختيار..

فكل شئ فى الدنيا يهون، من أجل (طارق)

وطوال ثلاث ساعات كاملة راح يعيد كتابة الاعتراف والخطابات والإيصالات ويمهرها بتوقيعه ثم يسلمها إلي عميل المخابرات الاسرائيلية، الذى دسها فى حقيبته وهو يقول في صرامة:

– (طارق) سيعود إلي المنزل، فور تلقينا أول معلومات حقيقية، ترسلها إلينا من هنا، على العنوان في (سالزبورج) وينبغى أن تعلم أن أية محاولة لخيانتنا، سيكون ثمنها حياة ابنك، حتى بعد أن نعيده إليك..

وعاد (إبراهيم) إلى منزله بدون (طارق) وقد حمل على كتفيه طنا من الهموم والاحزان والمرارة والعار..

ومع انهيار زوجته، ودموعها التى اغرقت وسادتها ليلة كاملة، جلس هو صامتاً يفكر وبركان هائل يغلى فى رأسه، وتلهب حممه عروقه

كان عليه أن يفعل أى شئ فى الدنيا، وأن يحمل قراره، أيا كان، هدفا واحدا لاغير ، مهما كانت النتائج ..

مصلحة (طارق).. وحدها.

وفى الصباح التالى،وبعد ساعتين فحسب من وصوله إلي عمله كان المهندس (إبراهيم) يكتب أول خطاباته، الذى يحوي كل ما بلغته يداه من معلومات عسكرية، ويرسله الى ذلك العنوان فى (سالزبورج) وأوفى الإسرائيلى بوعده فلم يمض يوم واحد، على وصول الخطاب ومراجعة (ديلشمسكي) بنفسه له، حتى عاد (طارق) إلى المنزل، فى منتصف النهار..

كان شاحباً ممتقعا، وإن لم يصبه خدش واحد، ولكن الملاحظ أنه لم يتحدث عما حدث قط، ولم يحاول النظر الى والده ابداً، وكأنما يفهم ماحدث، ويدرك مدى ماتورط فيه الأب،فى سبيل إنقاذه

ولم يحاول (إبراهيم) تفسير موقفه، أو مناقشة الامر مع ابنه، وكأنما يدرك بدوره فداحة الأمر وخطورته

وطوال الشهر التالى واظب المهندس (ابراهيم) على ارسال الخطابات إلي (سالزبورج) مستخدما ذلك النوع البسيط من الحبر السرى الذى دربه عليه الإسرائيلى، خلا يومين فحسب..

وفى (تل أبيب)، كان (يارون ديلشمسكي) يراجع كل الخطابات بنفسه، ويدرسها ويصنف معلوماتها جنبا إلى جنب ، ويفحصها ويمحصها، حتى استقر أمره علي قرار واضح نقله مباشرة إلى الرئيس، قائلا بنفس زهوه وغروره:

– تماماً كما توقعنا. لايوجد دليل واحد على ان المصريين يفكرون مجرد تفكير فى خوض الحرب.. إنهم هادئون تماماً.. ضباطهم يستعدون لأداء عمرة رمضان، ورئيسهم يتجنب الحديث عن الحرب، بحجة أن المتغيرات الدولية لاتسمح بهذا، وقائد قواتهم الجوية يستعد لزيارة (ليبيا)

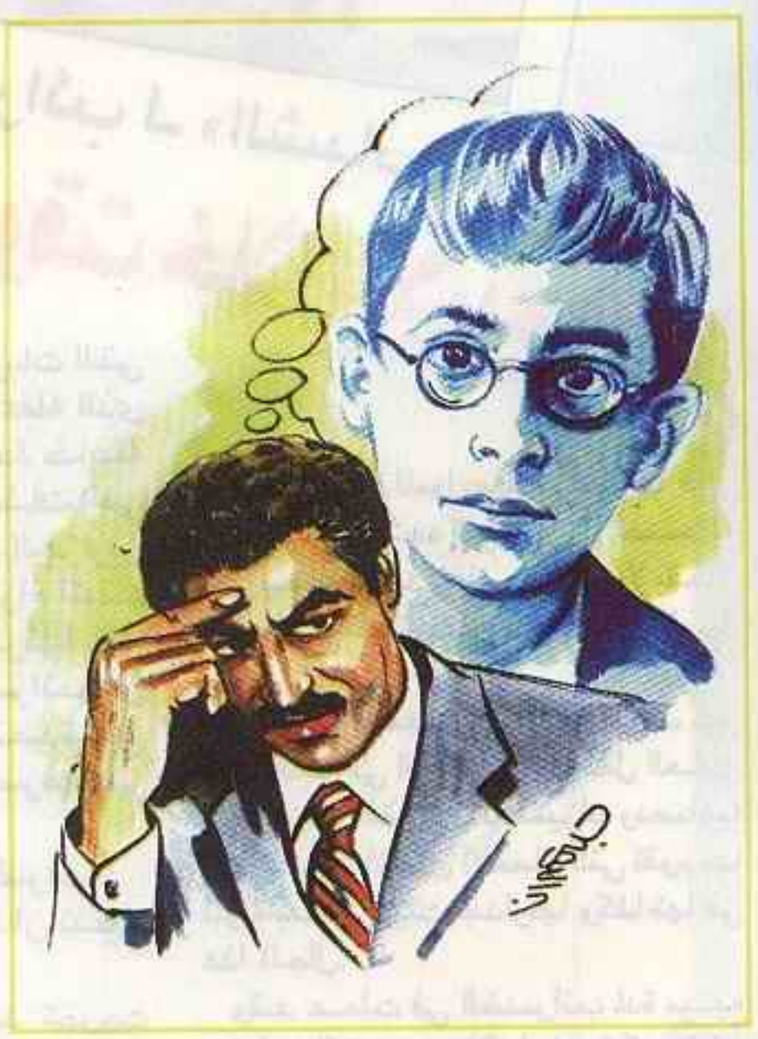

وجنودهم يسترخون ويستمتعون بحمامات الشمس، علي شاطئ القناة

ثم اتسعت ابتسامته، وهو يضيف

– يمكن لرئيسة الوزراء نسيان فكرة الحرب هذه تماماً

وفى المساء نفسه، ارسل رئيسه تقريراً رسمياً بكل هذا الى رئيسة الوزراء الاسرائيلية، بتوقيع (ديلشمسكى)، وبتاريخ اليوم الرابع من اكتوبر ١٩٧٣م..

وبعد يومين بالضبط، وفى أحد المباني التابعة للمخابرات العامة، كان رجل المخابرات المصرى (رفعت) يبتسم، وهو يقول للمهندس (ابراهيم):

– صدقنى أيها المهندس.. أنا لم ار شخصاً بشجاعتك ووطنيتك هذه قط.. لقد كنت تدرك ان حياة ابنك قد تكون ثمن تعاونك معنا لخداع الإسرائيليين، وإيهامهم بأننا لانفكر فى شن الحرب قط، وعلى الرغم من هذا فقد لجأت إلينا، وشرحت لنا الأمر كله، ونفذت كل ما طلبناه منك، حتى باغتتهم الحرب اليوم، وحطمت غرورهم وغطرستهم فى ساعات معدودة

أغمض (ابراهيم عينيه، مغمغما:

– حمداً لله:

ثم فتحهما، مستطرداً في حزم:

– لقد فعلت كل هذا من أجل (طارق). من أجل ألا يشب هو ويشعر أن والده قد خان وطنه، لأى سبب كان.. فعلته حتى لايفقد انتماءه لبلده الذى أنجبه ورباه.. من أجل (طارق) ومستقبله، قررت أن ينمو فى وطن حر مستقل، حطم هزائمه، وصنع انتصاراته

ثم اغرورقت عيناه بالدموع، من فرط الانفعال، وهو يضيف:

– حتى ولو كان الثمن هو حياته.. وحياتنا جميعاً..!

ربت (رفعت) على كتفه، قائلا فى حزم:

لقد فعلت الصواب ياسيد (ابراهيم).. فعلته لوطنك، وابنك ولنفسك أيضاً.. وأطمئن... (طارق) سيبقى دائماً تحت حمايتنا، ولن يمس الاعداء شعرة واحدة من رأسه

واستعاد ابتسامته، مستطرداً

– وسيظل يزهو طيلة عمره، بأنه ابن واحد من ابطال (مصر)

لحظتها شعر (ابراهيم) بأن كل مخاوفه قد زالت، وبأن فيضا من الاطمئنان والارتياح يسرى فى عروقه، ويملأ كيانه كله..

وعندما تخيل الإسرائيليين، وحالة العار التى يشعرون بها بعد أن باغتتهم الحرب، بضربة جوية ساحقة، وبعبور كسر انفهم، وحطم أسطورتهم إلى الأبد، وجد نفسه ينفرد فى فخر وزهو حقيقيين، حتى أنه غادر المبنى عائداً الى (طارق) وأمه، وهو يسير مختالا كالطاووس..

طاووس مصرى..

ظافر.

صفحات من تاريخ الجاسوسية

لحن الخطر

اعتدل الطقس فى (تل أبيب)، بعد موجة حارة غير مألوفة، فى ذلك الوقت من العام، فى منتصف سبتمبر ١٩٧٣م، وتنفس جنرالات الجيش الإسرائيلى الصعداء، بعد أن انتهوا، فى الوقت ذاته، من مناورتهم الأخيرة، وقاموا بتسريح جنود الاحتياط، الذين يمثلون أربعين فى المائة تقريباً، من تعداد الجيش، واسترخت أجسادهم بعد طول عناء، وبدأوا يبحثون فى لهفة عن وسيلة للمتعة وقضاء الوقت، وغسل كل هموم الفترة السابقة، خاصة أن كل الأخبار، الواردة من الجبهة المصرية، كانت تؤكد أن الأمور هناك مستقرة، ولا تفكير - أدنى تفكير - فى شن حرب على (إسرائيل)، خلال العام على الأقل..

ولأن إدارة العلاقات العامة، فى الجيش الإسرائيلى، كانت تدرك هذا جيداً، فقد قامت بإعداد حفل موسيقى راقص، للجنرالات والضباط وزوجاتهم، فى أكبر النوادى فى (تل أبيب)، للترفيه عن الرجال، ورفع روحهم المعنوية..

ولأن حفلاً كهذا يحتاج إلى طاقم متميز من النجوم ومحترفى الفن، فقد تعاقدت القيادة الإسرائيلية مع مجموعة خاصة منهم، وعلى رأسها (زايون باراخ)، عازف البيانو الشهير، الذى ذاع صيته فى العامين الأخيرين، بعد أن ترك كل أعماله فى (سويسرا) و(النمسا)، وقرر العيش والاستقرار فى (إسرائيل)..

وخلال الحفل، كان (باراخ) متألقاً أكثر من المعتاد، ابتسامته العزبة الأنيقة لا تفارق شفتيه لحظة واحدة، وهو يوزع مجاملاته وتحياته على الضباط والجنرالات وزوجاتهم، وكل قادة وساسة إسرائيل، الذين اكتظ بهم الحفل..

وكان من الطبيعى أن تدور بينه وبينهم حوارات عديدة.. قصيرة أو طويلة، وأن تتطرق تلك الحوارات، بصورة عفوية تامة، إلى المناورة الأخيرة، ومدى استعداد الجيش الإسرائيلى لمواجهة الحرب القادمة، وتصورات قادمة عن موقف العرب، وبخاصة مصر، وعن حالة اللا سلم واللا حرب، التى سادت عندهم، وجعلت حربهم الثأرية، التى يتحدثون عنها دائماً، مجرد حلم فى خيالهم، لا يمكن بأى حال من الأحوال، من وجهة النظر الإسرائيلية، أن يتحول يوماً إلى حقيقة..

ووسط كل هذا، ولأن الزهو جزء من تكوين جنرالات إسرائيل، بعد انتصارهم فى نكسة يونيو ١٩٦٧م، كان كل منهم يبدى أهميته وحساسية موقعه، بكشف سر أو بعض الأسرار، الخاصة بعمله، ثم يطالب مستمعه بكتمان الأمر، لخطورته وأهميته..

وطوال الوقت، وهو يستمع إلى كل هذا، ظل (باراخ) هادئاً مبتسماً، يتنقل بين الجميع بمنتهى الحيوية والنشاط..

حتى حانت فقرته..

وبهدوئه ورصانته المعهودتين، اتجه (باراخ) إلى البيانو الأبيض الأنيق، فى ركن القاعة، وسط عاصفة من التصفيق والحماس، وانحنى يرد تحية جمهوره، ثم صمت بضع لحظات، وكأنما يفكر فى عمق، أو يجرى بعض الحسابات الدقيقة..

وبعدها انطلقت أصابعه تعزف على البيانو، نغمات وألحان رائعة..

وفى لهفة وحماس، أخرج أحد الجنود الإسرائيليين من جيبه جهاز تسجيل صغير، وراح يسجل لحن (باراخ) الجديد، ورأسه يتمايل معه حباً واستمتاعاً..

ومع نهاية الليل، انفض الحفل، وخرج الموسيقار ليلبى دعوة أحد الجنرالات وزوجته، لقضاء ماتبقى من الوقت فى حفل محدود بمنزلهما، وبدأ العمال فى تنظيف المكان وتنظيمه.. أما ذلك الجندى، فقد حمل جهاز التسجيل الصغير فى جيبه بمنتهى الحرص، وعاد به إلى منزله، فى أحد الأحياء البسيطة، ولم يكد يغلق بابه خلفه، حتى أسرع إلى ركن فى مكتبته، فأزاحه فى سرعة، وأخرج من خلفه جهاز إرسال لاسلكى دقيق صغير الحجم، أوصله بجهاز التسجيل، ثم راح يبث الموسيقى، التى سجلها فى الحفل، عبر موجات الأثير..

وفى القاهرة، راح الرجال يستقبلون اللحن باهتمام بالغ، فى قسم الاستماع والاعتراض، ثم تم نقله فور الانتهاء من تسجيله، إلى قسم معالجة الشفرة، قبل أن يتسلمه ضابط المخابرات العامة المصرى (عاصم) فى مكتبه، على هيئة تقرير مطبوع ..

تقرير يحوى كل الأسرار، التى تناقلتها الألسن، خلال حفل العلاقات العامة الإسرائيلى.. فالمدهش، والذى لم يكن ليخطر على بال أحد قط، هو أن اللحن الجميل الأنيق، الذى عزفه (زايون باراخ) كان فى واقع الأمر نوعا مبتكرا عبقريا من الرسائل..

رسائل الشفرة، التى تحمل فى طياتها عبارة مدهشة..
عبارة (صنع فى مصر).

* * *

(زايون يانيل باراخ).. موسيقى نمساوى الجنسية، يهودى الديانة، ولد مع بداية الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م، ومع احتلال قوات النازية للنمسا، مما دفع أمه اليهودية إلى الفرار به إلى سويسرا، هرباً من جيش (هتلر)، وما يحمله معه من نوايا غير حسنة تجاه اليهود، فى حين بقى والده فى النمسا، واشتعل بالحماس للحزب النازى، ثم لم يلبث أن انضم إلى الجيش الألمانى، وقاتل فى فرنسا وبلجيكا وروسيا، التى لقى مصرعه بين ثلوجها، دون أن يرى ابنه سوى مرة واحدة عند ولادته..

وفى سويسرا، نشأ (باراخ) الصغير ضعيفاً نحيلاً، شاحب الوجه، يشاهد أمه كل ليلة، وهى تعود بعد منتصف الليل، وقد غمرت مساحيق التجميل وجهها، وامتزجت برائحة التعب والإرهاق، وبصحبتها رجل، يختلف فى كل ليلة، ليدفعاه دفعاً إلى حجرته، ويغلقان بابها عليه، ثم تتعالى ضحكاتهما، التى تبدو له أشبه بصراخ شيطان، فى قلب الجحيم..

واعتاد الصغير الوحدة فى حجرته، ولم يجد مايفعله، حتى تفرج عنه أمه فى الصباح، أو عند الظهر، لو شئنا الدقة، سوى أن يجرى بأصابعه على البيانو الخشبى الصغير، الذى أهداه له رجل بدين لطيف الملامح، لم يره أيضاً سوى ليلة واحدة، ثم اختفى بعدها تماماً، كما يختفى كل أصدقاء أمه عادة..

وعندما بلغ السادسة من عمره، أخبرته والدته أن الحرب قد وضعت أوزارها، وأن (هتلر)، الذى وصفته بالسفاح، قد لقى مصرعه، وصار بوسعهم العودة إلى النمسا، التى أطلقت عليها اسم الوطن..

ولم يكن للاسم أى مدلول، بالنسبة للصبى، إلا أنه بدا له وسيلة للخلاص من سجنه الإجبارى، وشعوره الدائم بالخوف والوحدة، الذى يلازمه كل ليلة..

ولكنهما لم يعودا إلى النمسا مباشرة..

كل ماحدث هو أن شيئاً ما قد تغير فى حياته، منذ حدثت تلك المشاجرة العنيفة، بين أمه وأحد أصدقائها، إلى الحد الذى استدعى تدخل الشرطة، واختفاء أمه ليوم كامل، قضاه سجيناً فى حجرته، بين فراشه والبيانو الصغير، وقد راوده شعور بأن أمه لن تعود أبداً، وستتركه يموت سجيناً هكذا..

بعدها لم تعد أمه تحضر الأصدقاء إلى المنزل..

لقد التحقت بعمل مستقر، فى ملهى شهير، تذهب إليه فى الثامنة مساء، وتعود منه فى السادسة صباحاً مرهقة منهكة، فتسقط فى نوم عميق، حتى الثالثة أو الرابعة ظهراً..

ثم أنها لم تعد تسجنه فى حجرته..

لقد أرسلته إلى مدرسة مجاورة، ليتعلم القراءة والكتابة، ويحصل على ما حرمت منه هى فى طفولتها... التعليم..

ولقد أقبل الصبى على التعليم بشغف حقيقى، وأقبل أكثر على دروس الموسيقى، التى أبدى فيها موهبة ملحوظة، فى العزف على البيانو، حتى أن المدرسة راحت تعتمد عليه فى حفلات نهاية العام، كطفل موهوب وعازف يكاد يتفوق على المحترفين..

ومع عامه العاشر، اتخذت أمه قرارها بالعودة إلى النمسا..

وهناك، تبدلت حياة الصبى أكثر وأكثر..

لقد اصطحبته أمه معها، فى الكازينو الذى التحقت بالعمل فيه، وقدمته لصاحبه كطفل عازف موهوب، يمكن أن يجذب انتباه الزبائن، ويضع بصمة مميزة للمكان.. وراقت الفكرة لصاحب الكازينو، فألحقها وابنه بالعمل، وأسند إليه مهمة العزف فى أثناء تقديم الطع[...] فى الفترة المسائية..

وكان هذا أسوأ ما أصاب الصبى، فى عمره كله..

صحيح أنه راح يمارس عملاً يحبه ويعشقه، إ[...] ولأول مرة فى حياته، كان يشاهد أمه، وهى تمارس ع[...] المبتذل، فى التسرية عن الزبائن، ومجالستهم، ومحاو[...] إغرائهم بطلب المزيد من الأطعمة، والمشروبات، لك[...] تحصل فى النهاية على عمولة جيدة منهم ساعدتها ع[...] استئجار شقة أنيقة والتوقف تماما عن أية ممارسا[...] أخرى.. ثم فجأة، برزت فكرة الهجرة إلى إسرائيل..

دون أية مقدمات، راحت أمه تتحدث عن السفر إل[...] إسرائيل، وكأنه حلم الأحلام، والأمل الوحيد فى مستقبل [...] راق سعيد..

ولأن (باراخ) كان عندئذ فى السادسة عشرة من عمر[...] وقلبه يخفق لأول مرة بحب جارته الشابة، فقد رفض فكر[...] الهجرة تماماً، وأصر على رفضها، وأصرت أمه على أ[...] مستقبلهما الوحيد هناك، ثم تحول الأمر بينهما إلى عنا[...] وصراع، حسمته الأم بموقف لم يتوقعه هو أبداً..

لقد تركته وحيداً فى النمسا، وهاجرت هى إل[...] إسرائيل..

وكانت أول مرة فى حياته، يكره فيها كلمة إسرائيل..

ولكن عناده دفعه إلى البقاء، والقتال وحده، فى سبي[...] العيش..

والعجيب أنه قد نجح فى هذا تماماً..

لقد ذاع صيته على نحو مدهش، وهو فى العشرين م[...] عمره، كعازف بيانو رومانسى بارع، يكفى أن تسمع [...] ألحانه، ليخفق قلبك بكل حب الدنيا..

وفى عام ١٩٦٤م، وفى عيد مولده الخامس والعشري[...] كان باراخ قد صار واحداً من أشهر عازفى البيانو، ف[...]

بقلم : **د. نبيل فاروق**

النمسا وسويسرا، التى لم ينقطع عاماً واحداً عن زيارتها، وقضاء بعض الوقت فى شوارعها الهادئة، التى لم يرها قط، طوال فترة نشأته فيها..

وفى تلك الفترة، وفى أثناء إحدى زياراته القصيرة، التقى باراخ برجل المخابرات المصرى (عاصم) فى جنيف..

الأوراق المتاحة كلها لم تشف عن الطبيعة الحقيقية لهذا اللقاء..هل كان لقاءً بمحض المصادفة، أم مقابلة متعمدة، رتبها وأعدها جهاز المخابرات العامة المصرى، بعد أن أعلن (زايون باراخ)، فى أكثر من مناسبة، عن كراهيته الشديدة لدولة إسرائيل، ورفضه التام - كفنان - لفكرة احتلال أراضى الغير بالقوة، مهما تكن الأسباب والمبررات؟!..

لا أحد يمكنه الجزم بهذا الأمر..

ولا أحد يمكنه أيضاً أن يفصح عن تفاصيل اللقاء..

أو عن الحوارات التى دارت خلاله..

ولكن الأمر الوحيد المؤكد، هو أن بذرة تجنيد (زايون باراخ)، للعمل لحساب المخابرات المصرية، قد وضعت خلال تلك المقابلة..

وبعد عام واحد من هذه المقابلة، تغير أسلوب (باراخ) تماماً..

لقد توقف تماماً عن إعلان كراهيته لدولة إسرائيل..

بل وتغير أسلوبه أيضاً فى التحدث عنها..

والعجيب أن هذا قد تواكب مع أمر جلل، كان كفيلاً بأن يضاعف كراهيته لكل شبر فى إسرائيل ألف مرة..

ففى إسرائيل، وفى أثناء عملها فى بار صغير، تشاجرت أمه مع أحد ضباط الجيش، الذى حاول مغازلتها بطريقة فجة، فصفعته على وجهه أمام الجميع، وطردته من المكان كله..

وعند انصرافها من البار، فى الثالثة صباحاً، أطلق الضابط المخمور عليها كل رصاصات مسدسه، وتركها قتيلة صريعة فى عرض الطريق، حتى تم نقلها إلى المشرحة، فى الخامسة والنصف صباحاً..

ولقد علم (باراخ) بالأمر، من خلال أحد معجبيه فى (حيفا) ، ولكنه لم يتحدث عنه قط، وإنما راح يوطد علاقاته بعدد من اليهود فى النمسا، وبالذات الأثرياء منهم، وبذوى السلطة والنفوذ..

وفى عام ١٩٦٧م، وبعد انتصار اليهود، واحتلالهم لكامل سيناء، والجولان، والضفة الغربية، تمت دعوة باراخ للعزف فى احتفالات النصر فى تل أبيب..

وكانت أول مرة يطأ فيها إسرائيل بقدميه، فى حياته كلها..

ولقد أخبر (عاصم) فيما بعد، أنه كاد يفرغ مافى معدته، فور وصوله إليها، فقد بدا له الهواء كله مشبعاً برائحة الدم والغدر والعار والخيانة، على نحو عافته نفسه تماماً، وجعله يقرر بذل المزيد والمزيد، فى سبيل ما يطلبه منه المصريون..

والواقع أن المصريين كانوا يطلبون الكثير والكثير، فى تلك الفترة، فقد كان عليهم، بعد نكسة يونيو، أن يعيدوا بناء الجيش، وتوحيد الصفوف، وأن يستعدوا فى الوقت ذاته لحرب ثأرية حتمية، لاستعادة الأرض السليبة، والكرامة المهدرة..

ولقد كان (باراخ) بالنسبة إليهم جاسوساً مثالياً..

لولا خلل واحد..

فعلى الرغم من عبقريته الفذة فى العزف والموسيقى، عجز (باراخ) تماما عن استيعاب كل أنواع الشفرة الحديثة، ورفض فى عناد الاستماع إلى كل من حاولوا تعليمه وتلقينه إياها..

ولكن المخابرات المصرية كانت تسعى لإرسال (باراخ) إلى اسرائيل، ليستقر فيها بعض الوقت، ويوطد علاقاته ببعض ذوى السلطة والنفوذ هناك، حتى يمكنه جمع كل مايحتاجونه من معلومات، مع اقتراب ساعة الصفر. لذا فقد كان من المحتم أن يتم البحث عن وسيلة جديدة لتبادل المعلومات، بدلاً من كل وسائل الشفرة التقليدية..

وسيلة تناسب (باراخ) بالذات..

وهنا، قفزت الفكرة فى رأس (عاصم)..

وبسرعة، طرحها على مائدة البحث، فى أول اجتماع محدود..

لماذا لا يتم ابتكار شفرة خاصة، ترتبط بالشىء الوحيد، الذى يمكن أن يحبه ويفهمه ويستوعبه (زايون باراخ)؟!..

الموسيقى..

ولقد لاقت الفكرة قبول الجميع على الفور، ولكنها طرحت السؤال التالى..

من يمكنه ابتكار شفرة كهذه..

وجاء الجواب أكثر بساطة ومباشرة، على لسان (عاصم) نفسه:

- إننا نحتاج إلى موسيقار، وخبير بالشفرة معاً.

ولساعة أخرى، راح الرجال يتحاورون، ويتجادلون، ويستعرضون عدداً محدوداً من الأسماء، قبل أن يستقر رأيهم على اسم واحد من أشهر ملحنى وموسيقيى العصر، للتعاون مع خبير الشفرة، لابتكار تلك الشفرة الموسيقية الجديدة..

ولقد أبدى الملحن الشهير تفهما وتعاوناً كاملين، بعد أن استمع إلى (عاصم) بوقاره ورصانته الشهيرين، ثم راح يلقى عشرات الأسئلة على خبير الشفرة، حول أساليب صنعها، وتكوينها، ووسائل التعامل معها..

وعلى الرغم من أن كل تلك المعلومات تندرج تحت بند السرية المطلقة، فقد أجابه عنها خبير الشفرة بمنتهى الوضوح والدقة، و(عاصم) يتابعهما فى صمت تام، وكله ثقة فى أن الموسيقار الشهير يدرك مدى سرية وخطورة الأمر، وأن لسانه لن يفصح عن حرف واحد مما سمعه، حتى لزوجته وأبنائه..

ومن المؤكد أن وجهة نظر (عاصم) - ومن خلفه المخابرات العامة المصرية كلها - كانت سليمة تماماً، إذ حافظ الموسيقار الكبير على السر حتى وفاته، دون أن يعلم به أحد قط، على الرغم من أنه قد قضى ثلاثة أشهر كاملة، مع خبير الشفرة، لوضع القواعد الأساسية لها، باستخدام النوتة الموسيقية، التى وصفها الموسيقار بأنها لغة عالمية، يمكن أن يفهمها أى دارس للموسيقى، فى أى مكان فى العالم..

ولقد أعلن (باراخ) عن ذهوله الحقيقى، عندما بدأ يتعلم تلك الشفرة الموسيقية، على يد الموسيقار الكبير..

لقد كانت شفرة بسيطة ومتقنة، وعبقرية بالفعل، ترتبط بمدخل ومخرج كل جملة موسيقية، بحيث تنقل كل المعلومات المطلوبة، دون أدنى خلل فى اللحن الأصلى..

وانبهر (باراخ) انبهاراً بلا حدود، مع استيعابه لتلك الشفرة، حتى أنه انحنى أمام الموسيقار الكبير، قائلاً فى احترام بلغ حده الأقصى:

- صدقنى ياسيدى.. مادام لمصر أبناء مثلك، فسيكتب لها النصر حتماً، مهما طال الزمن.

وابتسم الموسيقار الكبير، وأطلق ضحكته الرصينة الشهيرة، قبل أن يصافح (باراخ) مودعاً، ويوصيه بتذكر نهايات الجمل الموسيقية دائماً..

ومنذ ذلك الحين، بدأ (باراخ) يعمل بأسلوب جديد..

لقد ترك أعماله كلها، وسافر ليقيم فى تل أبيب، ويوطد علاقاته أكثر وأكثر برجال السلطة والسياسة والجيش فى إسرائيل، ويحصل على كل المعلومات الممكنة منهم، ثم يحولها إلى جمل موسيقية بسيطة، يضيفها بنظام مدروس إلى اللحن الأساسى، بحيث تبدو أشبه بتنويعات أو توزيعات جديدة، لا يمكن أن يفهمها، أو يدرك مغزاها الحقيقى، سوى رجال الشفرة فى المخابرات المصرية وحدها..

وهكذا نقل باراخ إلى المصريين الكثير من المعلومات، عن خط بارليف، ونظم الطيران، وتوزيع وحدات الجيش، والنظام الأمنى الداخلى، وغيرها وغيرها...

وفى الأول من أكتوبر ١٩٧٣م، كانت لدى (باراخ) معلومات بالغة الخطورة والسرية، تتعلق بالمخابرات الإسرائيلية، ومعلوماتها عن استعداد المصريين للقتال، حتى أن الأمر قد استدعى سفر (عاصم) بنفسه، ليلتقى به فى سويسرا، ويحصل على المعلومات..

وبعد أن انتهى لقاؤهما، وانطلق (باراخ) فى طريقه إلى حجرته، فوجىء أمامه بضابط من ضباط المخابرات الإسرائيلية يستوقفه، ويقدم له نفسه بأسلوب جاف، سقط له قلب الرجل بين قدميه، وتصور أن أمره قد انكشف، وأن الإسرائيليين قد أرسلوا من يلقى القبض عليه فى جنيف..

ولكن الإسرائيلى قدم له نفسه، وذكره بأنهما قد التقيا فى أحد حفلات الجيش، وأنه شديد الإعجاب به وبفنه وألحانه، ثم همس فى أذنه أنه هنا ليقوم بعمل خطير، وربما يقضى على أحد ضباط المخابرات المصرية، ودعاه لرؤية ماسيحدث بنفسه..

وفى هدوء مدهش، وافقه (باراخ) على الأمر، وعاد معه إلى صالة الفندق، وتجاهل (عاصم) تماماً، وكأنما لم يره من قبل قط، ثم اتجه إلى البيانو، وراح يعزف..

وبينما يدور الضابط الإسرائيلى ويناور لحصار (عاصم)، كانت أذنا هذا الأخير تلتقطان اللحن الذى يعزفه (باراخ).. وتفهمه..

كان لحناً تحذيرياً، يحمل عبارة واحدة، بالشفرة الموسيقية الجديدة..

«خطر.. غادر المكان على الفور..»..

واستوعب (عاصم) الأمر، وغادر المكان كله بأقصى سرعة، واستخدم كل حنكته وخبرته، للإفلات من الإسرائيلى الذى تبعه فى غضب عصبى، حتى اختفى منه، وسط شوارع جنيف، واندلعت حرب أكتوبر ١٩٧٣م..

واندحر الإسرائيليون، على نحو رد إلينا كرامتنا، ومهد الطريق أمام استعادة الأرض السليبة..

وبعد النصر، وإيقاف إطلاق النار، التقى (باراخ) بعدد من رجال المخابرات المصرية فى أوروبا، وقرر أن يقدم لهم لحناً خاصاً من تأليفه..

وعندما بدأ العزف، ومع اللحن الناعم المنساب، اتسعت ابتسامة (عاصم)، وبادله (باراخ) الابتسام..

فكلاهما فقط، أدرك الشفرة فى اللحن الجديد..

الشفرة التى حملت عبارة واحدة..

«مبروك النصر»..

وكان هذا آخر ألحان (زايون باراخ)..

تحت علم مصر

عشرة على عشرة!

لم تكن عقارب الساعة قد بلغت الثامنة بعد، فى صباح ذلك اليوم، من أيام يناير ١٩٧٣م، عندما توقفت تلك السيارة الأمريكية الصغيرة، فى ساحة الانتظار الخارجية المحدودة، أمام مبنى المخابرات الإسرائيلية فى (تل أبيب)، وغادرها ذلك الرجل الطويل القامة، أصلع الرأس، الذى يرتسم الاضطراب والتوتر على كل ذرة من كيانه، وهو يتطلع إلى بوابة المبنى، وطاقم الحراسة صارم الملامح أمامه، فى عصبية ملحوظة، جعلت رئيس الطاقم يراقبه فى حذر، ويده تتحسس مسدسه المستقر فى غمده، وهو يحاول دراسة الرجل، وتحديد هويته، خاصة عندما تغلب أخيرا على تردده، واتجه بعصبيته الملحوظة نحو المبنى، ليسأل فى خفوت مستفز :

- هل .. هل يمكننى مقابلة أحد المسئولين هنا؟!

اضطر الرجل لتكرير سؤاله مرتين، قبل أن يرتفع صوته إلى الدرجة الكافية، لتستقبلها آذان رجال الحراسة، فرمقه قائدهم بنظرة صارمة، وهو يمد يده إليه، قائلا :

- هويتك من فضلك .

كانت الهوية تشير إلى أن الرجل موظف بسيط، فى مركز المعلومات العسكرية الإسرائيلى، يدعى (إبراهام مزراحى)، وأنه يقيم فى حى متواضع من أحياء (تل أبيب)..

وكإجراء طبيعى سأل قائد طاقم الحراسة الرجل عن السبب الذى يرغب من أجله فى مقابلة أحد المسئولين، إلا أن الرجل اضطرب أكثر، وغمره العرق على نحو غير طبيعى، وأصر على ألا ينطق بحرف واحد، إلا أمام أحد المسئولين .

ولأن هذه الأمور تتبع قواعد خاصة ومعتادة، فى معظم أجهزة المخابرات العالمية، فقد قام طاقم الحراسة بتفتيش الرجل جيدا، والتأكد من أنه لايحمل أى أسلحة، أو أجهزة تنصت، ثم اصطحبه أحد رجال الحراسة إلى قاعة صغيرة، فى الطابق الأرضى من مبنى خاص، وطلب منه الانتظار ..

ولقد طال الانتظار لثلاث وعشرين دقيقة كاملة، بدا من الواضح، للذين يراقبون المكان خفية، أن أعصاب الرجل قد التهبت خلالها تماما، فقد غادر مقعده أكثر من سبع مرات، وفرك أصابع كفيه مايقرب من مائة مرة، وتلفت حوله عددا لاحصر له من المرات، قبل أن يدلف ضابط المخابرات الإسرائيلى (شمعون) إلى القاعة، قائلا فى شىء من البرود والصرامة :

- سمعت أنك تطلب مقابلة أحد المسئولين هنا.

أومأ (مزراحى) برأسه إيجابا فى عصبية، وازدرد لعابه على نحو ملحوظ، وهو يجيب بنفس الخفوت المضطرب :

- أأنت أحد المسئولين هنا ؟!

جلس (شمعون) خلف المكتب الوحيد بالقاعة، وكأنما يجيب بالإيجاب، وألقى الملف الصغير الذى يحمله على سطح المكتب، وهو يتطلع إلى عينى (مزراحى) مباشرة، قائلا :

- اسمك (إبراهام داود مزراحى) .. مهاجر مصرى، منذ عام ١٩٦٥م، تعمل فى قسم الحسابات ، بإدارة المعلومات العسكرية .. ليست لك أى أنشطة سياسية أو دينية .. أعزب .. لاتدخن ولا تشرب الخمر، ولكنك تشكو دائما من تجاهلك فى الترقيات، وتدعى أن هذا يعود إلى أنك أحد اليهود الشرقيين (السفرديم) .

ارتبك إبراهام مزراحى، وهو يقول :

- إننى لم أقصد هذا فى الواقع، وإنما ..

قاطعه (شمعون) بإشارة صارمة من يده، وهو يقول :

- ليست هذه قضيتنا الآن .

ثم مال نحوه، مستطردا بود مباغت :

- لماذا طلبت مقابلتى ؟!

اتسعت عينا (مزراحى) ، وكأنما أدهشه هذا التحول المباغت، ثم لم يلبث أن جلس فى حذر، وتلفت حوله بخوف غير مفهوم، وازدرد لعابه على نفس النحو الملحوظ، قبل أن يميل نحو (شمعون)، قائلا بصوت أشبه بالهمس :

- المصريون يحاولون تجنيدى .

اخترق القول كيان (شمعون) كرصاصة مباغتة، فانتفض جسده انتفاضة مفاجئة محدودة، وهو يتراجع فى مقعده، ويحدق فى (مزراحى) بدهشة .. فمن المؤكد أنه لم يكن يتوقع شيئا كهذا قط .. ولاحتى مايقترب منه ..

لذا ، فقد مرت لحظات من الصمت، وهو يحدق فى (مزراحى)، قبل أن يتنحنح فى قوة، ليطرد عنه دهشته، ويعود للاعتدال فى مقعده، قائلا :

- ماالذى تعنيه بالضبط ؟!

ازدرد (مزراحى) لعابه مرة أخرى، وأجاب فى اضطراب :

- لقد تعرفت على شاب، يعمل فى الجيش الإسرائيلى فى أثناء سهرة قضيتها فى ملهى صغير، وكان شديد الكرم والسخاء معى، حتى إننى ارتبطت معه بعلاقة صداقة قوية، وأدمنت كرمه البالغ، وأسلوبه العذب ، و ... والنقود التى يقرضنى إياها دون حساب .. ثم .. ثم ..

ازدرد لعابه مرة أخرى، قبل أن يقول ، فى شىء من الحدة :

- ثم اختفى فجأة .

التقى حاجبا (شمعون) فى اهتمام، وارتكز بذقنه على قبضته المضمومة ، وهو يستمع إلى (مزراحى) فى انتباه تام، وقد أدرك ، بحكم خبرته، الجزء التالى من القصة حتى قبل أن يواصل الرجل:

- فى البداية ، تصورت أنه فى عمل ما، ثم طال غيابه، فجن جنونى، ورحت أبحث عنه فى استماتة، وعندما تملكنى اليأس من العثور عليه، خاصة أننى أجهل اسمه الكامل أو عنوانه.. فوجئت به يظهر بغتة .

لم يقاطعه (شمعون) بحرف واحد، وإن راح عقله يرتب الأحداث، التى بدت له واضحة للغاية، وهو يواصل استماعه بنفس الانتباه، و (مزراحى) يتابع :

- ثم عرض علىّ فكرة العمل معه، فى منظمة للسلام، تهتم بالحصول على معلومات عسكرية، عن كل دول المواجهة فى المنطقة، كمحاولة للحيلولة دون اندلاع حرب أخرى ..

مط (شمعون) شفتيه، مغمغما :

- أسلوب نمطى للغاية !

لم يبد على (مزراحى) أنه قد فهم مايعنيه ضابط المخابرات الإسرائيلى، الذى أشار إليه فى اهتمام ، قائلا :

- أكمل يارجل .. أكمل .

ازدرد (مزراحى) لعابه للمرة الألف، قبل أن يجيب :

- وعندما طلبت مهلة للتفكير، أخبرنى أننى سأحصل على راتب يسيل له اللعاب، بالإضافة إلى مكافأة عن كل معلومة جيدة .. والواقع أن الرقم الذى ذكره كاد يدير رأسى، لولا أن أدركت أن الجهة الوحيدة التى يهمها الحصول على معلومات عسكرية عن (إسرائيل) فى الوقت الحالى، هى (مصر) .. أليس كذلك ؟! .. هل كنت على حق ياسيدى ؟!.. سيدى .. لقد فعلت الصواب .. أليس كذلك ؟!

أومأ (شمعون) برأسه إيجابا، وقال :

- بالتأكيد .

ثم نهض من خلف مكتبه، وناول (مزراحى) رزمة من الأوراق البيضاء، وهو يقول فى جدية واهتمام:

- كل المطلوب منك الآن أن تدون كل ماقلته الآن فى هذه الأوراق، ثم تحتفظ بكل مادار بيننا سرا، حتى نستدعيك مرة أخرى .. هل تفهم ؟

التقط (مزراحى) الورق والقلم، وهو يقول فى حزم :

- بالتأكيد ياسيدى .. بالتأكيد .

وقبل أن تدق الساعة، معلنة منتصف النهار ، كان هناك اجتماع مغلق، فى إحدى قاعات مبنى المخابرات الإسرائيلية، لدراسة الموقف كله بكل دقة..

كان من الواضح أن القصة حقيقية تماما، خاصة أن موقع (مزراحى) فى الحسابات، يتيح له معرفة الكثير عن المصروفات العسكرية، وأثمان الذخائر، ومرتبات الجنود والضباط، ومكافاتهم.. مما قد يعنى الكثير، بالنسبة لجهاز المخابرات المصرى ..

ودامت مناقشة الأمر مايقرب من ساعات خمس، اتخذ الإسرائيليون بعدها قرارا بإطلاق كل عيونهم خلف الأمر، لاستكمال كل المعلومات المطلوبة ..

وكإجراء أول طلب (شمعون) من (مزراحى) أن يعلن الشاب موافقته على العمل لحساب تلك المنظمة الوهمية، حتى يمكن الإيقاع به تماما ..

وخلال أسبوع واحد ، جاءت المعلومات لتؤكد مدى صحة الأمر وخطورته ..

فذلك الشاب (دافيد) شاب عابث مستهتر، ينفق أكثر مما يربح بكثير، ويسافر خارج (إسرائيل) أربع أو خمس مرات فى العام، مما يوحى بأنه يعمل بالفعل لحساب جهة ما ، كما أنه يمتلك جهاز استقبال راديوى فائق التردد، ربما يستخدم لاستقبال الرسائل والمعلومات لاسلكيا من (مصر) أو (سوريا) ..

وفى البداية، وضع الرجال اقتراحين : إما أن يتم إلقاء القبض على (دافيد) مباشرة، بعد الحصول على مايدل على عمله لحساب المصريين، أو أن يتم تجنيد (مزراحى) للعمل كجاسوس مزدوج، بحيث

بقلم : **د. نبيل فاروق**

يعلم ما الذى يسعى إليه المصريون، ويتظاهر بتسليمهم كل المعلومات الحسابية العسكرية المطلوبة ..

ولقد رجحت كفة الاقتراح الثانى بسرعة، خاصة أنه فى عالم المخابرات ، يمكنك أن تعلم الكثير عن خصمك ونياته، بمعرفة ماالذى يسعى هو معرفته عنك ..

وهكذا، صدر القرار بالإجماع ..

سيعمل (مزراحى) كجاسوس مزدوج ، لتحديد هدف المصريين، واستخلاص نياتهم العسكرية بالتبعية ..

وبناء على هذا القرار، بدأت الخطة الإسرائيلية تتخذ مسارها الجاد ..

وبدأ مزراحى) يعمل لحساب المصريين، من خلال (دافيد)، الذى ينقل إليه طلبات وأوامر (القاهرة) ، ويحصل على جميع المعلومات ، ليرسلها إلى (القاهرة) بأسرع وسيلة ممكنة ..

كل هذا تحت سمع الإسرائيليين وبصرهم ..

وتوجيهاتهم أيضا ..

وكان الأمر ناجحا للغاية، من وجهة نظر الإسرائيليين ..

فقد تطورت طلبات المصريين وأوامرهم، على نحو يوحى بأنهم قد ضاعفوا من ثقتهم فى (مزراحى)، وفى أهمية مايحصلون عليه من معلومات..

وهذا يعنى بالطبع النجاح..

النجاح التام للجانب الإسرائيلى، الذى صار أكثر ثقة بدوره فى الجاسوس المزدوج، خاصة أن تحرياتهم عنه أكدت أنه إسرائيلى مخلص، ولا غبار عليه البتة ..

وفى أبريل ١٩٧٣م، بدا (مزراحى) شديد التوتر والقلق، وهو يلتقى بالضابط (شمعون) قائلا فى اضطراب :

- المصريون يريدون مقابلتى فى (روما).

تألقت عينا (شمعون)، وهو يهتف :

- عظيم .. عظيم..

صاح (مزراحى):

- ماذا لو أنهم يريدون قتلى هناك، بعد أن كشفوا أمرى؟!

قهقه (شمعون) ضاحكا، وهو يقول:

- قتلك ؟! .. ألق عن رأسك هذه الأفكار السخيفة يارجل .. المصريون يريدونك فى (روما) ، لأنهم يرغبون فى تطوير أدائك ، وتلقينك أموراً جديدة .. باختصار .. إنها دورة تدريبية يا هذا .. دورة تعنى أنك ناجح إلى أقصى حد .

ولقد تأكد (شمعون) من أنه ضابط مخابرات محنك، لايشق له غبار، عندما عاد (مزراحى) من (روما) ، ليخبره أنها كانت دورة تدريبية بالفعل، لقنه المصريون خلالها كيفية استخدام الحبر السرى، وإرسال رسائل الشفرة، مع بعض أساليب الدفاع عن النفس، والتعامل مع البيئة ..

واجتمع الإسرائيليون مرة أخرى، لست ساعات كاملة، لمناقشة الموقف الأخير، وإعادة تقويم موقف (مزراحى) وفائدته ..

ولقد انتهى الاجتماع بضرورة الاستمرار فى خطة الجاسوسية المزدوجة، واستغلال عمل (مزراحى) مع المصريين إلى أقصى حد ممكن ..

وقد كان! ..

ومع وضع (دافيد) تحت مراقبة مشددة، استمر (مزراحى) فى العمل معه، وفى تلقى طلبات وتعليمات وأوامر المصريين، وإبلاغها للإسرائيليين، ثم نقل كل مايسلمه إياه الإسرائيليون من معلومات، إلى الجانب المصرى ..

ولقد تم اطلاع رئيس الوزراء الإسرائيلى على تلك العملية، فلم يتمالك نفسه من رغبة مصافحة رئيس المخابرات الإسرائيلى بكل حرارة وحماس ، قائلا :

- ضربة معلم يارجل .. إنكم تستحقون عشرة على عشرة فى تلك العملية، التى سحقتم بها المصريين سحقا .

وانتفخت أوداج الإسرائيليين، وقرروا مواصلة عمليتهم الكبرى، التى اعتبروها أبرع لعبة خداع قاموا بها، فى صراعهم الدائم مع المصريين ..

وطوال الوقت، كان خبراؤهم يقومون بتحليل طلبات المصريين، ومايسعون للحصول عليه من معلومات، لتحديد نياتهم واتجاهاتهم، فى تلك المرحلة الحاسمة ..:

وفى منتصف سبتمبر ١٩٧٣م، قال (مزراحى) للضابط (شمعون) :

- المصريون يريدوننى مرة أخرى .. ولكن فى (باريس)..

ابتسم (شمعون) ابتسامة كبيرة ، ولوح بكفه فى ثقة، قائلا :

- مرحى يارجل .. من الواضح أنك تقوم بدورك جيدا، فها هم أولاء يسعون لتدريبك على مهارات أكثر تطورا ..

غمغم (مزراحى) بلا حماس :

- نعم..أعتقد هذا.

وفى الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣م سافر (إبراهام مزراحى) إلى (باريس) بمعرفة رجال المخابرات الإسرائيلية؛ ليتلقى دورته التدريبية الجديدة، على يد المصريين ..

ولقد سعى الإسرائيليون لمراقبة (مزراحى) وحراسته فى (باريس) ، كما فعلوا فى رحلته السابقة إلى (روما) ، وفى الوقت نفسه واصلوا مراقبتهم المكثفة للشاب (دافيد) الذى بدا هادئا مسترخيا واثقا، على نحو يوحى بأنه لم يخطر بباله لحظة واحدة أنه مراقب ..

وسار كل شىء على مايرام ، حتى مساء الخميس الرابع من أكتوبر ١٩٧٣م ..

ففجأة، ودون مقدمات، اختفى (مزراحى) فى قلب (باريس) ..

وفى الوقت نفسه - تقريبا - اختفى (دافيد) فى قلب (تل أبيب) !..

وكانت مفاجأة مفزعة للإسرائيليين، الذين جن جنونهم، وراحوا ينبشون كل شبر من (باريس) و (تل أبيب)، للعثور على الرجلين ..

وفى غمرة انهماكهم، هوى خبر عبور المصريين لقناة السويس ، واقتحامهم لخط (بارليف) على رءوسهم كالصاعقة، خاصة أن آخر تحليل للخبراء، عن كل مايطلب المصريون معرفته، من خلال (مزراحى) ، كان يؤكد أنهم لايفكرون فى شن أية حروب ، فى الوقت الحالى..

وبينما كان الإسرائيليون يضربون أخماسا فى أسداس، فى محاولة لفهم ماحدث ، كان (ا.ص) رجل المخابرات المصرى العبقرى، يستقبل (دافيد) و (مزراحى) فى مكتبه، فى مكان يتبع المخابرات المصرية ، فى قلب (القاهرة)، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، قائلا :

- مرحبا بالبطلين .. حمداً لله على عودتك للوطن يا (إبراهيم) ، وأنت يا (وحيد) ..

صافحه (إبراهيم)، وهو يتنهد فى ارتياح، قائلا:

- أخيرا .. كم يسعدنى سماع اسمى الحقيقى، بعد السنوات الطوال، التى عشتها فى (تل أبيب)، باسم (إبراهام مزراحى) .

وضحك (وحيد) وهو يقول :

- الواقع أنها كانت خطة جريئة للغاية ياسيدى .. لقد كنت أخشى طوال الوقت أن ينقض الإسرائيليون علىَّ فى أية لحظة، بتهمة التجسس .

ابتسم (ا.ص) وهز رأسه، قائلا :

- لو أنك وضعت نفسك فى موضعهم، وفكرت بأسلوبهم، ودرست الأمور من وجهة نظرهم، لوجدت أنه من المستحيل أن يلقوا القبض عليك مباشرة، لتضيع منهم فرصة معرفة نياتنا، عن طريق جاسوس مزدوج .

ثم تحولت ابتسامته إلى ضحكة قصيرة، قبل أن يتابع :

- ولأن الفكرة جديدة للغاية، ولأننا كنا واثقين من قوة الغطاء، الذى صنعناه لزرع (إبراهيم) فى المجتمع الإسرائيلى، فقد تعاملوا بالفعل مع جاسوس مزدوج، ولكنه يعمل لحسابنا، ولحساب الوطن الذى ينتمى إليه بالفعل.. وبوساطته، أمكننا أن نقوم بدور مهم فى خطة الخداع الكبرى، التى أوهمت الإسرائيليين بأننا لانفكر قط فى شن أية حروب ، فى الوقت الحالى.

هتف وحيد :

- خطة عبقرية بالفعل ياسيدى !

ولوح (إبراهيم) بيده، قائلا :

- الواقع أن المخابرات المصرية تستحق عنها درجة مرتفعة ..

هتف (وحيد) فى حماس :

- بل الدرجة النهائية .. عشرة على عشرة يارجل!.

والتمعت عيون ثلاثتهم فى آن واحد، ووجوههم تحمل ابتسامة خاصة جدا ..

ابتسامة نصر.

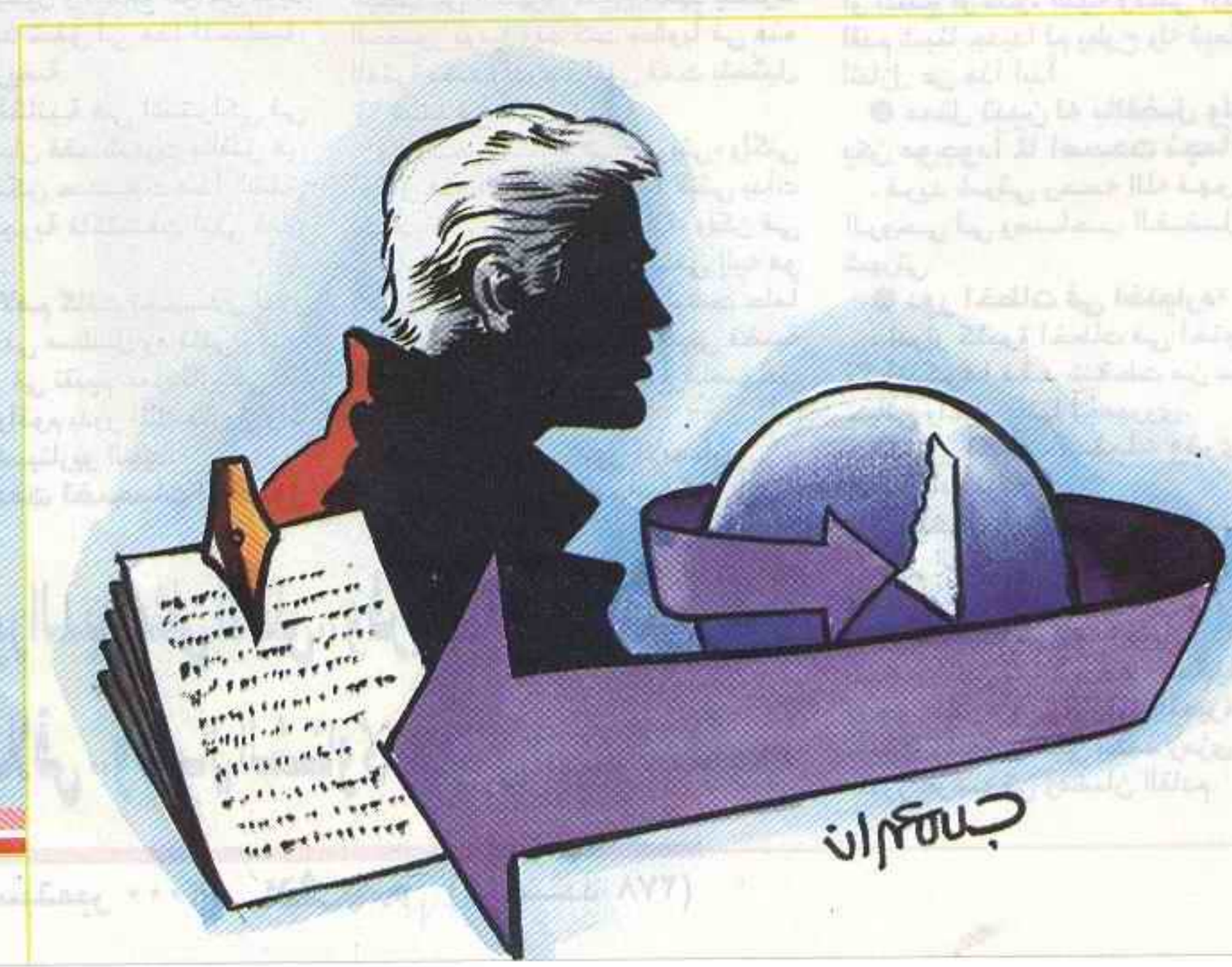

صفحات من تاريخ الجاسوسية

جاسوس.. بالتفصيل!

لم يكد رجل المخابرات المصرى (ن.ط) يصل إلى مبنى المخابرات فى (كوبرى القبة)، فى ذلك الصباح المبكر، من يناير ١٩٧٣، حتى أدرك على الفور أن الأمور كلها لاتسير على النمط المعتاد، خاصة عندما علم أن مدير الجهاز بنفسه يطلب رؤيته فور وصوله إلى المبنى، مما يوحى ببشائر عملية جديدة، أو بتطورات غير متوقعة فى عملية سارية، من العمليات التمهيدية للحرب الثأرية، التى ينتظرها ويتمناها كل مصرى وعربى، منذ نكسة يونيو ١٩٦٧م...

ولأن (ن.ط) رجل مخابرات محترف، له باع طويل فى الصراع العربى - الإسرائيلى، فقد جمع كل أوراقه وملفات العمليات التى يتابعها، وذهب بحمله كله إلى مكتب المدير، استعداداً لأية معلومات مطلوبة..

ولكن الأمر لم يكن يرتبط بأية عمليات سابقة..

لقد استقبله المدير فى اهتمام، ودعاه للجلوس، ثم مال نحوه، قائلاً فى حزم:

الرئيس يطلب معلومات دقيقة للغاية، حول خط (بارليف)، واستعدادات الإسرائيليين لأى هجوم (مصرى).

لم يكن ذلك المطلب جديداً؛ فالكل يسعى بكل طاقته، منذ إنشاء خط (بارليف)، لجمع كل وأدق المعلومات عنه، باعتباره أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ، وأصعب مانع عسكرى، عرفته كل الحروب، فى كل الأزمان..

ولكن أسلوب المدير كان يوحى بأن المطلوب أكثر أهمية.. وأكثر خطورة بكثير، لذا فقد اعتدل (ن.ط) فى مجلسه، وجلس يستمع إلى المدير فى اهتمام بالغ، وهو يتابع:

- الإسرائيليون أسندوا كل مايتعلق بتأمين ومتابعة خط (بارليف) إلى الجنرال (إيزاك هركابى)، وهو رجل شديد الحرص والدقة، يشك فى أصابع كفيه، ولايمنح ثقته إلى أى مخلوق، وهو يدير كل الأمور بنفسه، ويتخذ كل قراراته دون الرجوع للآخرين، ثم إنه أعزب، بلا أصدقاء تقريباً، ولايدخن، ولا يشرب الخمر، ولا يلعب القمار، ولايبدى حتى اهتماماً بالنساء..اهتمامه الوحيد بعمله وحده، ويقدم تقاريره إلى وزير الدفاع الإسرائيلى شخصياً..

التقى حاجبا (ن.ط)، وهو يغمغم:

وكيف يمكن انتزاع المعلومات من رجل كهذا؟!

تراجع المدير فى مقعده، وهو يقول بمنتهى الحزم والصرامة:

- هذه مهمتك!

جاء دور (ن.ط) لينعقد حاجباه فى شدة، والمدير يتابع:

الرياسة ترى أن المعلومات الدقيقة المطلوبة لايمكن الحصول عليها، إلا من الجنرال (هركابى) نفسه، وعليك أن تنتخب معاونيك، وتجد معهم وسيلة لبلوغ هذا الغرض.

ثم اعتدل فى مجلسه، مضيفاً بمنتهى الحزم:

وبأى ثمن!

لم يعد هناك مايقال بعد هذا، وبعد أن تلقّى (ن.ط) أوامره، وعرف مهمته، وانتقلت الكرة إلى ملعبه، وصار عليه أن يسعى لتنفيذ المطلوب..

وبأى ثمن..

وطوال الأسبوعين التاليين، راح (ن.ط) ومجموعته يفحصون ملف الجنرال (هركابى) بدقة لامثيل لها، وصبر وتأنٍّ لاحدود لهما..

لقد راجعوا كل معلومة، وكل جملة، وكل كلمة..

بل وكل حرف!

كانوا يجتمعون كل صباح، ويفحصون كل عادات وأساليب وطبائع الجنرال (هركابى)، من قهوة الصباح، التى يتناولها بدون سكر، إلى روايات الجاسوسية التى يطالع صفحاتها يومياً قبل النوم..

عرفوا كل شئ عن ذوقه الشخصى.. اهتماماته السياسية..ميولة الاجتماعية..كل شئ..

ولكنه كان كما وصفه المدير تماماً..رجل بلا نقطة ضعف يمكن بلوغه من خلالها..

ولكن (ن.ط) كان يعلم، بحكم خبرته وتجاربه، وكل ماتعلمه فى المخابرات العامة، أنه مامن شخص منيع تماماً؛ لأننا جميعاً بشر، والكمال لله وحده..

لكل مخلوق فى الكون نقطة ضعف، قد تبدو واضحة للأعين، أو تختفى فى أعماقه، أو تكمن حتى فيما يتصوره علامة قوة وتميز..

ولكن مع (إيزاك هركابى) ..أعيته الحيلة بالفعل لأسبوعين كاملين، أصابه الإرهاق خلالهما، كما أصاب مجموعته، حتى إن أحدهم قد تثاءب ذات ليلة فى تهالك، وحاول أن يبتسم، وهو يقول:

- يبدو أننا قد اخترنا المهنة الخطأ يارفاق..فلو أننا عملنا فى وظائف مدنية، أو حتى عسكرية عادية، لكان أقصى مايشغل بالنا الآن هو أن نذهب إلى العمل باكرا بزى نظيف، وحذاء لامع جديد..

ضحك زملاؤه فى خفوت مرهق، وتبادلوا معه بعض التعليقات الطريفة..فيما عدا (ن.ط)..

وحده انعقد حاجباه فى شدة، واستغرق فى تفكير عميق، مع دعابة زميله..

تفكير استغرق كيانه كله، وشغف به جزء من عقله..

ثم فجأة، وكما فعل (أرشميدس)!، وجد نفسه يعتدل (فى مجلسه)، ويهتف بكل اللهفة والفرح والحماس:

- وجدتها!:

استدار إليه الجميع، واشتعلت فى عيونهم لهفة متسائلة، قال بنفس الحماس، وهو يلوح بيديه فى قوة:

- وجدت نقطةالضعف، التى يمكننا التسلّل عبرها إلى الجنرال الأسطورى (إيزاك هركابى)!

ولساعة كاملة، راح (ن.ط) يشرح خطته، التى انبهر بها الجميع، ثم راحوا بعدها يناقشونها بكل اهتمام لثلاث ساعات أخرى، قبل أن يتفق الكل، ويصدر الأمر ببدء التنفيذ فوراً..

ولم يمض أسبوع واحد، على ذلك الاجتماع الحاسم، حتى وصلت برقية من (جنوه) فى (إيطاليا) إلى (دافيد سولومون)، صاحب متجر الملابس الشهير فى (تل أبيب)، تخبره أن جده لأبيه، ذلك الترزى الشهير، قد توفى فجأة، وترك له ثروته كلها وعليه الحضور فوراً لاستلام ميراثه، وكل متعلقاته..

يومها، بكى (دافيد) بشدة، حتى إنه أثار شفقه وتعاطف كل زبائنه، وأصحاب المتاجر المحيطة به، وتلقى منهم العزاء، قبل أن يحمل حقيبته، ويسافر إلى (جنوه) ليتسلم ميراثه الذى قدره البعض بمليون دولار على الأقل..

وفى (إيطاليا)، التقى (دافيد) بمحامى الأسرة، الذى مال نحوه، وهمس فى أذنه، وهما بعد فى المطار:

- الرجال ينتظرونك فى الموقع (واى).. إنها مرحلة تدريب جديدة.

وعلى الفور، انطلق (دافيد) إلى ذلك المنزل الأمنى، الذى حدده له المحامى، ولم يكد يبلغه، حتى استقبله (ن.ط) بنفسه، وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، قائلاً:

- حمداً لله على سلامتك يا(سليمان).. أتعشم ألا تكون قد نسيت اللغة العربية، بعد السنوات التى قضيتها فى (إسرائيل)!

تعانقا فى حرارة شديدة، وبدا (سليمان) جم السعادة، وهو يلتقى برجال المخابرات المصرية، بعد سنوات طوال، اقتصرت فيها تعاملاتهم على الرسائل المكتوبة بالحبر السرى، أو البث اللاسلكى المشفّر..

كان يتوقع بالفعل أن يتلقى دورة تدريبية جديدة، خاصة أن آخر تدريباته كانت فى عام ١٩٦٨م، بعد أن استقربه المقام فى (تل أبيب)، وذاب وسط مجتمع المهاجرين اليهود الجدد، حاملاً تلك الهوية، التى أبدع رجال المخابرات فى إعدادها وتدريبه عليها، كيهودى من أم يهودية وأب ينتمى إلى أسرة إيطالية عريقة..

ومنذ ذلك الحين، اقتصرت مهمته على غرس جذوره فى أعماق المجتمع الإسرائيلى، وتعميق وجوده وانتماءاته، حتى يصير واحداً منهم، ولايتطرق إليه الشك قط..

وهذا مانجح فيه بالفعل، على الرغم من المعلومات الغزيرة التى راح ينقلها إلى (القاهرة)، طوال العامين السابقين بلا انقطاع..

ولكن (ن.ط) فاجأه بشدة، عندما أخبره عن طبيعة تلك الدورة التدريبية المكثفة، التى سيتلقاها لمدة شهر كامل، فى (جنوه)الإيطالية..

فلقد تم استدعاء (سليمان)، أو (دافيد سولومون)، من (تل أبيب) إلى (جنوة) حتى يتم تدريبه على التفصيل.. وتفصيل الأزياء العسكرية بالتحديد!

كان هذا تطوراً طبيعياً فى تلك الفترة لتاجر

بقلم : **د. نبيل فاروق**

ملابس، ورث عن جده ثروته وموهبته وخبرته، وعاد لإنشاء تجارة جديدة،تدرعليه المزيد من الربح ..كأى يهودى ..

ولهذا..لم يندهش رفاق (دافيد) أو زملاء عمله كثيراً، عندما بدأ فى إنشاء الأتيليه الخاص به، لبدء نشاطه الجديد..

وفى أبريل ١٩٧٣، بدأت شهرة (دافيد سولومون) فى الانتشار فى مجتمع (تل أبيب)، وصار من الطبيعى أن يسعى إليه كبار وعلية القوم، لتفصيل ملابسهم وأزيائهم التى تبهر الكل، بدقتها وأناقتها، وحسن تنفيذها وحياكتها..

وأمام الكل، كان (دافيد) هو الذى يؤدى العمل كله بنفسه، لكنه فى الواقع كان يستعين بثلاثة من المحترفين، لتنفيذ العمل فى أسرع وقت ممكن، تحت إشرافه شخصياً لضمان الجودة المطلوبة، التى تصنع سمعته وشهرته..

وفى أوائل يوليو ١٩٧٣م، وبتدبير من المخابرات المصرية، أضيف اسم (دافيد سولومون) إلى قائمة مورِّدى أزياء الجيش الإسرائيلى، بعد أن أجرى جهاز المخابرات الحربية (أمان) كل التحريات اللازمة بشأنه..

وفى (القاهرة)، استرخى (ن.ط) على مقعده عندما بلغه الخبر، واتسعت ابتسامته الظافرة الواثقة، وهو يقول:

- عظيم..بقى أن ندفع الجنرال (هركابى) نحوه.

سأله أحد أفراد مجموعته فى اهتمام:

- هل تعتقد أن هذا ممكن؟!

لوح (ن.ط) بكفه، مجيباً:

- أناقة الجنرال (هركابى)، واهتمامه البالغ بأزيائه، هى نقطة الضعف الكبرى فى شخصيته، فهو حريص دائماً على أن يكون الأفضل، فى كل جزئية من جزئيات حياته، ولن يمكنه أن يقاوم ألا يقوم بتفصيل أزياءه أفضل ترزى فى (تل أبيب) كلها.

ثم هز كتفيه، واتسعت ابتسامته، وهو يضيف:

- ولاتنس أننا سندفعه إلى هذا بأسلوبنا الخاص!

لم يخبرنا أحد قط كيف دفعت المخابرات المصرية(هركابى) نحو(دافيد)، ولا كيف أغرته بالتعامل مع نصف الإيطالى، كما سموه هناك..

ولكنه فعلها!..فذات يوم، فى منتصف أغسطس ١٩٧٣م، تلقى (دافيد سولومون) دعوة لزيارة الجنرال (هركابى) فى مكتبه الخاص، فى وزارة الدفاع..

وبعد المرور بكل إجراءات الأمن الشاقة، التى أضاف إليها (هركابى) إضافات جديدة أكثر تعقيداً، التقى (دافيد) بالجنرال الأسطورى، الذى استقبله ببرود شديد، ولم يدعه إلى الجلوس، وإنماراح يرمقه بالف نظرة ونظرة، وكأنما يختبر كل خلجة من خلجاته، قبل أن يقول فى صرامة شديدة، بدت وكأنها جزء من تكوينه الشخصى:

- يقولون إنك أفضل «ترزى» عسكرى فى (إسرائيل) كلها!

ابتسم (دافيد)، وهو يقول:

- الواقع أنهم يبالغون كثيراً..

قاطعه الجنرال بزمجرة شرسة، وهو يقول:

- إننى أكره التواضع.

ثم نهض من خلف مكتبه فى حدة، متابعاً بنفس الصرامة الشرسة:

لقد جمعت كل المعلومات اللازمة عنك ، عرفت أنك مسجَّل كمورِّد للأزياء العسكرية هنا، وأنك الأفضل..

وشد قامته، وانعقد حاجباه أكثر وأكثر.. مضيفاً بكل صرامة الدنيا

وأنا لا أتعامل إلا مع الأفضل.

رقص قلب (دافيد) بين ضلوعه، وهو يقول بكل الحماس:

- أنا رهن إشارتك ياجنرال.

مط الجنرال شفتيه، وكأنما لايرضيه أى شئ فى الدنيا، وعاد يجلس خلف مكتبه، قائلاً فى عصبية واضحة:

- أنت تعلم أننى أحد أبطال حرب ١٩٦٧، وأننى قد حصلت على وسام الشجاعة بعد إصابتى بشظية فى كتفى الأيسر.. وهذه الإصابة هى السبب فيما تراه، من عدم تماثل الكتفين، ومن هبوط مستوى أحدهما عن الآخر.. لقد لجأت إلى أكثر من ترزى عسكرى، لتفصيل سترة تخفى هذا العيب، ولكن أحدهم لم يفلح فى هذا قط..

والسؤال هو.. هل يمكن أن تفلح أنت، فيما فشل فيه الآخرون؟!.

صمت (دافيد) بضع لحظات، وهو يتأمل ذلك العيب، الذى أخبره به (ن.ط) فى (جنوه)، وتصاعد فى أعماقه الانبهار ببراعة وقدرات المخابرات المصرية، قبل أن يبتسم، قائلاً بكل الثقة والهدوء:

- بالتأكيد ياجنرال..بال تأكيد.

رمقه الجنرال بنظرة أخرى أكثر صرامة، قبل أن يقول فى غلظة:

- سنرى..

وبمنتهى الدقة والاهتمام، راح (دافيد) يسجل مقاييس سترة الجنرال (هركابى) العسكرية، ودرجة الميل بين كتفيه..

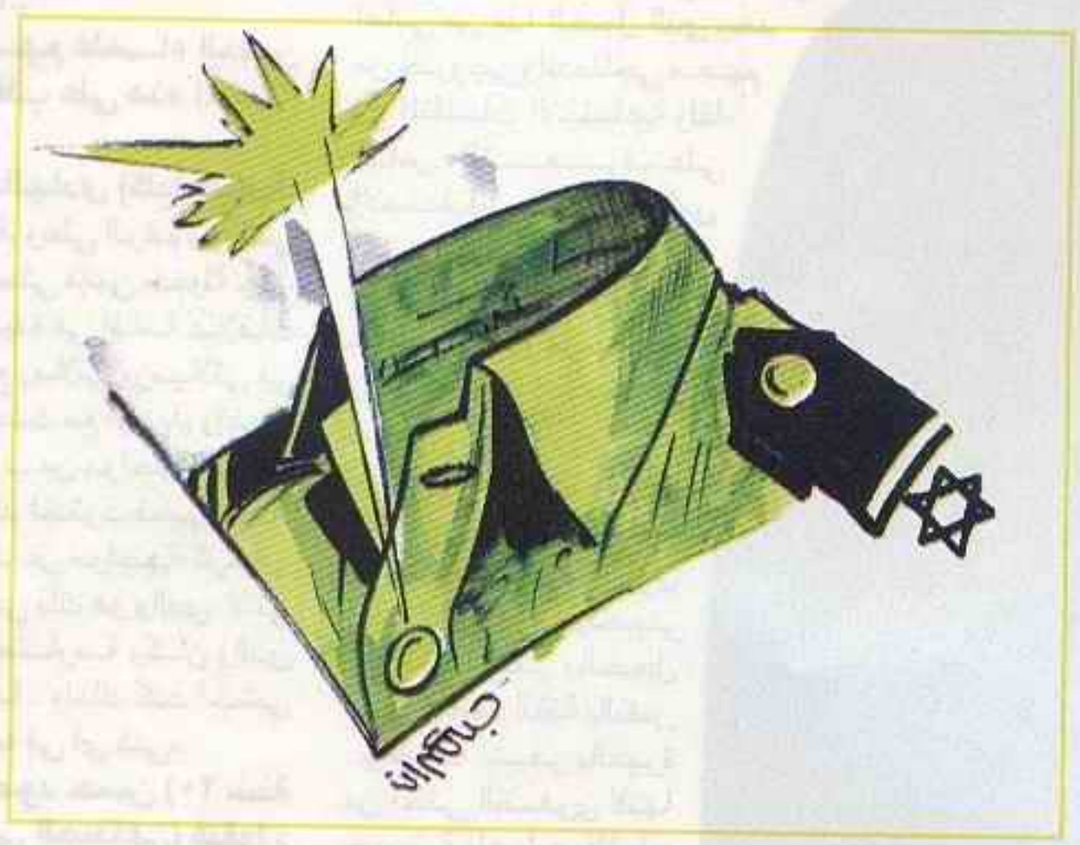

والواقع أنه لم يكن بحاجة إلى كل هذا فعلياً؛ فقد كان لديه تصميم السترة المناسبة،لإخفاء ذلك العيب..فقد تلقى تدريباته المبتكرة فى (جنوه)! وفى الأتيليه الخاص به.. وبمعاونة أحد المحترفين الثلاثة هناك، تم تعديل التصميم الأصلى؛ ليناسب المقاييس الجديدة، ثم راح الاثنان يعملان على تفصيل سترة الجنرال الجديدة، وتثبيت أزرارها الذهبية بمنتهى الدقة..

ولقد انبهر الجنرال تماماً بتلك السترة الجديدة، خاصة أنها قد أخفت عيب الكتفين عن الأعين بدرجة مدهشة، أثارت إعجاب وزير الدفاع نفسه، عندما استقبله فى مكتبه، وابتسم قائلاً:

- هذه السترة تبدو رائعة عليك يا (هركابى).. لقد جعلتك أكثر وسامة، وأصغر سناً.

ومع هذا الإطراء، كان من الطبيعى أن يطلب الجنرال سترتين أخريين، استبدلهما بكل ستراته القديمة، التى عجزت عن إخفاء عيب كتفيه، أو النقص الوحيد فى تكوينه، من وجهة نظره..

وفى (القاهرة) ..بدا (ن.ط) ظافراً واثقاً، وهو يقول لمدير الجهاز بابتسامة كبيرة:

- تمت المهمة بنجاح.

وهذه العبارة بالضبط، هى التى نقلها مدير المخابرات إلى رئيس الجمهورية..

ومعها نقل شريط التسجيل الأول، الذى يحوى تفاصيل النقاش، الذى دار بين الجنرال (إيزاك هركابى) ووزير الدفاع الإسرائيلى، والذى نقله ذلك الميكروفون الدقيق للغاية، المخفى بمهارة مذهلة، داخل أحد الأزرار الذهبية اللامعة، للسترات الجديدة للجنرال (هركابى)...

وفى أواخر سبتمبر ١٩٧٣، تلقى (دافيد سولومون) برقية أخرى من (جنوه)، تنعى إليه عمته الإيطالية، التى لم تجد وريثاً سواه، ليرث منزلها الصغير هناك..

وسار (دافيد) إلى (إيطاليا)، وجيرانه يحسدونه على ذلك الحظ الذى جعله يرث مرتين فى شهر واحد..ولكن (دافيد) لم يمكث فى (إيطاليا) سوى ساعة واحدة، استبدل خلالها بجواز سفره الإسرائيلى جواز سفر مصرياً، يحمل اسمه الحقيقى (سليمان عبد الحميد)، وتولى أحد الخبراء تغيير هيئته، لتماثل صورته فى جواز السفر، ثم استقل طائرة (مصرللطيران)، عائداً إلى الوطن..

إلى (مصر)..

وطوال الأيام التالية، كان الميكرفون المخفى فى الزر الذهبى، ينقل كل أحاديث الجنرال (هركابى)، وكل المناقشات والمعلومات الخاصة بخط (بارليف)، إلى المخابرات العامة المصرية أولاً بأول، التى تعمل على تكوين صورة معلوماتية كاملة، يتم نقلها إلى مؤسسة الرياسة، التى تنقلها بدورها إلى وزارة الدفاع، حيث بدأ العد التنازلى للحرب..

حرب الثأر والتحرير الشاملة..

واندلعت الحرب بالفعل، فى السادس من أكتوبر ١٩٧٣، وجن جنون الجنرال (إيزاك هركابى) مع اقتحام القوات المصرية لخط (بارليف)، وسيطرتهم عليه، وتحركهم بمنتهى السرعة والثقة، وكأن لديهم كل المعلومات المطلوبة، ويعرفون طريقهم جيداً..

وراح الجنرال يعيد دراسة الموقف،ويلقى أوامره هنا وهناك..والميكرفون الدقيق يسجل..ويسجل..ويسجل!

حتى انهار أقوى خط دفاعى عرفه التاريخ، وانفتح الطريق أمام قواتنا إلى قلب (سيناء)..

وارتفع العلم المصرى عليها عالياً مرفرفاً..

وفى نفس الوقت الذى راح فيه الإسرائيليون يدرسون أسباب الهزيمة، ويتبادلون الاتهامات وعبارات الغضب.. والسباب أيضاً، كان رئيس الجمهورية المصرى يقدم التهنئة لضباط الجيش وجنوده، ولمدير ورجال المخابرات العامة أيضاً...

الرجال الذين أثبتوا أنه عندما يتعلق الأمر بالوطن، فلابد من إلغاء كلمة مهمة من القاموس..

كلمة (المستحيل)!

الحرب صورة

صيف ١٩٧٣م .. اقتربت ساعة الحسم، وبلغت درجة الاستعداد للمعركة القادمة حدا مخيفا ، وتحت ستار من السرية المطلقة، اقتضى تصعيدا حادا فى خطة الخداع الكبرى، التى اشتركت فيها كل أجهزة الدولة، لإيهام العدو ومن وراءه ، بأن (مصر) بعيدة كل البعد ، عن التفكير فى شن الحرب لاسترداد الأرض السليبة ، فى تلك الفترة من الزمن...

وعلى رأس كل الأجهزة، التى ساهمت فى خطة الخداع، التى تعد واحدة من أكبر وأضخم وأبرع عمليات التمويه الاستراتيجية عبر التاريخ، كان جهاز المخابرات العامة...

فالرجال هناك كانوا يصلون الليل بالنهار، لدراسة كل التفاصيل، الكبيرة منها والصغيرة، وحتى الدقيقة ، لإحكام الخطة ، وغرس فكرة الخنوع والاستسلام فى ذهن العدو، الذى لا يألو جهدا ، بدوره فى دراسة أدق مايصله من معلومات ، لحسم هذه النقطة بالذات، والتى سيتوقف عليها تاريخ ومصير المنطقة لسنوات طوال، لايعلم مداها إلا الله (عز وجل)...

ولأن الرجال يعلمون أن المهمة ليست بالسهلة أو اليسيرة ، بل هى بالغة التعقيد، إلى نحو يقارب المستحيل ، فقد ركزوا جهودهم على الإحاطة بكل التفاصيل ، خاصة تلك التى تتعلق بأسلوب العدو فى فحص ودراسة مايصله من معلومات...

وفى أساليب جمعه للمعلومات أيضا...

ولأن القاعدة تؤكد أن من عرف لغة عدو اتقى شره ، فقد جمع رجال المخابرات المصرية كل ماأمكنهم، طوال،السنوات السابقة، لمعرفة أسلوب تفكير العدو ودراساته ، ثم راحوا يواجهون كل، مايفعله بضربات خداعية مضادة ، وصلت إلى حد التعامل مع أدق أدق التفاصيل وأبسطها...

ومن الأمور المعروفة فى عالم المخابرات، والتى كان يتم الاعتماد عليها بشدة ، فى ذلك الزمن دراسة كل ماينشر فى صحف العدو ، حتى أخبار الفن والإعلانات المبوبة، وصفحات الوفيات.... والاهتمام بهذا الجانب المباشر لجمع المعلومات يعود إلى ماقبل الحرب العالمية الثانية، عندما فوجئ (أدولف هتلر) بكتاب مطروح فى الأسواق ، من تأليف صحفى سويسرى، يشرح بالتفصيل كل أسلحة الجيش الألمانى ، وأسماء قادة الألوية ، وقادة الأفرع، وحتى هيئة أركان حرب (هتلر) نفسه....

وجن جنون الديكتاتور الألمانى ، وخلفه القيادة العسكرية كلها، وصدرت الأوامر بإحضار ذلك الصحفى السويسرى إلى (ألمانيا) بأى ثمن....

ولأن أوامر الديكتاتور واجبة التنفيذ، تحت أية ظروف أو أحوال، فقد تم اختطاف الصحفى السويسرى، وإحضاره إلى (ألمانيا) ، ليتم التحقيق معه، بشأن تلك الأسرار العسكرية ، وكيفية حصوله عليها...

وكانت مفاجأة مذهلة...

فالصحفى السويسرى لم يكن جاسوسا أو عينا لأية جهة، بل إنه قد جمع كل ماحصل عليه، من معلومات عسكرية مخيفة ، عن طريق صفحات الوفيات بالصحف الألمانية...

فقط صفحات الوفيات...

لقد لاحظ أن كل نعى ينشر فى الصحف، لوفاة أحد العسكريين ، يتضمن معلومات قيمة ، دون أن يدرك أحد، فهذا (فريد ريك أو شين) ، قائد السرب الثالث فى (برلين) ، وذاك الهر(فون كلايست)، شقيق الكولونيل (مانهايم) ، نائب قائد اللواء الرابع فى (فانكوفر)، وهناك نعى نشره اللواء المقاتل السابع والأربعون ، لتعزية قائده (ارنست كلايخ) ... وهكذا...

وبجمع كل تلك البيانات، وتفنيدها، وربط بعضها ببعض ، وجد الصحفى السويسرى نفسه أمام رصد كامل للجيش الألمانى، بكل تفاصيله ومواقعه...

وهناك أدركت القيادة الألمانية مدى خطورة المعلومات البسيطة فى الصحف.

أدركها العالم كله بعدها...

وفى كل أنحاء العالم تقريبا، تم منع نشر أية بيانات عسكرية، أو معلومات سياسية دون دراستها وتحليلها، والتأكد من عدم استفادة أية جهة منها أولا...

ومنذ ذلك الحين، راحت كل أجهزة المخابرات فى العالم ، تطالع الصحف اليومية للدول الأخرى..

بل وتدرس كل سطر فيها...

وفى كل جهاز مخابرات ، نشأ قسم خاص بالإعلام الأجنبى...

ولدينا فى (مصر) قسم لهذا...

وكذلك لدى العدو....

وكما يدرس رجالنا كل سطر، ينشر فى صحف العدو، كانوا يعلمون أنه يدرس أيضا كل سطر ينشر فى صحفنا، التى يجمعها رجاله من طائراتنا ،عبر شبكة من عمال النظافة، تنتشر فى كل مطارات العالم تقريبا...

لهذا ، كان عليهم أن يستغلوا ماينشر فى صحفهم هم إلى أقصى حد، لتوصيل مايرغبون من انطباعات ومعلومات إلى العدو...

أو بمعنى أدق، كان عليهم أن ينشئوا قسما للإعلام المضاد...

وهو قسم مهمته أن يدرس، وبمنتهى الحنكة والبراعة والذكاء، كل مايمكن أن يقنع العدو، من خلال دراسته لإعلامنا، بأننا نعيش حالة استرخاء كاملة، ولانفكر مجرد التفكير، فى شن حرب من أى نوع،لعامين على الأقل...

وبدأت مرحلة جديدة فى حرب الخداع الكبرى...

وفى نفس الوقت ، الذى راح العدو يجمع فيه معلومات الصحف، متصورا أن رجاله العباقرة قادرون على سبر أغوارها ، ومعرفة الكثير والكثير منها، كان رجالنا يقدمون له، فى طبق العسل ، الكثير من السم، الكافى لإرباك أفكاره ،وتوجيه أنظاره إلى آخر مكان ، يمكن أن يرى منه ولو طرفا من الحقيقة.

وكلما اقتربت ساعة الحسم، كانت حرب الإعلام هذه تزداد دقة وشراسة، والكل ، يبذل جهدا أكبر بكثير، لخداع العدو، وإعماء عيونه عن الضربة القادمة...

وراح الرجال يعدون لكل شىء عدته...

ولكل خبر مغزاه وأبعاده...

ومن هنا كان إعلان وزارة الحربية (آنذاك) ، الذى يدعو الضباط للتقدم بطلبات السفر، لأداء عمرة رمضان ، وخبر استعداد قائد القوات الجوية لزيارة (ليبيا)، فى الخامس من أكتوبر ، وغيرها من الأخبار المتناثرة، التى تم إعدادها وتوجيهها بمهارة وعبقرية فذتين...

ثم وصلت تلك المعلومة الجديدة...

معلومة من قلب الجهاز الإعلامى للعدو، من خلال واحدة من أقوى عملياتنا هناك، تؤكد أن الإسرائيليين قد استعانوا بخبير نفسى ، لدراسة كل ماينشر من صور ، لرئيس الجمهورية (أنور السادات) ، ووزير الدفاع المصرى، وقادة الجيش ، لمعرفة ما إذا كانت انفعالاتهم توحى باستعدادهم لشن حرب أم لا..

وكان هذا يعنى تغييرا فى نظام الرصد وجمع المعلومات...

وتغييرا حتميا مضادا، فى أسلوب رجالنا...

وعلى الفور، تم عقد اجتماع عاجل، لدراسة التطورات الجديدة ، وفيه قال رئيس وحدة الإعلام المضاد:

- من الواضح أن الاسرائيليين لايزالون قلقين ياسادة، وهذا يعنى أن خطتنا لم تبلغ منتهاها وهدفها الأخير بعد.

قال أحد الرجال فى اهتمام:

- ويعنى أن علينا تطوير أسلوبنا أيضا.

أشار رئيسه بسبابته ،قائلا:

- بالضبط.

ثم ابتسم ، مستطردا:

- الاسرائيليون لجأوا إلى هذا الأسلوب ، كوسيلة لتطوير حرب المعلومات لديهم، وأفضل مانتمتع به نحن هو أنهم يجهلون تماما أننا نعلم هذا ، مما يعنى أن غرورهم سيدفعهم إلى تصديق كل مايخبرهم به محللهم النفسى ، بشأن رئيسنا وقادتنا.

واتسعت ابتسامته ، وهو يميل نحو الرجال، مضيفا:

- وهذا يعنى أننا نمتلك نقطة تفوق.

وبعد اجتماع طال حتى لحظات الفجر الأولى، وضع الرجال النقاط فوق الحروف، حددوا الخطوات اللازمة، لمواجهة الموقف...

فى البداية، كان عليهم معرفة شخصية ذلك الخبير النفسى، الذى تستعين به المخابرات الإسرائيلية، وطبيعة دراسته، والشهادات التى حصل عليها، والمدرسة النفسية التى ينتمى إليها...

وقبل أن ينتصف نهار اليوم نفسه، كانت عميلة المخابرات المصرية، فى جهاز الإعلام الإسرائيلى، قد بدأت، بناء على برقية شفرية عاجلة، فى جمع كل المعلومات المطلوبة...

ومع الحصول على البيانات الرئيسية للخبير النفسى الإسرائيلى، بدأ عدد من عملاء المخابرات فى الانتشار، فى بقاع الأرض المختلفة، لجمع باقى

بقلم : **د. نبيل فاروق**

التفاصيل..

وفى اليوم السادس بالتحديد، كانت أمام الرجال صورة كاملة للخبير النفسى الإسرائيلى، بأدق أدق تفاصيل حياته...

وفى حزم، قال قائد المجموعة:

- أعتقد أن ما نحتاج إليه الآن هو خبير نفسى مصرى...

وحتى مابعد منتصف الليل بساعتين كاملتين، راح الرجال يراجعون أسماء كل الخبراء النفسيين ، الذين يمكن الاعتماد عليهم، مع ثقة تامة فى وطنيتهم وأخلاقياتهم، واستعدادهم التام لبذل كل نفيس، فى سبيل الوطن...

ثم وقع الاختيار على الدكتور (م. ش)، الخبير النفسى.

وفى الصباح المبكر، وعندما غادر الدكتور (م. ش) منزله، فى طريقه إلى عمله، اعترض شاب هادئ وسيم طريقه، بابتسامة بسيطة ودودة، وهو يقول فى بساطة:

- دكتور (م)...... إننا بحاجة إليك.

ارتبك الرجل، وتراجع خطوة فى قلق حذر، وهو يتساءل:

- أنتم ؟!...... ومن أنتم بالضبط؟!

اعتدل الشاب، وهو يجيب فى حزم:

- المخابرات يادكتور (م).... المخابرات العامة المصرية.

اتسعت عينا الرجل عن آخرهما، من فرط المفاجأة، واستعاد فى ذهنه تلك الشائعات، والأفكار الخاطئة الهدامة، التى ارتبطت، فى زمن ما، باسم المخابرات العامة، وشعر بقلبه يخفق فى عنف وتوتر، حتى أضاف الشاب فى حزم أكبر:

- (مصر) بحاجة إليك يادكتور.

وكأنما نطق الشاب بالكلمة السحرية، فى عبارته الأخيرة هذه، فقد انعقد حاجبا الدكتور (م. ش) ، واعتدلت قامته بدوره، وتبخرت كل مخاوفه وتوتراته دفعة واحدة، وحمل صوته كل الحزم والحسم والاستعداد، وهو يجيب:

- وأنا رهن إشارتها.

وبسيارته الخاصة، تبع الدكتور (م. ش) سيارة الشاب ، حتى مبنى المخابرات العامة المصرية حيث التقى بالسيد (ع) ، قائد المجموعة، الذى شرح له الموقف باختصار شديد، بحيث لايكشف أية حقائق زائدة، قبل أن يعتدل، قائلا:

- مانطلبه منك فعليا، هو أن تدرس أولا كل مايتعلق بالخبير النفسى الإسرائيلى، لكى تقرر كيف يمكننا خداعه، عن طريق أسلوبه ذاته.

انعقد حاجبا الدكتور (م. ش) ، وداعب لحيته القصيرة قليلا، قبل أن يقول فى قلق:

- هذا ليس بالأمر السهل.

بدا التوتر على وجوههم لحظة، ولكنه استدرك فى حزم:

- ولكنه ليس مستحيلا.

وبحماس أدهش الكل، وعقل لايكل أو يمل، انهمك الدكتور (م. ش) فى فحص أوراق الخبير النفسى الإسرائيلى، ومراجعة ميوله، وشهاداته، والمدرسة النفسية التى ينتمى إليها،

ومايستتبع هذا من أساليبه فى فحص وتحليل الصور، وردود الفعل النفسية لأصحابها.... ولقد احتاج منه هذا إلى أسبوع كامل....

أسبوع كان يقضى خلاله مايزيد على ثمانى عشرة ساعة، وسط الأوراق والصور والملفات.... ولقد أرسلت عميلة المخابرات المصرية مجموعة من الصور، وتقارير الخبير النفسى الإسرائيلى عنها، مما ساعد كثيرا فى فهم أسلوبه، ونسق تفكيره، ونظام تحليله....

وفى النهاية، وضع الدكتور (م. ش) دراسة كاملة حول الموقف، واجتمع بالسيد (ع) ، قائد المجموعة، وقال فى حزم:

- إننا نحتاج إلى صورة، تضم الرئيس (السادات)، ووزير الدفاع، وعدداً من قادة الجيش.

وبعد أن شرح ما لديه، انتقلت المهمة إلى جهاز المخابرات، الذى قام بالاتصال بالرئيس مباشرة، وشرح له الموقف كله، وبكل التفاصيل...

ولقد استوعب (السادات) الأمر، واقتنع به تماما، ثم اجتمع بقادة الجيش، ووزير الدفاع، وراح يضع معهم خطة تلك الصورة المطلوبة...

ثم تم استدعاء الدكتور (م. ش)...

وفى مقر رياسة الجمهورية، اجتمع الخبير النفسى المصرى مع الرئيس والوزير والقادة، وشرح لهم المطلوب منهم بالتفصيل الدقيق....

وفى أول مناسبة، ظهر الرئيس ، ووزير الدفاع، والقادة العسكريون معا، وقد بدا عليهم الهدوء والاسترخاء، وشفت حركاتهم عن البساطة واللامبالاة، شأن قادة تفصلهم عن القتال سنوات وسنوات....

والتقط الصحفيون الصورة....

وكالمعتاد، تم نشرها فى صدر كل الصفحات القومية، فى صباح اليوم التالى....

كان هذا فى الثلاثين من سبتمبر ١٩٧٣م..

وفى اليوم نفسه، كانت الصور كلها أمام الخبير النفسى الإسرائيلى، ورئيسه يقول فى حزم صارم:

- أريدك أن تدرس هذه الصور جيدا، فهى أول مجموعة من الصور، تضم الرئيس المصرى، ووزير الدفاع، وقائد الطيران، ومعظم قادة الجيش، منذ فترة طويلة، وأريد تقريرا دقيقا مفصلا عنها، فى أسرع وقت ممكن يحمل جواب السؤال الأكثر خطورة، منذ حرب يونيو ١٩٦٧ .... هل يفكر المصريون فى شن حرب ثأرية الآن أم ماذا؟!

التقط الخبير الإسرائيلى مجموعة الصور، وهو يضع منظاره على عينيه، قائلا فى ثقة، اقتربت من حد الغرور:

- هذا ليس بالأمر العسير.

وبنفس الثقة، راح الخبير الإسرائيلى يدرس مجموعة الصور، ويفحص الوجوه، والحركة، ونظرات العيون، وكل مايمكن أن يفيد مايبحث عنه....

وفى مساء الثلاثاء، الثانى من أكتوبر ١٩٧٣م، طلب الخبير النفسى مقابلة رئيسه، وما أن دلف إلى مكتبه، حتى وضع أمامه تقريرا من نسختين، وربت عليه بكفه، بمنتهى الثقة والحماس، قائلا:

- النتائج كلها سلبية.

هتف رئيسه فى اهتمام بالغ:

- أأنت واثق؟!

أومأ الخبير الإسرائيلى برأسه إيجابا، وقال:

- دون أدنى شك، فطبقا لهذه الصور، لاتوجد أدنى نية، لدى الرئيس المصرى، ووزيره، وقادة جيشه، لشن أية حروب على خط الجبهة، بل ولايبدو أن فكرة الحرب حتى تروق لهم.

تراجع رئيسه، وهو يسأله بانفعال:

- هل كتبت هذا فى تقريرك؟!

ابتسم الخبير الإسرائيلى فى ثقة أكبر، قائلا:

- بالطبع ... هل سبق أن أخطأت تقدير الأمور.

اعتدل رئيسه، وهو يقول فى حزم.

- مطلقا.

وقبل مضى ساعة، كان يرسل صورة من التقرير إلى كل الجهات المعنية...

رياسة الوزراء..... وزارة الدفاع... وكذلك الرئيس الإسرائيلى نفسه...

ثم نام الرجل قرير العين، هادئ البال..

بل نام النظام العسكرى الاسرائيلى كله، مطمئنا إلى أن المصريين يخشون المواجهة المباشرة، مع الجيش الإسرائيلى، الذى تؤكد كل الدعايات الصهيونية أنه جيش خارق لايقهر....

ثم استيقظ الكل، ظهر السادس من أكتوبر...

استيقظ العالم كله، مع هدير النسور المصرية، التى تعبر خط قناة (السويس)، على طول الجبهة، وتدك مطارات وحصون العدو فى (سيناء)، وتسحق خط (بارليف)، الذى قيل إنه أقوى خط دفاعى عرفه تاريخ الحروب...

وأصابت الصدمة الجميع فى عنف...

وبخاصة ذلك الخبير النفسى الإسرائيلى، الذى انهار تماما فى مكتبه، وهو يصرخ - مستحيل !.... مستحيل أن أكون قد أخطأت.

ولكنه لم يدرك أبدا، وربما حتى لحظة كتابة هذه السطور، أنه كان ضحية حرب إعلامية عبقرية مضادة، وأسير فخ تم إعداده بمهارة منقطعة النظير...

فخ صنعه رجال لايؤمنون بالمستحيل...

رجال يعلمون أن الحرب خدعة...

وصورة..!

المهاجر..

علَتْ ابتسامات النصر الظافرة وجوهَ كل الساسة، وجنرالات الجيش فى (إسرائيل)مع الاحتفالات المسعورة بانتصارهم الساحق، فى يونيو ١٩٦٧.. وراحت الخطب الحماسية تنهال على العالم كله، معلنة أن الجيش الإسرائيلى قد أثبت، بما لايدع مجالاً للشك، أنه جيش أسطورى لايقهر، وأن (إسرائيل) وحدها قادرة على هزيمة العرب مجتمعين، تحت أية ظروف وملابسات. ثم لم يلبث الساسة أن أعلنوا، بكل صلف وغرور، أن إسرائيل مفتوحة أمام هجرة اليهود إليها، من كل أنحاء العالم، ووصفوها بأنها أرض الميعاد، وجنة الله فى الأرض، بالنسبة لكل من ولد من أم يهودية.

وفى ظل تلك الظروف، كان من الطبيعى أن يصدق الآلاف هذه الدعوة، ويسارعوا بالهجرة إلى تلك الجنة الموعودة، حاملين كل أمالهم وأحلامهم، وطموحاتهم فى مستقبل مشرق سعيد.. ومن بين هؤلاء، كان (ماريو د زرائيلى)..

يهودى إيطالى الجنسية، أصر والده على منحه اسماً إيطالياً محضاً، على الرغم من لقب الأسرة العبرانى، وكأنما يحاول مساعدته على الذوبان فى المجتمع الإيطالى، وتجاوز التعصب الدينى هناك، الذى يعوق تقدمه وثراءه فى كثير من الأحيان..

وكما يقول ملف (ماريو)،فإن هذه المحاولة الساذجة قد باءت بفشل ذريع، إذ لم ينس أقرانه أبداً فى (فلورانس)، التى نشأ وترعرع فيها أنه يهودى ابن يهودى، وراحوا يسخرون منه، ويتجنبونه، حتى إنه كان الشاب الوحيد بين رفاقه كلهم، فى المرحلة الثانوية، الذى رفضت كل فتاة فى الفصل الارتباط به، أو حتى التحدث معه على انفراد..

وهكذا تفجر فى أعماق الشاب مقت شديد، وخاصة أن وجود أسرته فى إيطاليا كان أمراً نادراً حساساً بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، والهزيمة التى لقيتها إيطاليا فيها، كواحدة من دول المحور التى رفضت دوماً وجود اليهود داخل حدودها..

وذات ليلة، اختفى (ماريو درزائيلى)..

اختفى تماماً! وفشلت كل محاولات البحث عنه، واستعادته، على الرغم من الجهود المضنية التى بذلها والده.. ثم سرت شائعة بأنه قد لقى مصرعه، على يد بعض المتطرفين والمتعصبين، وأن جثته قد ألقيت للكلاب، التى التهمتها عن آخرها، مما أصاب أمه بحزن شديد، أدى إلى وفاتها بعد أيام بأزمة قلبية عنيفة، ليبقى والده وحيداً، يجتر أحزانه ومرارته، على ضياع ابنه الوحيد، ثم لم يلبث أن لحق بزوجته، بعد عام واحد، دون أن يظهر (ماريو)، أو تتردد أية أخبار جديدة بشأنه..

وبعد عام واحد، وبالتحديد فى مارس ١٩٦٨، عاد (ماريو درزائيلى) للظهور!

ظهر فى (نابولى)، وسط أسواق السمك هناك، وبدا أكثر خشونة وغلظة، وأكثر ميلاً للانطواء والعزلة، على نحو يوحى بأن أيام الاختفاء كانت قاسية عنيفة، كلفت الشاب فوق مايطيق..

وعلى الرغم من صعوبة ظروفه، فقد حاول (ماريو) جاهداً أن يبدأ تجارة صغيرة فى بعض أنواع الأسماك المتميزة، إلا أن المافيا المسيطرة على تلك السوق، لم تسمح له بالنمو، واحتلال مكانة وسطها، وإن لم تعترض طريقه عندما اكتفى بالعمل كوسيط توريد، بين التجار وكبار الزبائن والعملاء..

والواقع أن الشاب، على الرغم من خشونة مظهره، كان أميناً ونظيفاً للغاية، حتى إنه لم يمض عام واحد، إلا وكان له عدد كبير من الزبائن، الذين لايثقون فى جودة الأسماك وطزاجتها، إلا لو كانت تأتى عن طريقه، ويتم تسليمها بيده شخصياً..

ومن بين هؤلاء الزبائن، كان (موشى بن زايون) مدير وكالة الهجرة اليهودية آنذاك..

والعجيب أن (بن زايون) ظل يتعامل مع (ماريو) طوال هذا العام، باستخدام اسمه الأول فقط، حتى قادهما الحديث بالمصادفة البحتة إلى معرفة لقبه،الأمر الذى جعل (بن زايون) يهتف بمنتهى الدهشة:

(دزرائيلى)؟!.. أأنت يهودى؟!

أومأ الشاب برأسه فى انكسار، مجيباً:

- نعم.. أنا يهودى.. هل يدهشك هذا؟!

هتف به (بن زايون):

وماذا تفعل هنا؟!

بدت الدهشة على وجه الشاب، وهو يجيب:

- أحاول تكوين شئ ما.

هتف (بن زايون) بدهشة مستنكرة:

- هنا؟!

تضاعفت دهشة (ماريو)، وهو يتساءل:

- أين إذن؟!

تألقت عينا (موشى بن زايون)وهو يميل نحوه، ويجيب بصوت ذى رنين خاص:

- فى (إسرائيل).

صرخ الشاب من فرط الدهشة، وأعلن أنه قد استقر بالفعل فى (نابولى)، وليس لديه أدنى استعداد لمواجهة حياة جديدة مجهولة، فى أرض أخرى، ومجتمع يجهل عنه كل شىء.. ولكن (بن زايون) راح يزين له الأمر، ويهونه، ويؤكد له أن الحياة فى (إسرائيل) ستكون أكثر ازدهاراً، وأنه سيجد هناك حتماً عملاً أفضل، ثم أخذ يمده بالكتيبات والنشرات الدعائية، عن (إسرائيل) وأرض الميعاد، والجنة الموعودة..

ولقد طال تردد (ماريو)، وهو يختلق الأسباب والمبررات والمحاذير، و(بن زايون) يواصل محاولات إقناعه، حتى تسببت وشاية كاذبة فى مشكلات عنيفة، بين (ماريو) وتجار السمك الكبار، مما حطم تردده، وجعله يعلن موافقته على الهجرة إلى (إسرائيل)، بأسرع وقت ممكن..

وفى ديسمبر ١٩٦٩م، هاجر (ماريو دزرائيلى) رسمياً إلى (إسرائيل)، حاملاً توصية خاصة من صديقه (موشى بن زايون)، وخطاباً إلى أحد كبار تجار السمك فى (تل أبيب)..

ولقد كان لهذا أكبر الأثر فى حياة المهاجر الجديد، الذى لم يبدأ أيامه فى المعسكرات و(كيبوتز) الوطن البديل، وإنما حصل فور وصوله على وظيفة موزع، لدى تاجر السمك الكبير، والصديق الصدوق لمدير وكالة الهجرة فى (نابولى)..

وربما تكون هذه هى المرة الوحيدة، التى تتحقق فيها الوعود، بالنسبة لمهاجر جديد! فمع حصول (ماريو) على الوظيفة، فور وصوله إلى (إسرائيل)، بدأ هجرته بظروف مناسبة، وحياة مستقرة، جعلته يعمل بلا كلل أو ملل، ويبنى قاعدة علاقات عامة جديدة، وصداقات عميقة، لم يحاول عقد واحدة منها فى (نابولى)..

بل لقد تلاشت خشونته وغلظته، مع حياة الاستقرار الجديدة، وعادت ابتسامته العذبة إلى وجهه، ووزعت عباراته الأنيقة المجاملة على الجميع، من التجار والزبائن، وحتى الجيران..

وبسرعة، أصبح (ماريو دزرائيلى) واحداً من أشهر الشباب فى (تل أبيب)، وأكثرهم اجتماعية وأناقة، على عكس تلك الأيام القاسية فى (نابولى).. وصارت مغامراته ونزواته العاطفية هى أفضل الأحاديث، فى ليالى السهر والسمر..

ومع بداية عام ١٩٧١م، افتتح (ماريو دزرائيلى) شركة لتجميد وتعليب وتصدير الأسماك، مع تجارة كبيرة لمختلف أنواع الأسماك والكائنات البحرية..

ولم يبدأ شهر يوليو، من منتصف العام نفسه.. حتى كان كل الساسة والجنرالات، فى (تل أبيب) كلها، من زبائن (ماريو)، خاصة أنه كان يمنحهم تنزيلات وتخفيضات خاصة جداً، لايمنحها أى تاجر آخر، ويخصهم بأفضل الأسماك والأنواع..

وكأى عازب ثرى شهير، خفقت عشرات القلوب من أجله، وعلى رأسها قلب (راشيل فريمان)، زوجة واحد من أكبر وأشهر جنرالات الجيش الإسرائيلى..

ولكن (ماريو) لم يهتم بخفقات قلب (راشيل)، ولم يعرها انتباهه..

فعلى الرغم من أن متجره كان يتميز، كمعظم المتاجر الكبرى، بخاصية توصيل الطلبات إلى المنازل، فإن (راشيل) كانت تصر على الذهاب إليه بنفسها، بحجة انتقاء مايروق لها، على أن يتم إرساله إلى المنزل فيما بعد..

وكانت تختار مواعيد وجود (ماريو) بالذات..

وفى كل مرة، لم تكن ترفع عينيها لحظة واحدة عنه، وهو منهمك فى الحديث مع زبونة

بقلم : **د. نبيل فاروق**

فاتنة حسناء، أو غارق فى ضحكة طويلة مع شقراء روسية الأصل، أو ينتقى بنفسه بعض القطع الممتازة لأرجنتينية سمراء، ذات عينين ساحرتين..

وكان قلب (راشيل) يخفق ويتعذب فى آن واحد وهى تراقب مايفعله، وتعانى تجاهله ولا مبالاته الدائمة بها، مما يدفعها إلى مزيد من التهافت والتهور، فى محاولة الاقتراب منه، ولفت انتباهه إليها..

ثم أخيراً، هداها عقلها الأنثوى إلى فكرة جديدة..

وأثناء زياراتها التالية، افتعلت مشاجرة مع أحد العمال، وتعالت صيحاتها الغاضبة وهى تهدد باستغلال اسم زوجها ونفوذه، لإغلاق المتجر كله..

وكرد فعل رجل أعمال وتاجر، ذهب إليها (ماريو دزرائيلى) بنفسه لتهدئة ثائرتها، وتطييب خاطرها..

وكان هذا هو ماتسعى إليه بالضبط!

ولأنها أنثى، وخبيرة بشئون الرجال، فإنها لم تهدأ، أو تنصرف من المحل إلا بعد أن تبادلت معه أرقام الهاتف، ورمقته بنظرة خاصة من تحت أهدابها الطويلة، وهى تطلب منه بصوت خافت مبحوح، أن يتصل بها فى الصباح، عندما يكون زوجها فى عمله..

وفى مساء اليوم نفسه، وبعد أن عاد إلى منزله الأنيق المطل على البحر مباشرة، أزاح (ماريو) قرص مكتبه، والتقط من مكان خفى تحته جهاز إرسال «لاسلكى» متطوراً، ورواية بوليسية كبيرة، للكاتب الشهير، (إدجار آلان بو)، وراح يبث رسالة شفرية خاصة..

وبعد ساعة واحدة، كانت تلك الرسالة على مكتب السيد (رفعت)، رجل المخابرات العامة المصرى، الذى راجعها للمرة الثانية، قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة ارتياح كبيرة، ويغمغم:

- عظيم.. عظيم يا (أشرف).

سأله زميله (أنور) فى اهتمام:

- هل وجد وسيلة اتصال؟!

- وسيلة ممتازة!

تنهد (أنور) فى ارتياح مماثل، وجلس على المقعد المواجه لمكتب (رفعت)، وهو يقول:

العملية بدأت تؤتى ثمارها أخيرا.

وافقه (رفعت) بإيماءة من رأسه، وقال:

- كان علينا أن نتحلى بالصبر.. فزرع عميل فى أرض العدو ليس بالعمل السهل أو البسيط، وأى خطأ، مهما بلغ حجمه، يمكن أن يفسد العملية كلها.. لقد بذلنا جهدا حقيقيا، وتجشم رجالنا الكثير، ليتأكدوا من أن (ماريو دزرائيلى) الحقيقى قد لقى مصرعه بالفعل، على يد بعض المتعصبين فى منتصف الستينيات، قبل أن نبدأ فى إعداد رجلنا (أشرف) الذى يشبهه كثيرا، ليلعب دوره فى ذلك المجتمع الجديد فى (نابولى) ..ولقد ساعدنا انتماؤه إلى أب مصرى وأم إيطالية، على إجادته للغة والعادات الإيطالية، وفهم طبيعة الحياة هناك، كما أن كونه اليهودى الوحيد فى (فلورانس) يوما ما، كان يخفض احتمالات كشف أمره داخل (إسرائيل) إلى الحد الأدنى.

ابتسم (أنور) وقال:

- الأكثر أهمية أن مدير الوكالة اليهودية بنفسه، هو الذى بذل جهدا كبيرا، لإقناعه بالسفر إلى (إسرائيل).

أشار (رفعت) بسبابته، قائلا:

- وهو الذى فتح أمامه أبواب العمل أيضا!

ثم مال إلى الأمام، متابعا فى حزم:

- والآن ستساعدنا زوجة الجنرال على أن يصبح لدينا جاسوس، فى أعلى قيادات الجيش الإسرائيلى.

وانطلقت من حلقة ضحكة قصيرة، قبل أن يضيف:

- جاسوس يجهل حتى أنه جاسوس!.

وكانت عبارته هذه دقيقة، إلى أقصى حد ممكن.

فالجنرال الإسرائيلى، الذى يحتل مكانة متميزة للغاية فى الجيش الإسرائيلى، لم يكن يدرك، أو يتصور لحظة واحدة، أن الأوراق الخاصة، التى كان يحضرها فى أظرف مغلقة إلى منزله، والتى تحمل على زاويتها اليمنى شريطا أحمر اللون، تخترقه عبارة (سرى للغاية) - تصل كل تفاصيلها، أولا بأول، إلى المخابرات العامة المصرية!

بل وحتى زوجته (راشيل) نفسها، لم تكن تدرك هذا، أو حتى تتصوره!

فلم يدر بخلدها لحظة واحدة، أن مفتاح منزلها، الغير قابل للتقليد، والذى دسته ذات يوم فى كف حبيبها الإيطالى الوسيم! - كان يستخدمه فى آخر غرض يمكن أن تتصوره فى أبشع كوابيسها!.

فبواساطته، كان (ماريو)، الذى تلقى تدريبات عديدة مكثفة على يد أفضل خبراء المخابرات العامة المصرية، يتسلل إلى المنزل فى قلب الليل، ويخرج تلك الأوراق، التى تحمل عبارة (سرى للغاية)، ليلتقط لها صورا غاية فى الدقة والإتقان، يتم إرسالها داخل أحد طرود الأسماك، إلى (مارسيليا)، حيث يقوم عميل آخر بإرسالها فورا إلى (القاهرة).

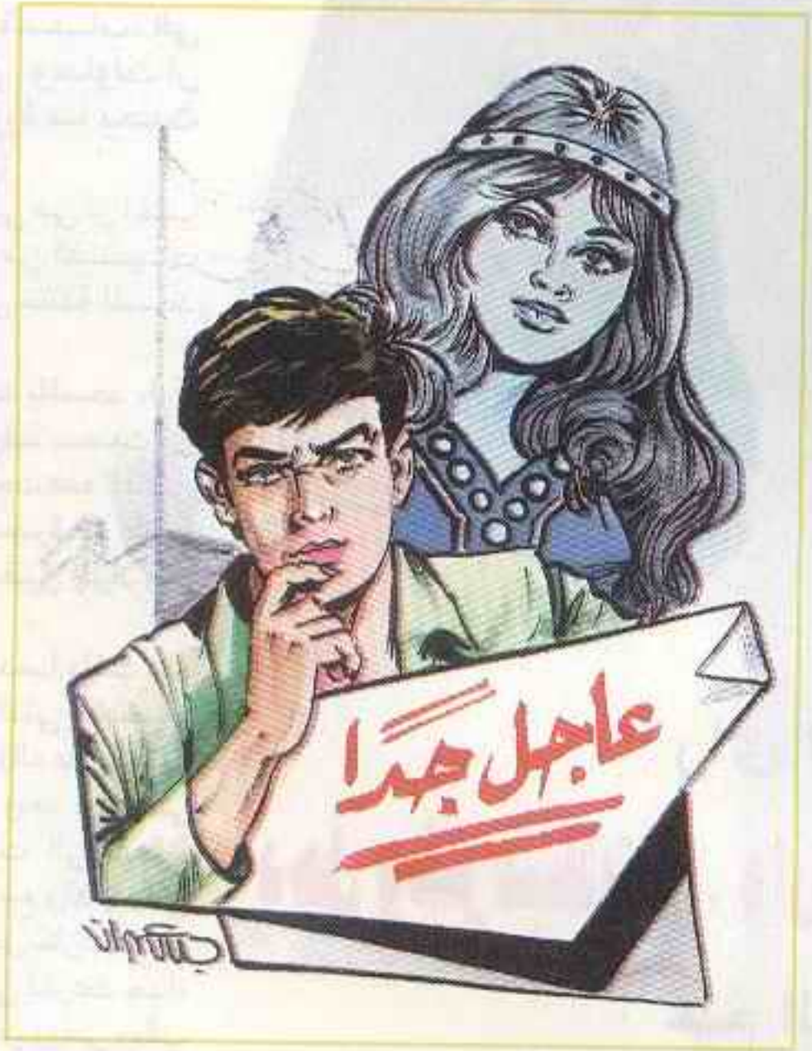

ومن خلال (ماريو) وذلك الجنرال الاسرائيلى، عرفت القاهرة، تفاصيل صفقات الأسلحة الجديدة، وتصميمات أول دبابة إسرائيلية، ونظم التهوية والتبريد فى خط (بارليف)، وموقع محطة الإنذار المبكر، التى لم يتم استكمالها ، وتوزيع خطوط الإمداد والتموين، وقدرة المولدات الكهربية.. وعشرات المعلومات الأخرى.

وفى منتصف عام ١٩٧٣م، وبينما كانت (راشيل) تتصور أنها تحيا أسعد لحظات حياتها، كانت القاهرة تطلب من (ماريو) أن يبذل الكثير من الجهد، بعد أن تلقى دورة تدريبية جديدة مكثفة، داخل فيلا منعزلة فى أحد جبال (أثينا)، لجمع أكبر قدر ممكن فى المعلومات ، حول التعديلات الجديدة داخل خط (بارليف)، وخطة استدعاء الاحتياطى العسكرى، التى وضعها قادة الجيش الإسرائيلى فى اجتماعهم الأخير..

وهنا، كان على (ماريو) أن يستغل كل اتصالاته ومعارفه فى (تل ابيب) كلها، لجمع المعلومات المطلوبة، والتى لايمكن الاعتماد فيها على مصادفة يقوم بها ذلك الجنرال الكبير، زوج العاشقة (راشيل).

ولكن الأمر لم يكن سهلا أو بسيطا.

ثم إن المعلومات المطلوبة قد حملت ، فى رسالة (القاهرة) الأخيرة فى نهاية أغسطس، عبارة (عاجل جدا).

وهكذا، اتخذ (ماريو) قراره بالمخاطرة.. وليكن مايكون.

مخاطرة محسوبة، تمت دراستها بمنتهى الدقة، بحيث لايمكن أن تكشف لهفة المصريين للحصول على هذه المعلومات الجديدة..

وعلى الرغم من أن تفاصيل تلك الأيام الأخيرة ليست متاحة بعد، ربما لأنها تكشف جانبا من البراعة المدهشة التى يتميز بها الرجال هنا، فإنه يكفى أن نقول إن اللعبة قد أديرت على نحو مبهر، بحيث حصل المصريون على كل المعلومات المطلوبة، قبل أن تصدر الأوامر إلى (ماريو)، لإنهاء العملية الأصلية كلها، فى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٩٧٣م، واستعادة هويته الحقيقة وهو فى طريقه، بعد سنوات طوال فى الغربة، إلى (القاهرة)..

ومرة أخرى، كان للتوقيت أثره الرائع، فى نفس (ماريو)، الذى سافر من (تل أبيب) إلى (روما)، بحجة زيارة بعض الأصدقاء هناك، وافتتاح فرع لشركته..

فى وطنه الأم!

وفى (روما)، فى الأول من أكتوبر، وبعد أن تم محو كل أثر لهويته الزائفة - استعاد (ماريو) اسمه الأصلى :(أشرف)، مع جواز سفر (مصرى)، كان يضمه إلى صدره من شدة فرحته وسعادته، وسلمه الملحق العسكرى تذكرة العودة إلى القاهرة..

وهبطت طائرة (أشرف) على أرض(مصر)، فى السادسة من مساء الخامس من أكتوبر ١٩٧٣م، وحملته سيارة خاصة مباشرة، من المطار إلى أحد مكاتب المخابرات العامة، حيث استقبله (رفعت) بنفسه، وصافحه فى حرارة وهو يبتسم ابتسامة كبيرة، قائلاً:

- حمداً لله على سلامتك يابطل.. أهلاً بك فى (مصر).

تنهد (أشرف) فى ارتياح، وقال:

- لم أتصور أن أسمعها مرة ثانية أبداً..

وكل ما أرجوه، أن يكون لما فعلته أدنى تأثير فى استعادة الأرض المحتلة، وهزيمة العدو.

اتسعت ابتسامة (رفعت)، وهو يقول:

- لن يمكنك أن تتصور قط مدى تأثيره!

نطقها مع أول شعاع ضوء الفجر السادس من أكتوبر ١٩٧٣م..

ذلك اليوم، الذى وضع نهاية للرحلة الطويلة..

رحلة المهاجر..

المصرى!

صفحات من تاريخ الجاسوسية

فن النصر

النصر له نشوة خاصة .. حقيقة لا يختلف عليها اثنان، فى أى زمان ومكان، وتحت أى ظروف أو قواعد .. وخاصة عندما يكون النصر عسكريا وحربيا، حققته دولة صغرى، على دول كبرى، لها تاريخها وعراقتها وحضارتها..

ولهذا كان لنكسة يونيو ١٩٦٧م أثرها القوى على المجتمع الإسرائيلى كله، وبالذات على جنرالاته، الذين انتفخت أوداجهم فى زهو ظافر، وهم يعلقون الأوسمة، ويتلقون التهنئة، ويصافحون عشرات الأيدى التى تمتد إليهم طوال الوقت بالتحية والتقدير.. وفى كل اللقاءات والاجتماعات والمحاضرات، وعلى صفحات المجلات وأوراق الصحف، وشاشات التليفزيون، راح المجتمع الإسرائيلى كله يتحدث عن الجيش الأسطورى، الذى لا يهزم ولا يقهر أبداً، والذى حقق معجزة عسكرية، على أى مقياس استراتيجى..

أما المخابرات الإسرائيلية، فقد بدت أشبه بالطاووس من شدة الغرور، والشعور بالتفوق والقوة، وراحت تخرق كل القواعد الأمنية، لتتحدث طوال الوقت عن انتصارها الساحق على أجهزة المخابرات العربية والسوفيتية، ونجاحها فى مباغتتهم جميعاً بضربة ساحقة ماحقة..

وفى كل وسائل الإعلام الإسرائيلية ترددت نغمة واحدة، فى إلحاح مستفز.. أن حرب يونيو ٦٧ هى آخر الحروب، بين العرب و(إسرائيل)..

والحجة فى هذا كانت أن العرب قد انهزموا هزيمة نكراء، لن تقوم لهم بعدها قائمة أبداً ، تحت أى مقياس منطقى أو عسكرى..

ووسط كل هذا، وكعادتها فى طبيعة عملها، لاذت المخابرات المصرية بالصمت التام، واحتفظت بكل ما لديها داخلها، على الرغم من كل ما واجهته من انتقادات واتهامات، وكان الكل يحاول اعتبارها كبش الفداء، الذى يفترض منه أن يدفع فاتورة الهزيمة كاملة..

وكان لصمتها هذا عشرات الأسباب، من أهمها أنها لا تستطيع بحكم طبيعتها، أن تفصح عن كل ما لديها، وأن رجالها وخبراءها لم ينتهوا من بحث ودراسة أسباب الهزيمة بعد، ثم إن القاعدة الذهبية، التى تؤمن بها دوماً، هو أنه ليس المهم من ينتصر فى الجولة الأولى، ولكن الأهم من يربح المباراة فى النهاية، كما أن كل رجالها يؤمنون بأن من يضحك أخيراً يضحك كثيراً.. وطويلاً!

ومن هذا المنطلق، ومن ثقتهم التامة فى أنه، وعلى الرغم من كل فوائد النصر، هناك نقطة ضعف كبرى تتصل به، ألا وهى أن المنتصر ينتفخ زهواً، ويكتظ بالثقة، إلى الحد الذى يفقده الكثير والكثير من الحذر والحكمة..

والواقع أن نظريتهم هذه كانت سليمة تماماً، فجنرالات (إسرائيل) تحولوا بالفعل إلى نجوم لامعة فى المجتمع، وأحاط بهم بريق الشهرة، وخلبت لبهم أضواؤها، فراحوا يتصرفون ويتعاملون من هذا المنطلق، وحملت برامجهم اليومية، لأول مرة، مواعيد الحفلات والاستقبالات والمحاضرات، التى يعاملون فيها كالأبطال..

وكرد فعل طبيعى، بدأ الجنرالات يولون أناقتهم ونرجسيتهم اهتماماً بالغاً، ويحيطون أنفسهم بكل مظاهر البريق والزهو، مما أصابهم بالترهل والتراخى، وسلبهم بالفعل الكثير من حذرهم التقليدى، وحرصهم المعتاد..

ومن بين هؤلاء، كان الجنرال (موشى جولدمان)، أركان حرب الجبهة الشرقية للجيش الإسرائيلى.

ولأن زوجة (جولدمان) من ذلك الطراز الذى مقت العسكرية منذ الأزل، وحلم طيلة عمره بالثراء والشهرة، فقد وجدت مبتغاها فيما أحاط بزوجها من شهرة وبريق، وراحت تتعامل بدورها كسيدة مجتمع راقية، وزوجة لأحد أهم مشاهير (إسرائيل) الحديثة، وهلى تلقى بالأحاديث الصحفية هنا وهناك، وتتدرب على الابتسام أمام المرآة، وعلى لباقة الحديث ورونقه، وتحرص على ارتداء أفضل وأفخم الثياب، إلى الحد الذى أرهق ميزانية زوجها، وجعله يعترض ويغضب ويصرخ أحياناً، مطالباً إياها بالحد من الإنفاق، وإن لم يحاول هو تطبيق المبدأ ذاته على نفسه، وهو يستبدل أزرار زيه العسكرى بأخرى ذهبية، ويختلق المناسبة تلو الأخرى، لتتصدر صورته صفحات الصحف الأولى.

ووسط كل هذا، وجدت زوجته، فى إحدى الحفلات، من يهمس فى أذنها بفكرة جديدة بدت لها عبقرية جذابة، وخلبت لبها بحق، لما فيها من ابتكار، لم يسبقها إليه أى جنرال آخر..

لماذا لا يصنع زوجها لنفسه تمثالاً نصفياً أنيقاً، يزين به مكتبه؟!..

وانبهرت زوجة (جولدمان) بالفكرة، ولم تلبث أن نقلتها إلى زوجها، وهما فى طريق العودة إلى منزلهما.. إلا أنه استنكر الأمر تماماً، وقال: إن هذا سيجعله أضحوكة، فى نظر ضباطه وقياداته..

ولكن النساء يمتزن بعامل خاص جداً، مهما اختلفت جنسياتهن..

الإلحاح!

وبهذا العامل، لم تتوقف الزوجة عن التحدث عن الفكرة، طوال الليل والنهار، وعن تزيينها، وتجميلها، وتبريرها، حتى إنها اقترحت أن تقوم إحدى صديقاتها بعمل التمثال، ثم ترسله إليه كهدية، تقديراً لدوره الفائق فى الحرب..

ورويداً رويداً، راح الجنرال (جولدمان) يخضع للفكرة، ويستسلم لها.. بل وبدأت تروق له أيضاً، وهو يتخيل ذلك التمثال الأنيق، على سطح مكتبه، يواجه كل زائر ببراعته وانتصاراته، و...

وأدركت الزوجة أنها قد نجحت، وحان موعد التنفيذ.

وعندما أعلنت هذا لصديقتها، التى أوعزت لها بالفكرة، نصحتها تلك الصديقة، اليونانية المولد (إيلينا) باختيار فنان معروف للقيام بالعمل، ثم رشحت لها الفنان والمثال الإيطالى (بجاروتى)، والذى ـ ويا للمصادفة! ـ يزور (إسرائيل) فى تلك الآونة، للاطلاع على معارض الفن هناك.

وبمعاونة (إيلينا) قامت زوجة (جولدن) بالاتصال بالمثال الإيطالى الذى اعترض على الفكرة فى البداية، بحجة أن وقته فى (إسرائيل) لن يكفى للقيام بعمل يفتخر به، ثم لم يلبث أن لان قليلا، مع توسلاتها المستميتة، والمبلغ الكبير، الذى لوحت به.. وأخيراً، وافق (بجاروتى) على الفكرة، وطلب مقابلة الجنرال، لصنع النموذج الأولى، وهيكل الأسلاك اللازم لعمل التمثال..

وهنا تردد الجنرال (جولدمان) كثيراً، وأصابه القلق من الموقف كله، وأعلن لزوجته عن قلقه وشكوكه، وخشيته من أن يؤدى هذا إلى بعض المشكلات.. إلا أنها تسلحت مرة أخرى بسلاح الإلحاح والإقناع، وطلبت منه أن يقوم بعمل بعض التحريات، عن (بجاروتى) هذا، حتى يطمئن إليه، قبل أن يقف أمامه لتنفيذ التمثال.

ووجد الجنرال (جولدمان) رأى زوجته عملياً ومقنعاً هذه المرة بالفعل، خاصة وأنه صديق لمدير المخابرات الإسرائيلية، الذى وافقه على الفكرة، وحبذ وجهة نظره، باعتبار أن كل شخص، يتصل بأحد الجنرالات فى جيش (إسرائيل)، لابد من التيقن من حقيقة هويته وانتماءاته أولاً.

وهكذا، بدأت المخابرات الإسرائيلية فى عمل كل التحريات اللازمة، عن الفنان الإيطالى (بجاروتى) وكل ما يتعلق به.

وقد استغرقت تلك التحريات أسبوعاً واحداً.. اتصل بعدها مدير المخابرات بصديقه (جولدمان)، وقال فى حزم:

الرجل نظيف .. امض فى الأمر..

وبكل ارتياح، حدد (جولدمان) موعداً للمثال الإيطالى، فى منزله فى (تل أبيب).. وفى الموعد بالضبط، حضر (بجاروتى)..

كان إيطالياً حتى النخاع، فى كبريائه، وغروره، وشعره الأسود الطويل، المبعثر فى خصلات حول رأسه، ولحيته وشاربه القصيرين، اللذين يمنحانه عمراً يفوق سنوات عمره الفعلية بكثير..

ولا أحد يمكنه أن يتصور كم شعرت زوجة (جولدمان) بالفخر، وهى تستقبل مثالا إيطاليا شهيرا فى منزلها، وتقدمه لصديقاتها، ولزوجات الجنرالات الآخرين، اللاتى حضرن لرؤيته، ومتابعة عمله على الطبيعة..

وفى زهو حقيقى، وقف الجنرال أمام الإيطالى، الذى راحت أصابعه تعمل، فى خفة وسرعة ومهارة، ليصنع الهيكل السلكى، ثم يكسوه بالجبس والصلصال، وملامح الجنرال (جولدمان) تتكون أمامه رويدا رويدا، على نحو مبهر، يشف عن موهبة واضحة، وبراعة بلا مثيل..

وطوال ثلاثة أيام كاملة، واصل الفنان عمله، حتى تكون أمام العيون المبهورة ذلك النموذج الأول، الذى أبدى الجنرال إعجابه الشديد به، وراح يلقى بشأنه ملاحظاته هنا وهناك، والإيطالى ينفذ التعليمات، حتى

بقلم : **د. نبيل فاروق**

استقر النموذج، وشهقت زوجات الجنرالات الآخرين انبهارا به، مما أعلن نجاحه التام..

وكان هذا يعنى أنه لم تعد هناك سوى خطوة واحدة..

صنع القالب الرئيسى، لإنتاج التمثال النهائى..

ولكن هذه الخطوة بالذات لم يكن من الممكن أن يقوم بها الإيطالى، فى منزل الجنرال (جولدمان)، وإنما كان من المحتم أن يتم عملها فى مرسم خاص، حيث تحيط به كل أدواته..

وهكذا، حمل (بجاروتى) النموذج إلى ورشته الخاصة، بمباركة الجنرال (جولدمان) وزوجته..

وكانت أطول ليلة، فى حياة الفنان الإيطالى..

لقد انتهى من عمل القالب الرئيسى، فى الثالثة والنصف صباحا، ثم أجرى اتصالا هاتفيا قصيرا..

وفى الرابعة إلا خمس دقائق، استقبل فى منزله ثلاثة زوار..

اليونانية (إيلينا)، وبصحبتها رجلان، توحى ملامحهما بأنهما من اليهود الشرقيين، الذين قضوا فترة طفولتهم وشبابهم فى (مصر)..

وحتى السادسة صباحا، انهمك أحد الزائرين مع (إيلينا)، فى عمل بعض التوصيلات الخاصة داخل القالب الرئيسى، ومد بعض الأسلاك، و..

وفى السادسة والربع، قام (بجاروتى) بصب المادة الرئيسية للتمثال فى القالب، فى حرص بالغ، وما إن انتهى من عمله، وراجعه بمنتهى الدقة، حتى غادر الزوار الثلاثة المكان، بنفس الخفة والحذر، اللذين وصلا بهما..

أما (بجاروتى)، فقد ألقى جسده على فراشه، فور انصرافهم، وغرق فى نوم عميق..

عميق للغاية..

وفى اليوم التالى، استيقظ (بجاروتى) فى التاسعة مساء، وارتدى ملابسه، ثم خرج لقضاء السهرة فى أحد الملاهى الليلية، وكأنه مجرد فنان لاه، لايقيم للدنيا وزنا..

ومع مقدم السبت التالى، حمل (بجاروتى) تمثاله الأنيق للغاية، إلى منزل الجنرال (جولدمان)..

وانطلقت شهقات التقدير والإعجاب والانبهار، من حلق زوجة الجنرالات، والزوجات الأخريات، اللاتى شعرن، إلى جوار مشاعرهن العادية، بموجة قوية من الحسد تجتاح نفوسهن، والجنرال يبدى إعجابه البالغ بالتمثال..

وفى الصباح الباكر، نقل الجنود التمثال النصفى إلى مكتب الجنرال..

وانتقل معه الحسد، إلى قلوب باقى الجنرالات..

وبإيعاز من أحدهم، اعترض الأمن على وضع التمثال فى مكتب الجنرال، قبل عرضه على المختصين، وفحصه بأجهزة كشف التنصت..

وعلى الرغم من غضب الجنرال (جولدمان) لهذا، إلا أنه طلب تطبيق كل إجراءات الأمن المعتادة، حتى يخرس الألسنة، ويجدع أنوف الحاسدين..

وبمنتهى الدقة، فحص رجال الأمن العسكريون التمثال، وأخضعوه لكل اختبارات التنصت الإلكترونية..

وجاءت النتيجة سلبية تماما..

وهكذا، احتل التمثال موقعه، فى صدارة مكتب الجنرال (موشى جولدمان)، دليلا على براعته وانتصاراته، فى حرب يونيو ١٩٦٧م..

واستعد (بجاروتى) للعودة إلى (إيطاليا) ولملم أوراقه وحمل حقيبة ملابسه، و..

وفجأة، انهال عليه سيل من الطلبات..

أكثر من عشر جنرالات، فى الجيش الإسرائيلى، يطلبون تماثيل نصفية لهم، بالزى الرسمى، بكل ماعليه من أوسمة ونياشين..

ولأن الأمر قد أقلقه كثيرا، اتصل (بجاروتى) بزميلته اليونانية (إيلينا) لاستشارتها، وأرسلت هى بدورها رسالة شفرية إلى (القاهرة)، استقبلها رجل المخابرات المصرى (م.ن) بنفسه، وقرأها فى إمعان، قبل أن يبتسم، قائلا:

- من كان يتصور كل هذا النجاح؟!

وبعد ساعة واحدة، عقد (م.ن) اجتماعا لرجاله، لدراسة الأمر، وتحديد ماإذا كان على (بجاروتى) أن يرحل، مكتفيا بمهمته الأولى، أم يستمر؛ لتحقيق المزيد والمزيد من النجاحات؟!..

وبعد مناقشات ومحاورات، ودراسات استمرت ست ساعات كاملة، اتخذ الرجال قرارهم باستمرار الإيطالى فى عمله، لاختراق مواقع قيادية أكثر، فى الجيش الإسرائيلى، وقال (م.ن) فى حزم:

- خبراؤنا واثقون من أن أجهزة التنصت، التى يتم زرعها داخل التماثيل، لن يمكن كشفها بالوسائل المعتادة، خاصة أنها ستظل خاملة لأكثر من عام كامل، قبل أن تبدأ عملها، لتنقل إلينا كل مايدور، داخل مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى، ثم إن مادتها الصلبة تجعلها غير قابلة للكسر بسهولة، مما يعنى أن انكشاف أمرها ليس بالأمر المحتمل، فى القريب العاجل، فلماذا لانربح أرضا أكثر؟!

وهكذا صدرت الأوامر إلى العميلة اليونانية (إيلينا)، التى نقلتها شفاهة إلى الفنان الايطالى، الذى مد فترة إقامته فى (إسرائيل)، لتلبية كل الطلبات..

وخلال شهر واحد، احتلت تماثيل (بجاروتى) معظم مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى.

وفى بداية عام ١٩٧٢م، انتهى (بجاروتى) من عمل آخر تماثيل الجنرالات، واتخذ قراره بالعودة إلى (إيطاليا)..

وفى فبراير ١٩٧٣م، وبعد أن نسى الجميع أمرها، بدأت التماثيل فى القيام بعملها، فى كفاءة تامة..

وبدأت المخابرات المصرية تستقبل عشرات التسجيلات الدقيقة، لكل مايدور فى مكاتب جنرالات الجيش الإسرائيلى، من أحاديث، ومحاورات، وقرارات.. وكل مايتردد فيها من معلومات وأسرار بالغة الخطورة، كان لها دور كبير، فى الإعداد والتقدير والتقرير، لكل مايتعلق بالمرحلة القادمة.. والمواجهة القادمة..

ومع منتصف سبتمبر ١٩٧٣م، تلقت (إيلينا) رسالة شفرية لاسلكية عاجلة، من المخابرات العامة المصرية، تحمل أوامر مشددة بمغادرة (إسرائيل)، والسفر فورا إلى (اليونان) أو (قبرص)..

ونفذت (إيلينا) الأوامر، وسافرت إلى (اليونان)، وهناك التقى بها رجل مخابرات مصرى، منحها جواز سفر خاصاً، من جوازات السفر المصرية، ثم اصطحبها إلى طائرة من طائرات (مصر للطيران) فى العشرين من سبتمبر، حملتها فى رحلة مباشرة إلى (القاهرة)..

وكانت مفاجأة حقيقية لها، أن تلتقى بالإيطالى (بجاروتى) فى مكتب (م.ن)، الذى استقبلهما معا بترحاب شديد، وأخبرهما أنهما سيبقيان فى (مصر)، حتى منتصف أكتوبر، حيث سترد أوامر أخرى بشأنهما..

وفى السادس من أكتوبر ١٩٧٣م، أدرك الاثنان لماذا صدرت إليهما الأوامر بالقدوم إلى القاهرة فورا..

لقد اندلعت الحرب بغتة، بين (مصر) و(إسرائيل)، وعبر المصريون قناة (السويس)، وسحقوا خط (بارليف)، وجن جنون القيادة الإسرائيلية، وطار صواب جنرالاتها، الذين راحوا يدرسون ويفحصون ويمحصون، فى محاولة لفهم أسباب تلك الهزيمة الرهيبة..

وحتى ثورتهم هذه، نقلتها أجهزة التنصت المزروعة في تماثيل (بجاروتى)، إلى آذان المصريين مباشرة..

وارتفع العلم المصرى على جانبى قناة (السويس)، وانبهر العالم كله بذلك الانتصار الساحق، الذى نسف أسطورة جيش (إسرائيل) الذى لايقهر، ورفع أسهم العرب عشرات المرات..

أما رجال المخابرات العامة المصرية، فقد ارتفعت هاماتهم فى ظفر، وانطلقت من حلوقهم الضحكة الأخيرة، وهم يتحدثون عن تلك العملية العبقرية، التى استخدموا فيها سلاحا جديدا، لم يخطر ببال الإسرائيليين قط..

سلاح الفن..

فن النصر..

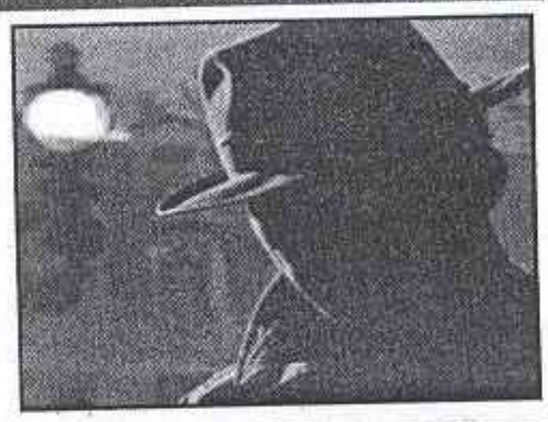

من ملفات الجاسوسية المصرية 2-2

كيف سقط سمير باسيلى الجاسوس الذى جند اباه فى الموساد

ردد الاسم ويبدو أنه لم يفهم.. إذ اعتقد أنهم جماعة من جماعات الهيبز التي كانت قد بدأت تنتشر في أوروبا وتطوف بالميادين هناك والشوارع. نعم الموساد.. ألا تعرف الموساد؟ نظرت في عينيه بعمق تستقرئ ما طرأ على فكره.. واقتربت بشفتيها منه وأذاقته رحيق قبلة ملتهبة أنهتها فجأة وقالت له: إنها المخابرات الاسرائيلية. وأكملت مص شفتيه لتستشف من حرارته رد فعله.

ولما رأت جين أن حرارة تجاوبه لم تفتر بل إن امتزاج الشفاه كان على أشده.. تعمدت ألا تحاول استقراء أفكاره، وهيأت رائعات اللذائذ، وأسبغت عليه أوصاف الفحولة والرجولة فأنسته اسمه ووطنه الذي هجره.. والذي خط بالقلم أول مواثيق خيانته.

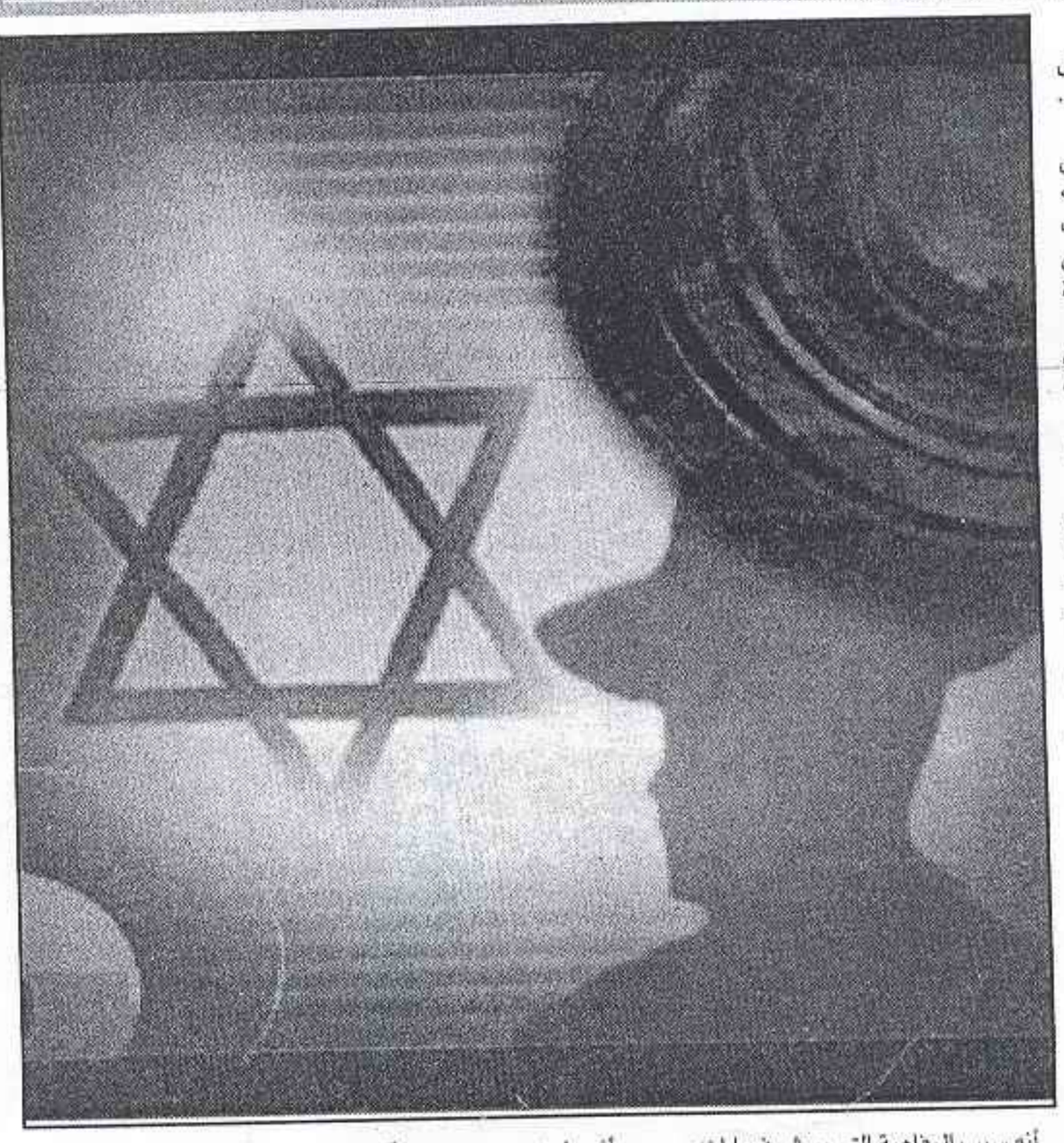

وبعد أن هدأت ثورة التدفق قالت له بخبث:
هل ستتركني أرحل؟ بيدك أن أظل بجانبك أو أعود الى تل أبيب. أجاب كالمنوم: بيدي أنا..؟ كيف؟ لا أفهم شيئاً.. عانقته في ود مصطنع وبكت في براعة وهي تقول:
لقد كلفوني بالتعرف على الشباب العربي الوافد الى ميونيخ، خاصة المصريين منهم وكتابة تقارير عما أعرفه من خلال حوارنا في السياسة والاقتصاد.. لكنني فشلت فشلاً ذريعاً بسبب اللغة. فالمصري أولاً ضعيف في الانكليزية لأنه يهتم بالدويتش، وهم أمهلوني لمدة قصيرة وعلى ذلك لا مكان لي هنا. وكان الأمر ثانوياً بالنسبة له:
ماذا بيدي لأقدمه لك؟ بتوسل شديد يغمسه الحنان قالت: تترجم لي بعض التقارير الاقتصادية من الصحف المصرية والعربية وليس هذا بأمر صعب عليك.
أفاق قليلاً وقال: وهل المخابرات الاسرائيلية تجهل ما بصحفنا لكي أقوم بالترجمة لها؟
أجابت في رقة: يا حبيبي أريد فقط أن أؤكد لهم أنني ألتقي بمصريين وأقوم بعملي معهم.. ولا يهمني إن كانوا يترجمون صحفكم أو لا يترجمونها. أريد أن أظل بجانبك هنا في ميونيخ. وطال الحوار بينهما وعندما خافت جين من الفشل في تجنيده.. أجهشت بالبكاء وهي تردد: لا حظ لي في الحب.. ويبدو أن صقيع الحياة سيظل يلازمني الى الأبد.
أخذتها نوبة بكاء هستيرية وهي تنعي حظها في الحب وافتقادها للدفء والحبيب.. فما كان منه إلا أنه جذبها الى صدره بقوة وهو يقول: مهما كنت.. لن أتركك ترحلين. وأمام رغبته الجامحة وخدعة المشاعر.. أسلم مصيره لها تفعل به ما تشاء.. فجاءته بأوراق وكتب بخطه سيرة حياته. ومعلومات عن معارفه وأقاربه ووظائفهم وعناوينهم في مصر. وطلبت منه بتدلل أن يمدها بأخبار مصر من خلال المصريين الوافدين الى ميونيخ. فلم يعترض بل كان شرطه الوحيد أن تظل بجانبه.

هكذا سقط سمير في براثن الموساد. وبعد أن غرق لأذنيه في مهامه التجسسية واستسهل المال الحرام.. تركته جين لتبحث عن غيره.. وانشغل هو باصطياد المصريين والتقاط الأخبار.. ووقع في مطار ميونيخ ينتظر الطائرات القادمة من مصر عارضاً خدماته على الوافدين للمرة الأولى.. الذين يسعدون بوجود مصري مثلهم يرافقهم الى حيث جاءوا.. ويقوم بتسهيل أعمالهم في المدينة. أشهر قليلة.. واستطاع أن يقيم شبكة واسعة من العلاقات.. خاصة مع بعض موظفي مصر للطيران وبعض المضيفين والمضيفات.. ويعود الى مسكنه في المساء ليكتب تقريره اليومي المفصل.. الذي يتسلمه منه مندوب من الموساد كل صباح.. ويقبض آلاف الماركات مكافأة له.

الطماع والمغامر وبعد أن استقرت أموره المالية كثيراً عرف أبوه طريقه.. فزاره في ميونيخ عدة مرات زاعماً أن المشاكل الاقتصادية في مصر تضخمت.. وأنه يطلب مساعدته في الإنفاق على أسرته.

كان سمير يتلذذ كثيراً بتوسلات والده. بل يرسل في طلبه خصيصاً ليستمع الى كلمات الرجاء تتردد على لسانه.. وليرى نظرات التودد تملأ وجهه. وتضخم الإحساس بالشماتة عند الابن تجاه أبيه حتى وصل الى درجة الانتقام.. وكان الانتقام بشعاً ويفوق كثيراً حجم الترسبات التي قبعت برأس الابن تجاه أبيه.

لقد دبر سمير كميناً محكماً لأبيه أوقعه في شراكه عندما صحبه الى مكتب هانز مولار ضابط المخابرات الإسرائيلية في ميونيخ.. والذي يبدو في ظاهره مكتباً للمقاولات.

ولأن وليم فريد باسيلي يعشق النقود.. أوضح له هانز أنه سبب الرفاهية التي يعيش فيها ابنه سمير. وأنه على استعداد أيضاً لبدء علاقة عمل بينهما وتأسيس شركة تجارية كبرى في القاهرة تدر عليهما ربحاً وفيراً.

عندها.. تخيل وليم شركته الجديدة والأموال التي ستغدق عليه.. تخيل أيضاً مقعده الوثير ومكتبه الفخم وسكرتيرته الجميلة وسيارته الحديثة.. وسافر بخياله يجوب شوارع القاهرة يختار موقع المكتب. فأيقظه هانز قائلاً إنه بحاجة الى معلومات اقتصادية عن السوق المصرية.. يستطيع من خلالها أن يحدد خطوطاً عريضة لنشاط الشركة. ولبى وليم الدعوة وجلس عدة ساعات يكتب تقريراً مفصلاً عن احتياجات السوق، وأحوال الاقتصاد في مصر.

دهش هانز لدقة المعلومات التي سردها وليم ومنحه فوراً ١٠٠٠ مارك، ووعده بمبلغ أكبر مقابل كل تقرير يرسله من القاهرة.

نشط الجاسوس الجديد في كتابة التقارير وإرسالها الى ألمانيا وفي الزيارة التالية لميونيخ فوجئ وليم بثورة هانز بسبب سطحية تقاريره المرسلة اليه. وقال له إن المكتب الرئيسي على استعداد لدفع خمسة آلاف مارك للتقارير المهمة وأنه على استعداد لتدريبه على كيفية جمع المعلومات وكتابتها بعد تصنيفها. وعندما سأله وليم عن المكتب الرئيسي أجابه بأنه في تل أبيب، وهو مكتب مختص بالشؤون الاقتصادية في دول العالم الثالث.

ارتبك وليم فناوله هانز خمسة آلاف مارك في مظروف مغلق قائلاً إنه هدية من إسرائيل من أجل التعاون المخلص. أما التقارير فلها مقابل أيضاً.. وتسلم وليم خمسة آلاف أخرى فانكمش في مقعده بعدما أدرك حقيقة موقفه ووضعه.

طمأنه هانز بأن علاقتهما لن تكشفها المخابرات المصرية، لأن هذه التقارير ليست مادة سرية فهي موجودة في الصحف القاهرية، وشيئاً فشيئاً.. تطورت العلاقة بين هانز ووليم الى علاقة بين ضابط مخابرات وجاسوس خائن تحددت بدورات تدريبية خاضها الأب على يد ضباط فنيين وانتفخت جيوبه بآلاف من الماركات بعدما كثرت تقاريره التي كان يجيد كتابتها بعد تحليلها.. وتعمده مصادقة ضباط القوات المسلحة والعسكريين المسرحين من المحيطين به.

(١) وفي كل زيارة لميونيخ كان هانز يحذره من قراءة قضايا التجسس في الصحف المصرية حتى لا يرتبك ويقع في قبضة المخابرات المصرية التي لا ترحم الخونة. وطمأنه على أسلوب عملهم الذي لا تستطيع المخابرات العربية كشفه. وحتى وإن حدث.. فهم سيتولون رعاية أبنائه والإنفاق عليهم من بعده "وقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن إسرائيل تتنصل من الخونة بعد سقوطهم وأنها تأخذ فقط وتمنح قبل السقوط" [2]

أما الابن سمير.. فقد اتسعت دائرة نشاطه في التعرف على المصريين الوافدين وتصيد الأخبار منهم من خلال الدردشة العادية.. وهؤلاء الذين فشلوا في الحصول على عمل.. وشرع بالفعل في تجنيد ثلاثة من المصريين. استطاعوا الرجوع الى مصر وأخبروا جهاز المخابرات المصرية بتصرفات سمير.. ودوره في محاولات الإيقاع بهم لصالح المخابرات الإسرائيلية.. بواسطة فتيات جميلات يجدن استعمال لغة الجسد.

لقد جاءت البلاغات الثلاثة في فترة قصيرة ومن أشخاص لا يعرفون بعضهم، وكانت خطة المخابرات المصرية لاصطياد سمير وأبيه محسوبة بدقة بالغة.. وإحكام. الحكم العادل

كان وليم قد افتتح مكتباً كبيراً للمقاولات في القاهرة استطاع من خلاله أن يمارس عمله في التجسس.. وجعل منه مقراً للقاءاته بالأشخاص الذين يستمد منهم معلوماته.. خاصة من العسكريين الذين أنهوا خدمتهم. حيث إنهم في الغالب يتفاخرون دائماً بدورهم وبعملهم السابق بصراحة مطلقة.. أمام الأشخاص الذين يبدون انبهاراً بما يقولونه ويسردونه من أسرار عسكرية وتفاصيل دقيقة.

وفي أحد الأيام.. فوجئ وليم برجل ثري عائد من الخليج.. يريد الاستفسار عن إمكانية فتح مشاريع استثمارية وعمرانية كبيرة.

كان الرجل قد أمضى في الخليج سنوات طويلة ويجهل حاجة السوق المصرية للمشروعات.. وتباهى وليم في سرد خبراته مستعيناً بإحصائيات تؤكد صدق حديثه.. واستطاع إقناع المصري الثري بقدرته على اكتشاف حاجات السوق وإدارة المشاريع. وبدا أن الرجل قد استشعر ذلك بالفعل إلا أن حجم ثروته ورغبته في عمل مشاريع عملاقة.. استدعى من وليم الاستعانة بخبرة سمير فكتب له يطلب مجيئه وألح عليه في ذلك.. وجاءه الرد من ابنه يخبره بميعاد قدومه.

وما هي إلا أيام حتى جاء الابن الى القاهرة.. بصحبته شاب ألماني وصديقته أرادا التعرف على الآثار الفرعونية.. فصحبهما سمير الى الأقصر حيث نزلوا بفندق سافوي الشهير على النيل.. ثم مكثوا يومين في أسوان وعادوا الى القاهرة.

كان سمير طوال رحلته مع صديقيه يقوم باستعمال كاميرا حديثة ذات عدسة زووم في تصوير المصانع والمنشآت العسكرية طوال رحلة الذهاب والعودة.. وفي محطة باب الحديد حيث الزحام وامتزاج البشر من جميع الجنسيات.. وقف سمير امام كشك الصحف واشترى عدة جرائد. وبعدما هموا بالانصراف.. استوقفه شاب انيق يرتدي نظارة سوداء برفقته أربعة آخرين وطلب منه أن يسير بجانبه في هدوء.

ارتسمت على وجه سمير علامات الرعب.. وحاول أن يغلفها ببعض علامات الدهشة والاستفهام لكنه كان بالفعل يرتجف.

اعتذر الرجل الأنيق للضيف الألماني وصديقته.. وودعهما سمير بلطف ومشى باتجاه البوابة الى ميدان رمسيس يجر ساقيه جراً محاولاً أن يتماسك.. لكن هيهات فالموقف صعب وعسير.

وعندما دلف الى داخل السيارة سأله الرجل الأنيق ذو النظارة: أتريد أن تعرف الى أين تذهب؟
أجاب بصوت مخنوق: أرف !!
وعندما فكر في مصيره المحتوم.. أجهش بالبكاء.. ثم أغمي عليه بعدما تملكه الرعب وأصابه الهلع.. وحملوه منهاراً الى مبنى المخابرات العامة ليجد والده هناك.. نظراته أكثر هلعاً وصراخه لا يتوقف وهو يردد:
سمير هو السبب !!

واكتشف وليم أن الثري القادم من الخليج ما هو الا ضابط مخابرات.. واكتشف أيضاً أن تقاريره التي كان يرسلها الى الخارج تملأ ملفاً كبيراً.

ولم يستغرق الأمر كثيراً. فالأدلة دامغة والاعتراف صريح، وكان الحكم في مايو ١٩٧١ عادلاً لكليهما. الإعدام للابن و١٥ عاماً أشغال شاقة للأب.. وعار أبدي للأسرة حتى الجيل المائة.. وكانت النهاية الطبيعية لكل خائن باع النفس والوطن.

عندما فكر في مصيره المحتوم.. أجهش بالبكاء.. ثم أغمى عليه بعدما تملكه الرعب وأصابه الهلع.. وحملوه منهاراً الى مبنى المخابرات العامة ليجد والده هناك.. نظراته أكثر هلعاً وصراخه لا يتوقف وهو يردد: سمير هو السبب !!

العدد السابع والخمسون - الإصدار الثانى - الأربعاء ١٩ أبريل ٢٠٠٦ م - ٢١ ربيع أول ١٤٢٧ هـ

يا بنايين. يا حدادين. يا حجارين
يا مبيضين. يا نقاشين. يا نجارين
يا كل يد طاهرة
تعالوا نبنى القاهره
صلاح جاهين. مختارات

نال جزاءه بالاعدام رغم دفع المحامى بجنونه

«فؤاد» باع وطنه مقابل ثلاثمائة دولار لكن المخابرات المصرية تمكنت من ضبطه متلبساً

كان (إبراهيم) هو ضابط المخابرات الإسرائيلى، الذى استقبل (فؤاد) هناك، وجلس معه لثلاث ساعات كاملة، سأله خلالها عن نفسه، وعن أقاربه، وجيرانه، وزملاء عمله السابق، وأصدقائه، ثم طلب منه تدوين كل هذا بخط يده، وبعدها أحضر خريطة كبيرة (للإسكندرية)، وراح يسأله فيها عن عدة مواضع، وبعدها منحه خمسين دولاراً، وطلب منه أن يذهب للإقامة فى فندق (ماجستيك)، وأخبره أن ينتظر اتّصاله، خلال بضعة أيام...

ولم يمض وقت طويل، حتى تم الاتّصال، وبدأ (فؤاد) معه مرحلة التدريبات الأوّلية، ليتعلم خلاها استخدام الأحبار السرية، والشفرة، والتصوير بالآلات الصغيرة (الميكروفيلم)، والتعرف على كل أنواع الأسلحة، وتمييزها، وكيفية الحصول على مختلف المعلومات...

وفى نهاية الدورة التدريبية، أخبره (إبراهيم) أن راتبه الشهرى سيبلغ ثلاثمائة دولار، بخلاف ما سيحصل عليه من مكافأة، قدرها خمسون ألف دولار، لو كشف لهم أمر أى جاسوس مصرى داخل (إسرائيل)، ونصف مليون دولار دفعة واحدة، لو أعلمهم يوماً بموعد أى هجوم مصرى على (إسرائيل).

ومع كل تلك المغريات، عاد (فؤاد) إلى (مصر) حاملاً لزوجته وأولاده عشرات الهدايا، فى محاولة لاكتساب مودتهم مرة أخرى، بعد أن هجرهم لعدة أشهر دون مبرر، وأخبر الجميع أنه قد حصل على عمل خاص بالترجمة فى (ألمانيا)، وأنه يعمل فى بيع السيارات أيضاً..

وعندما استقر به المقام، بدأ عمله القذر على الفور، وراح يعقد الصداقات مع عشرات الموظفين، والعاملين فى الأماكن الحساسة، ويسعى لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات، وأخذ يُرسل كل ما يحصل عليه إلى صندوق بريد رقم (٣٢٩) فى (لندن)، باسم مستر (طومسون)...

ومع بداية عام ١٩٧٢م، وصلته الأوامر بالسفر فوراً إلى (لندن)، وهناك التقى بضابط المخابرات الإسرائيلى (إبراهيم)، الذى قدّم له زميله (بوب)، الذى يعمل فى السفارة الإسرائيلية فى (لندن)، وأخبره أن هذا الأخير سيلقنه دورة تدريبية جديدة..

وبعد تلك الدورة التدريبية المتقدمة، عاد (فؤاد) إلى (مصر)، وهو يحمل ألف دولار جديدة، مع مكافأة إضافية، لاستئجار شقة خاصة، أقنع ضباط المخابرات الإسرائيلية بأنها ستفيد عمله كثيراً..

وكانت هذه الشقة، التى استأجرها فى شارع (خالد بن الوليد) فى (ميامى)، هى وكر الجاسوسية الجديد، والمكان الذى يستضيف فيه (فؤاد) أصدقاءه، ليُقدم لهم كل خدماته القذرة، من خمر ومخدرات ونساء..

وكلّما انغمس المترددون عليه فى مستنقع أقذاره، أمكن أن ينتزع منهم المزيد والمزيد من المعلومات، التى يُرسلها بانتظام إلى ذلك العنوان فى (لندن)..

ولقد سافر ابنه الأكبر إلى دورة دراسية فى (روما)، وعاد منها ليبثه شكوكه فى أحد زملائه، الذى كان يختفى لبعض الوقت، ثم يعود بمبالغ كبيرة، يُنفقها بمنتهى البذخ، قبل أن يختفى مرة أخرى، وهكذا...

وفى قلق شديد، قال له ابنه:

أخشى أن يكون ذلك الزميل جاسوساً للعدو الإسرائيلى، وأعتقد أنه من واجبى أن أبلغ المخابرات المصرية بشأنه..

انزعج (فؤاد) من الفكرة بشدة، وبذل جهداً شديداً لإقناع ابنه بتجاهل الأمر، وبعدم إبلاغ المخابرات المصرية، بحجة أن هذا ليس من شأنه، وأنه سيُقحم نفسه فى مشكلات لا حصر لها لو فعل...

وفى أوّل مناسبة، سافر (فؤاد) إلى (روما)، والتقى بضابط المخابرات الإسرائيلى هناك (دانيال)، وأخبره باسم الشاب، وبما لاحظه ابنه..

ولقد أسعدت هذه المبادرة رجل المخابرات الإسرائيلى بشدة، حتى إنه منح (فؤاد) ألفاً وخمسمائة دولار، مكافأة، وطلب منه مواصلة عمله الناجح فى (مصر)...

وعندما عاد (فؤاد) إلى (مصر)، وقلبه يرقص طرباً للمكافأة السخية التى حصل عليها، لم يكن يُدرك أن رفيق مقعده فى الطائرة، ذلك البسيط الهادئ، الذى انهمك فى قراءة رواية للكاتب (إحسان عبد القدوس) طوال الوقت، لم يكن سوى رجل المخابرات المصرى (حمدى)، الذى يتولى قضيته منذ فترة ليست بالقصيرة..

فكما كانت شقة (خالد بن الوليد) وسيلة جديدة لمزيد من التجسس، فقد كانت أيضاً أوّل الخيط الذى سيلتف حول عنق الخائن فى النهاية..

فمن بين رواد تلك الشقة، كان أحد المتعاونين مع جهاز المخابرات المصرى، وهو أحد موظفى إحدى شركات الملاحة البحرية، التى تتولى أعمال ميناء (الإسكندرية)..

ولقد سقط (فؤاد) فى الفخ، دون أن يدرى، وراح يسأل (ممدوح) عن السفن السوفيتية، التى تصل إلى الميناء، وعمّا إذا كانت تُفرغ بعض صناديق الأسلحة أم لا...

وبمهارة تم تدريبه عليها جيداً، منحه (ممدوح) بعض الأجوبة، التى لا تشفع أو تنفع، ثم خرج من الشقة ليتّجه إلى مكتب المخابرات فى (الإسكندرية)، ويُبلغهم بما لديه على الفور..

وعندما تلقى (حمدى) تلك المعلومات، راجعها مرتين، قبل أن يقول لفريق العمل التابع له:

- هكذا تأكدت شكوكنا يا رجال... الرجل جاسوس بالفعل..

كان هذا يعنى أن رجال المخابرات المصرية قد أيقنوا من أنهم يتعاملون مع جاسوس خائن، بعد أن التقطت أنوفهم رائحة خيانته، من خلال أسفاره المتعددة، وخبراتهم القوية فى التعامل مع المخابرات الإسرائيلية وعملائها...

ولكنه لم يكن يعنى أن بإمكانهم الإيقاع به...

فهذا كان يحتاج إلى دليل مادى قوى، ولحظة مناسبة، يتم اختيارها بدقة بالغة...

وهكذا بدأت مرحلة المراقبة..

والتتبع.. وجمع الأدلة والمعلومات..

وبعد عودته من رحلة (روما)، التقى (حمدى) بفريق العمل، وعرض عليهم ما جمعه من صور واضحة، وأحاديث مسجلة، تجمع بين (فؤاد) وضابط المخابرات الإسرائيلى (دانيال)، ثم تراجع فى مقعده، قائلاً فى حسم:

- أعتقد أن العملية قد نضجت، وحان قطافها أيها السادة.

ناقشوا الأمر لنصف ساعة أخرى، قبل أن يوافقوه الرأى، ويتم اتّخاذ قرار إنهاء العملية، وإلقاء القبض على الجاسوس..

وبعد الحصول على إذن النيابة العسكرية، واختيار موعد مناسب للغاية، تم اقتحام شقة (ميامى)، فى السابعة صباحاً، على نحو استيقظ معه (فؤاد) مذعوراً، وهو يصرخ:

- ماذا هناك؟!.. من أنتم؟!.. ماذا تفعلون هنا؟!

واجهه (حمدى) فى حزم صارم، وهو يقول:

- نحن من المخابرات العامة المصرية، وأعتقد أنك تعلم جيداً ماذا نفعل هنا يا (فؤاد)..

وكان (فؤاد) يعمل بالفعل، فقد امتقع وجهه وشحب، وزاغت عيناه فى شدة، وعجزت ساقاه عن حمله، فتهاوى جالساً على أقرب مقعد، وانعقد لسانه فى حلقه، فراحت شفتاه تتحرّكان، دون أن يخرج من بينهما حرف واحد، فى حين انتشر رجال المخابرات فى المكان، لجمع الأدلة، والبحث عن كل ما يعنيهم

ولقد كان هناك دليل قوى للغاية، يكفى وحده لإدانة (فؤاد) وإعدامه..

ورقة تحمل، بخط يده، كل ما حصل عليه من معلومات، فى سهرة الأمس، والتى دوّنها استعداداً لإرسالها إلى عنوان المخابرات الإسرائيلية فى (لندن)..

وانهار (فؤاد) تماماً، وأدلى باعتراف تفصيلى كامل ذيّله بتوقيعه، دون أدنى ضغط إكراه، ودموع الندم تغمر وجهه كله...

بعد فوات الأوان..

وتمت محاكمة (فؤاد)، وصدر الحكم بإعدامه شنقاً بالفعل، وصدّق رئيس الجمهور على الحكم، وتم إيداع الجاسوس، (ليمان طره)، لتنفيذ الحكم...

ثم حدث ما حدث...

وتم إيقاف تنفيذ الحكم...

ولكن رجل المخابرات (حمدى) كان على حق..

لا يمكن أن يفلت الجاسوس من العقاب أبداً...

فلقد فحصت المحكمة العسكرية كل ما قدّمه محامى المتهم، وانتهت إلى أن الدفع بجنونه أمر غير مقبول إطلاقاً، إذ إن ممارسة للجاسوسية على هذا النحو، تؤكّد سيطرته التامة على عقله وتصرفاته، ومسئوليته الكاملة عن كل ما ارتكبه من أفعال تضر الوطن، وتسىء إليه بشدة، فى زمن الحرب...

وفى الثلاثين من يناير، أى بعد أسبوعين فحسب، ارتفعت الراية السوداء مرة أخرى ع (ليمان طرة)...

وسيق الجاسوس إلى المشنقة..

وفى هذه المرة، تم تنفيذ حكم الإعدام، ول الجاسوس جزاءه العادل..

وشعر (حمدى) بالارتياح..

فالآن فقط زالت تلك الرائحة...

رائحة الخيانة.

عملية بيولوجية

انهمر الجليد، على نحو غير مسبوق، فى تلك الفترة من اواخر الثمانينيات، على العاصمة السوفيتية (موسكو)، التى تغطت كلها برداء ابيض هش، فى واحد من اكثر فصول الشتاء برودة، منذ الحرب العالمية الثانية، وعلى الرغم من الشوارع الخالية، كان النشاط يبلغ ذروته المعتادة، فى مبانى المخابرات السوفيتية (كى. جى. بى) وعبر أحد ممرات الجناح الطبى، فى قبو المبنى الرئيسى لها، تعالى وقع قدمى أحد الرجال، وهو يتجه نحو منطقة خاصة، تم عزلها باجراءات صارمة مشددة، وتوقف، ليسأل أحد افراد طاقم الحراسة الخاص بها:

- هل أجروا الفحوص الدورية فى موعدها؟!

أومأ الحارس برأسه إيجابا، وهو يشد قامته فى احترام، قائلا بلهجة عسكرية صرفة:

- فى تمام منتصف الليل يا سيدى.

هز رجل المخابرات رأسه، وكأنما ارتاح للجواب، ثم أشار بيده للحارس، قائلا بصرامة نمطية:

- افتح الباب.

تردد الحارس لحظة، وهو يراجع فى ذهنه تلك الأوامر الصارمة التى تلقاها، بشأن ذلك المريض بالذات، ثم قال:

- سيدى.. أنت تعلم أن..

قاطعه رجل المخابرات، فى صرامة قاسية، وهو يشير إلى ذلك الشعار الخاص على صدره، والذى يشف عن كونه احد افراد القيادة العليا:

قلت: افتح الباب.

لم يكن امام الحارس، والحال هكذا، إلا أن يطيع الأوامر، فانزاح جانبا وضغط ازرار الرتاج الالكترونى لقاعة العزل الطبى، مفسحا المجال لرجل المخابرات السوفيتى، الذى دلف الى القاعة، واغلق بابها خلفه، ثم اتجه إلى حجرة جانبية، داخل منطقة العزل الطبى، وارتدى زيا واقيا خاصا، قبل أن يعبر ممرا، تعرض زيه فيه إلى اشعة فوق بنفسجية خاصة، لتطهيره من كل ما علق به، من اتربة وميكروبات، حتى وصل الى قاعة صغيرة، استقر فى منتصفها مريضا شاحب الوجه، شديد النحول، انتشرت فى الاجزاء الظاهرة من جسده بثور عجيبة، توحى ملامحه بأنها مؤلمة للغاية، على الرغم من الطاقم الطبى الذى يحيط به، فى ازياء واقية مماثلة، ومن الاسلاك والأنابيب الدقيقة، التى تتصل بجسده، فى مواضع مختلفة، لتمده بالأدوية المخففة للآلام، وتعمل على قياس جميع معدلاته الحيوية طوال الوقت..

وفى حزم واضح، ودون أن يتبادل كلمة واحدة، مع افراد الطاقم الطبى، اتجه رجل المخابرات إلى المريض، والتقط من جيبه محقنا، وكشف عن ذراعه، و...

«ماذا تفعل بالضبط؟!..»..

القى احد افراد الطاقم الطبى السؤال، وهو يعترض طريق رجل المخابرات فى حزم، إلا أن هذا الاخير ازاح يده فى صرامة، وهو يدس ابرة المحقن، فى ذراع المريض، مجيبا:

- القيادة تريد عينة عن دمه.

قال الرجل فى عصبية، وهو يعاود محاولة منعه:

- ولكنهم حصلوا عليها بالفعل، منذ نصف ساعة تقريباً.

فى هذه المرة، قبض رجل المخابرات على أصابعه، فى قوة مؤلمة، وأزاحها بعيدا فى قسوة، وهو يسحب بضع سنتيمترات، من دماء المريض، قائلا:

- ويريدون عينة اضافية.

ثم انتزع إبرة المحقن، فى ذراع المريض، وأخرج من جيبه قنينة صغيرة، ذات غطاء مطاطى محكم، تحوى سائلا

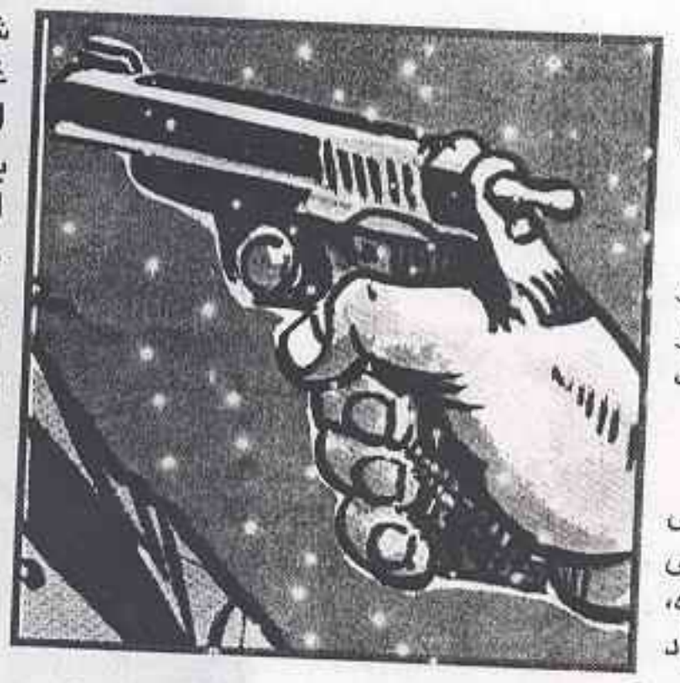

شفافا، ودفع إبرة المحقن فى غطائها، لينقل إليها عينة دم المريض، وألقى المحقن الفارغ بعيدا فى لامبالاة، واتجه نحو المخرج، فى سرعة كبيرة نسبيا، وهو يلتقط من جيبه علبة معدنية خاصة، وضع داخلها تلك القنينة، التى تحوى عينة دم المريض، ليضمن عدم تأثرها بالأشعة فوق البنفسجية، فى ممر التطهير، فى حين توقف رجل الطاقم الطبى بضع لحظات مبهوتا، قبل أن ينتفض فى عنف ويلتقط سماعة الهاتف الداخلى، ويطلب رقما خاصا..

رقم إدارة أمن المبنى..

وفى الوقت الذى تلقى فيه الكولونيل (فريدريك ماينهوف)، مسئول الأمن الداخلى الخبر، كان الماجور (رابينوفيتش) قد غادر المكان بالفعل، فى سيارته الخاصة، حاملا معه عينة الدم، التى تحوى الفيروس النشط (إكس - ١٠٧).. اخطر الاسلحة البيولوجية، التى عرفها القرن العشرون.. على الإطلاق.

●●●

دب نشاط يفوق المألوف فى مبنى المخابرات المركزية الامريكية فى (لانجلى) بولاية (فيرجينيا)، واجتمع فريق محدود من الرجال، فى قاعة الاجتماعات المؤمنة، الخاصة بالأمور بالغة الأهمية والسرية والخطورة، ورأس الاجتماع رئيس قسم الشئون السوفيتية شخصيا، وبدأ حديثه قائلا:

- أيها السادة.. لقد نجحنا اخيرا فى الحصول على عينة (اكس - ١٠٧).

تفجر الخبر على النحو المطلوب، فى كل الوجوه، فاتسعت العيون، وتهللت الاسارير، وبدت لهفة فرحة على الوجوه، ولكن رئيس القسم تابع، فى توتر صارم:

- ولكنها لم تصل الينا بعد.

تجمدت الانفعالات على الوجوه، وتطلع الكل إلى الرئيس فى تساؤل قلق متوتر، جعله يستطرد:

- عميلنا الذى نطلق عليه فى ملفاتنا اسم (جوجول)، قام بخطوة شديدة الجرأة، بعد أن تبين استحالة الوصول إلى العينة بأية وسيلة أخرى، وجازف بأمنه الشخصى، واقتحم المعزل الطبى الخاص، فى قلب المخابرات السوفيتية، وحصل على العينة، والسوفيت إطلقوا صفارة الانذار الكبرى، واعلنوا حالة الطوارىء القصوى، واتخذوا كل الاجراءات اللازمة، لمنع (جوجول) من عبور حدودهم، أو حتى من الظهور فى أى مكان علنى، ولو لحظة واحدة.. رجالهم فى كل الشوارع والطرقات، وعند نقاط الحدود، وفى الجبال، والموانئ، والمطارات، ويرصدون حركة السيارات، والمارة، وحتى العيادات، والمستشفيات، وملاجىء العجزة والمتسولين، باختصار.. لم يتركوا ثغرة واحدة، يمكن أن تنفذ منها بعوضة واحدة، دون علم المخابرات السوفيتية، فنظرا لأن (إكس - ١٠٧) هو أخطر سلاح بيولوجى عرفه التاريخ، وامتلاكهم له، يجعلهم قادرين على تهديدنا، على نحو لم نعرفه من قبل، فلو امكننا الحصول على عينة منه، فسيمنحنا هذا القدرة على دراسته، وتنميته فى وسيط مناسب، وصنع مصل واق منه ايضا، لهذا لن يسمحوا بوقوعه فى قبضتنا ابدا.

ثم مال إلى الأمام، ودق سطح مكتبه بقبضته، مضيفا فى حزم اكثر:

- ولهذا ايضا لابد أن نحصل على العينة، التى يملكها عميلنا (جوجول) الآن.. وبأى ثمن، ولأنها عملية وقت، فمن الضرورى أن تتحرك بمنتهى السرعة، وهناك خطة طوارىء كانت معدة سلفا، لكى يتم تنفيذها، فى ظروف كهذه.. خطة تعتمد على التحرك السريع، بأقل عدد من الأفراد، بحيث لاتثير انتباه وتوتر المخابرات السوفيتية، أو أجهزة الأمن الأخرى هناك..

سأله (داريل) فى اهتمام:

- وما المقصود هنا بعبارة (أقل عدد من الافراد)؟.. ما العدد المقترح فى الخطة بالضبط؟!

انعقد حاجبا رئيسه فى شدة، وهو يلوذ بالصمت بضع لحظات، قبل أن يجيب فى حزم:

- رجل واحد.

ثم مال نحوه، مضيفا:

- أنت

والتقى حاجبا (داريل)، ولكنه لم ينطق بحرف..

حرف واحد..

●●●

على الرغم من إدراكه الشديد لدقة وصعوبة وخطورة مهمته، بدا (سام داريل) شديد الهدوء والتماسك والثقة وهو يغادر مطار (موسكو)، يتجه مباشرة نحو سيارة البعثة الدبلوماسية الأمريكية، التى تنتظره خارجه، والتى انطلق بها السائق، عبر شوارع (موسكو) الواسعة، دون أن يتبادل كلمة واحدة مع (داريل)، الذى بدا اشبه بالنائم، وهو مسترخ تماما فى المقعد الخلفى، ومسبل الجفنين، على الرغم من أن عقله كان

بقلم: د. نبيل فاروق

يعمل بمنتهى السرعة، ومنتهى الكفاءة أيضا..

«إنهم يتبعوننا»..

نطق السائق بالكلمة فى هدوء، شأن من ينقل خبراً عادياً، فمط (داريل) شفتيه، وغمغم دون أن يفتح عينيه:

- من الطبيعى أن يفعلوا

كان وكأنه يستعيد كل نشاطه وحيويته مع عبارته، بعد رحلة السفر الطويلة، وسأل السائق فى حماس:

- بعد كل هذه الفترة فى (موسكو).. هل تحفظ شوارعها جيداً.

أومأ السائق برأسه إيجابا، فقال (داريل)، فى لهجة أقرب الى الجذل:

- ماذا تنتظر إذن؟!

لم يكد السائق يسمعه، حتى انحرف بالسيارة بحركة مباغتة، ووثب بها نحو شارع جانبى ، وانطلق عبره بسرعة كبيرة فصاح قائد سيارة المخابرات السوفيتية التى تتبعها:

- يا للسخافة!... إنهما يعلمان

- وكان هذا يعنى أن (داريل قد قرر اللعب بأوراق مكشوفة، فى قلب (موسكو) ، على الرغم من كل مايحمله هذا من مجازفة وخطورة..

وفى مقر القيادة، استشاط (ماينهوف) غضبا، وقرر أن يجارى الموقف، وأن يلعب أيضا بأوراق مكشوفة، حتى أنه استجاب فورا لاقتراح زميله (فيدروف) ، عندما قال فى صرامة:

- لو أنك تريد أن تربح هذه المعركة، وأن تستعيد (إكس - ١٠٧) ، اترك لى قيادة هذه العملية..

وفى نفس الوقت ، الذى انتقلت فيه القيادة، من (ماينهوف) إلى (فيدروف) ، كان رجل المخابرات السوفيتى المنشق (أندريه رابينو فيتش)، المعروف لدى المخابرات الأمريكية باسم (جوجول) ، يشعر بتوتر شديد ، وهو مختبىء فى قبو حانة قديمة ، يضرب أخماسا فى أسداس ، حول مصيره المنتظر، خاصة مع الجلبة الشديدة ، التى سمعها فى الحانة من فوقه، فقد كان رجال المخابرات السوفيتية يقتحمون تلك الحانة الصغيرة، فى أطراف (موسكو) ، وقائدهم يقول لرجاله فى صرامة:

- فتشوا كل شبر هنا.. اقلبوا المكان رأسا على عقب ، لو اقتضى الأمر، وتأكدوا من أن الصيد ليس هنا.

حبس (رابينوفيتش) أنفاسه، فى القبو السرى للحانة، وراح قلبه يخفق بمنتهى العنف، مع وقع الأقدام العسكرية الثقيلة فوق رأسه ، وهو يتوقع انقضاض الجنود عليه فى أية لحظة..

ولكن التفتيش انتهى، بعد مابدا له أشبه بدهر كامل، وانصرف الجنود ، وبدأ (رابينوفيتش) يستعيد هدوءه، و.. «أظنك تنتظرنى.»

انتفض (رابينوفيتش) فى عنف، عندما صدم التساؤل أذنيه، بتلك اللغة الانجليزية الصرفة، واستدار بحركة حادة، يصوب مسدسه إلى ذلك الغريب، الذى تابع بمنتهى الهدوء:

- اطمئن يارجل ، ربما لا أكون من تنتظره، ولكننى مازلت أنتمى إلى الجبهة الصديقة.. أنا عميل من المخابرات البريطانية.

كانت مفاجأة حقيقية لرجل المخابرات السوفيتى المنشق، إلا أنه تجاوزها بسرعة وهو يقول:

- بريطانى أو أمريكى، أو حتى هولندى، هذا لا يعنينى كثيرا.. المهم ، هل لديك خطة لاخراجى من هنا؟

قبل أن يجيب البريطانى، أو ينطق حرفا واحدا، وثب فريق من الجنود السوفيت داخل القبو، فى سرعة ومهارة، وانقضوا على كل من فيه بمنتهى العنف ، واستدار عميل المخابرات البريطانى، فى محاولة لمقاومة الجنود، إلا أن أحدهم هوى على مؤخرة عنقه بكعب مدفعه، فى نفس اللحظة التى انقض فيها جنديان آخران على (رابينوفيتش) ، وكبلا حركته تماما وثالث يلصق فوهة مدفعه الآلى بعنقه..

وفى هدوء تام، وبعد ضمان السيطرة الكامله على الموقف، هبط (فيدروف) إلى القبو، وهو يقول فى هدوء، وبلهجة انجليزية سليمة:

- هل أفسدت لقاءكما الطريف هذا؟!

نهض العميل البريطانى ، وهو يمسك مؤخرة عنقه ، وقال فى شىء من الحزم والصرامة:

- أحذرك ياماجور إننى أحمل جواز سفر دبلوماسيا، و..

قاطعه (فيدروف) فى برود، وهو يتخذ مقعدا صغيرا ، فى منتصف القبو، وينزع قفازيه فى هدوء:

- هذا لن يصنع فارقا، فلا أحد يمكنه أن يعترض على حادثة سير، احترق بسببها قائد سيارة دبلوماسية بريطانى ، حتى تفحمت جثته.

أدرك البريطانى مايعنيه رجل المخابرات السوفيتى بقوله، فأطبق شفتيه فى توتر ، فى حين بدأ (رابينوفيتش) شديد التوتر، وهو يقول:

- الرحمة أيها الرفيق (فيدروف).. الرحمة.

رمقه (فيدروف) بنظرة باردة كالثلج، قبل أن يتجاهله تماما، ويدير عينيه إلى البريطانى ، قائلا:

- دعنى أولا أهنئكم ، على التعاون المشترك، بين المخابرات المركزية الأمريكية، والمكتب السادس البريطانى الواقع أنكم نجحتم فى خداعنا، على نحو مبتكر وطريف، فقد جذب الأمريكى انتباهنا ، وشتت تفكيرنا طوال الوقت، ونحن نترقبه، ونتعقبه عبر (موسكو) كلها، حتى تلك الحانة الصغيرة ، فى شرق المدينة، فى حين تقوم أنت باللقاء الفعلى أيها البريطانى، هنا فى أقصى الغرب، ولكن من سوء حظك أننى راجعت كشوف الوافدين فى المطار، وتذكرت وجهك على الفور.. (والتر رينهارت).. بطل عملية (جنيف) الشهيرة.. كيف يمكننى أن أنساك، وقد تلقيت هزيمتى الوحيدة فى مضمارنا على يديك هناك.. لقد تعرفتك، وقمت بتعقب مسارك، عبر شبكة عملائنا المدربين، حتى قادنى البحث إلى هنا، أما كشف مدخل القبو السرى، فهو ليس بالأمر العسير، بالنسبة للمحترفين أمثالنا.

وفى هدوء بارد. استدار (فيدروف) إلى رابينوفيتش) وسأله:

- أين (إكس - ١٠٧) يا (أندريه)؟!

ازدرد (رابينوفيتش) لعابه فى صعوبة، وهو يتمتم:

- لابد أن نتفق أولا، و..

قبل أن يتم عبارته، استل (فيدروف) مسدسه بحركة مباغتة سريعة، وأطلق رصاصة مكتومة اخترقت ركبة (رابينوفيتش) اليسرى، فتخاذلت قدم هذا الأخير، وهو يطلق صرخة ألم رهيبة، تردد صداها فى القبو كله، على نحو سرت معه قشعريرة باردة كالثلج ، فى جسد البريطانى، فى حين كرر (فيدروف) بعدها، بمنتهى البرود:

- أين عينة (إكس -١٠٧) ؟!

هتف (رابينوفيتش) ، وهو يعض شفتيه ألما:

- هناك.. أسفل تلك القارورة هناك.

أشار (رابينوفيتش) إلى أحد الرجال الأربعة، المصاحبين له، فاندفع نحو القارورة الكبيرة، وأزاحها، والتقط من تحتها تلك القارورة الصغيرة التى تحوى عينة الدم، مع فيروس (إكس - ١٠٧) ، وألقاها إلى (فيدروف) ، الذى التقطها فى خفة، ثم دسها فى جيبه، وابتسم ابتسامة باردة، قائلا:

- أشكرك يا(أندريه) .. لقد وفرت لى وقتا طويلا.

قالها، وهو يرفع فوهة مسدسه، المزود بكاتم للصوت، ويطلق رصاصاته الصامتة، فى سرعة وخفة وبراعة، على جنوده الأربعة!!

وبكل الذعر والذهول، هتف (رابينوفيتش):

- ولكن.. ولكن لماذا؟!

مع قوله، ضغط (فيدروف) زناد مسدسه مرة أخرى، فانطلقت منه رصاصة، نسفت رأس (رابينوفيتش) ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما، فى ألم وارتياع ، قبل أن يهوى بدوره جثة هامدة..

وفى عصبية واضحة، قال البريطانى:

- حان دورى إذن .. أليس كذلك؟!

رفع (فيدروف) عينيه اليه بدهشة مصطنعة، وهو يقول:

- دورك؟!.. يبدو أنكم لستم بالبراعة التى تدعونها دوما، يارجال المكتب السادس، فأنت لم تستوعب الموقف جيدا.

ثم نهض فى حزم، مضيفا:

- ألم تفهم بعد، أننى أريد أن أعمل لحسابكم.

انعقد حاجبا (رينهارت) فى شدة، و(فيدروف) يتابع:

- ربما لا يروق لى العمل لحساب الأمريكيين ، الذين نشأت على كراهيتهم وبغضهم، ولكننى أميل للعمل معكم أيها البريطانيون.. بمقابل مجز بالطبع.

وكانت مفاجأة مذهلة بحق، ولكن العميل البريطانى لم يكن يملك سوى الموافقة، ولقد تم الأمر على نحو مثالى، فقد تقاسم عينة الفيروس مع (فيدروف) ، وعاد بنصفها إلى (لندن) ، فى حين عاد (فيدروف) إلى رؤسائه منتصرا، مع ماتبقى من عينة الفيروس، وجثة الخائن (رابينوفيتش) ، وتصور السوفيت أنهم قد ربحوا العملية البيولوجية بالفعل، وكان يمكن أن يظنوا هذا إلى الأبد، لولا الوثائق البريطانية ، التى انكشفت مؤخرا، وفقا لقانون الوثائق السرية، التى أعلنت الحقيقة الفعلية، بعد سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتى، وجهاز مخابراته العريق..

حقيقة الفائز ، فى تلك العملية الرهيبة..

العملية البيولوجية.

الأستاذ

بقلم :
د. نبيل فاروق

من بين كل الجواسيس، الذين عرفهم التاريخ، يحتل هذا الرجل بالذات مكانة خاصة للغاية، لا ينافسه أو يدانيه فيها أحد.

أنه صاحب شخصية فريدة مبهرة، وثقافة واسعة، وذكاء مفرط، وجرأة وبراعة اقتربتا من حد الكمال..

أما عن دقته، وطبيعته القيادية المدهشة، التى أهلته لقيادة وادارة أقوى وأنجح وأكمل شبكات الجاسوسية، داخل (الصين) و(اليابان) خلال الحرب العالمية الثانية، لقد احتل مكانته المتميزة الخاصة هذه، لأنه الجاسوس الوحيد، فى التاريخ كله، الذى كان لنجاحه الفضل فى تغيير مسار الحرب العالمية الثانية..

إنه(ريتشارد سورج)..

و(ريتشارد) هذا هو الابن الثانى لمهندس ألمانى، من العاملين فى حقول البترول الخاصة بالامبراطور والذين يبالغون فى إظهار ولائهم له، وربما كان لتلك المبالغة ما يبررها، عند هذا الرجل بالذات، إذ كان والده (جد ريتشارد) هو (ادولف سورج) ، السكرتير الخاص للمفكر (كارل ماركس)، وأحد الذين اعتنقوا الشيوعية منذ مولدها، وهو الذى ألحق(ريتشارد) بإحدى الفرق العسكرية القيصرية، إبان الحرب العالمية الأولى..

ولم يرق هذا قط للشاب (ريتشارد)، الذى لم يكن قد بلغ التاسعة عشرة من عمره بعد، فقد كان يميل لدراسة العلوم السياسية، ويعتبر القتال المباشر نوعا من الحماقة والتهور، وعلى الرغم من هذا، فقد أبلى الشاب بلاء حسنا فى المعركة، وقاتل ببسالة مدهشة، حتى أصابته رصاصات مدفع الى فرنسى فى ساقه، مما تحتم معه نقله الى المستشفى للعلاج، فى الخطوط الخلفية..

وكانت فترة العلاج فرصة مناسبة للغاية، بالنسبة لطموح الشاب، فقد عاود دراسة العلوم السياسية فى فراش المرض، بل ونجح فى اجتياز الصف الدراسى الأول بنجاح ساحق..

وأعيد (ريتشارد) مرة أخرى الى الجبهة، والى القتال..

وفى هذه المرة، أصابته شظية من قنبلة انجليزية، فأعيد الى الخطوط الخلفية للعلاج... وللدراسة أيضا..

وقبل أن ينتهى من فصله الدراسى الثانى، تم ارساله الى الجبهة الروسية هذه المرة، حيث أصابه جرح ثالث، اعتبر بعده غير لائق للخدمة، وتم تسريحه من الجيش..

ووجدها فرصة مناسبة لاستكمال دراسته فى العلوم السياسية، خاصة وقد جذب انتباهه ما يحدث فى (روسيا)، فى تلك الآونة..

ففى ذلك العام ١٩١٧م، كان التذمر قد بلغ أوجه، بين أوساط الفلاحين والعمال فى (روسيا)، بسبب الحكم القيصرى الديكتاتورى، وتدخل (راسبوتين)، الراهب الداعر فى شئون الدولة، لذا فقد أعلن العمال العصيان والإضراب، واستولوا على العاصمة، وأقاموا فيها حكومة مؤقتة، ثم لم تلبث الأمور أن تطورت فى سرعة، وتنازل القيصر عن العرش، ووصل البلاشفة الى الحكم بزعامة (لينين)، ورفض الشعب مواصلة الحرب، فتم عقد صلح مع (المانيا)..

كل هذا أثار اهتمام (ريتشارد) بشدة، مع معرفته بتاريخ جده(أدولف)، ولكن هزيمة (ألمانيا) أزعجته وألمته) وجعلته يبغض الحروب أكثر وأكثر..

وأكمل (ريتشارد سورج) دراسته، فى جامعات (كبيل) و (هامبورج)، حتى حصل على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية، عام ١٩٢٠م..

وفى اليوم نفسه، وقبل أن يجف حبر شهادة الدكتوراه، كان (سورج) يملأ استمارة الالتحاق بالحزب الشيوعى الألمانى فى (هامبورج)، ليصبح أحد أعضائه العاملين، والمتحمسين كثيرا للسياسة الجديدة، التى تنطلق من موسكو)..

اضطر (سورج) لقبول وظيفة بسيطة كمدرس للمرحلة الابتدائية، حول حصصه الدراسية الى محاضرات لبث الفكر الشيوعى فى عقول الأطفال..

وكان من الطبيعى، والحال هكذا، أن يفقد (سورج) وظيفة التدريس التى قبلها على مضض..

ولأن سمعته سبقته، الى كل مكان ذهب إليه، فلم ينجح الشاب، حامل شهادة الدكتوراه فى العلوم السياسية، إلا فى الحصول على عمل حقير فى أحد مناجم الفحم، ومنزل أكثر حقارة فى أسوأ أحياء (هامبورج).

وتكرر ما حدث وتم طرد (ريتشارد سورج) من أعمال المناجم..

وفى غضب مرير، راح (سورج) يقطع شوارع (هامبورج) وعندما بلغ منزله الصغير، مع منتصف الليل، كانت فى انتظاره مفاجأة..

لقد كان هناك رجل قوى البنية، صارم الملامح، امام منزله بالضبط..

ولقد تعرّف (سورج) على ذلك الرجل..

وامتلأت نفسه بالقلق..

فذلك الرجل، لم يكن سوى (هنرى تولمان) رئيس شرطة الحزب السرية فى (هامبورج) الذى اشتهر بقسوته وصرامته، وبأنه الرجل، الذى يمكنه أن يكسر عنق رجل بيمناه..

وفى برود شديد، تطلع (تولمان) الى (سورج) ، وأخبره أنه يريد التحدث معه..

وداخل ذلك المنزل الحقير، وبكلمات مقتضبة موجزة، أبلغه (تولمان) أن (موسكو) تهتم كثيرا به، وتتابع حماس حفيد (أدولف سورج) بعين راضية، ثم طلب منه اعداد نفسه للسفر الى (موسكو)..

ولا أحد يمكنه أن يتصور فرحة(سورج) وسعادته فى تلك الليلة، التى لم يذق خلالها طعم النوم، وهو يحلم بعينين مفتوحتين بالسفر الى العاصمة الحمراء، والعمل لحساب (سادة المستقبل)، كما أطلق عليهم حينذاك..

وسافر (ريتشارد سورج) إلى (موسكو)، وهناك التقى بأحد المسئولين الكبار، فى اللجنة المركزية لجميع الأحزاب الشيوعية الأجنبية (الكومنترن)، والذى رحب به فى حفاوة، وشرح له أن الحزب يحتاج إلى تعاونه، ثم سلمه بعدها إلى (ديمترى مانولسكى) ، رئيس قسم المخابرات الأجنبية فى (الكومنترن) ليوضح له طبيعة مهمته..

وفى المقابلة الأولى، لم يشعر (مانولسكى) بالارتياح كثيرا تجاه (سورج) فقد بدا له هذا الأخير شديد النحول، جامد الملامح، حاد النظرات، على نحو يبدو وكأنه يغوص فى أعمق أعماقه بلا هوادة..

ولكن الشاب نجح، وبتفوق مذهل، فى كل الاختبارات الأولية، التى أخضعه لها (مانولسكى) بكل خبرته وحنكته، مما جعله يشعر بشىء من الاعجاب تجاهه، ويزيح كل مشاعر عدم الارتياح السابقة جانبا، ليتولى بنفسه تدريب وإعداد (ريتشارد سورج) ليصبح واحدا من العديدين، فى ذلك العالم الغامض المثيرعالم الجاسوسية..

ولم يكن هذا بالأمر السهل..

لقد استغرق خمس سنوات كاملة، من العمل والتدريب، والقيام بعشرات المهمات الصغيرة البسيطة، ثم تطويرها شيئا فشيئا، حتى حذق (سورج) الأمر، وخبره، وصار واحدا فى تلك الفئة القليلة، التى يمكننا أن نطلق عليها اسم (جاسوس كفء)..

ولا أحد يمكنه أن ينكر موهبة (سورج) نفسها، فى هذا الشأن، فلم تمض تلك السنوات الخمس، حتى صار خبيرا لايشق له غبار، فى هذا المضمار، كما تحول لجامعة شاملة، فى العلوم واللغات، إذ أجاد، وبطلاقة تامة، إلى جوار لغته الالمانية، الانجليزية، والفرنسية، والروسية، واليابانية، مع عدد لا بأس به من اللهجات الصينية.

وفى وضوح، أفهمه (مانولسكى) أن مهمته الأولى هى جمع المعلومات السياسية، من كل مكان يذهب إليه، ومعرفة ردود الأفعال العالمية، تجاه التطورات الاجتماعية والاقتصادية السريعة والعنيفة، التى تحدث فى الاتحاد السوفيتى، والتى يتابعها الجميع فى قلق وحرص وحذر، كما حذره من إعلان ميوله الشيوعية، أو حتى الإشارة إليها، بل والتظاهر بمعارضتها، والاختلاف معها تمام الاختلاف.

ولم يكن (سورج) بحاجة - فعلا- إلى كل هذه النصائح، بعد كل ما تلقاه من دروس وتدريبات، ولكنه استمع إلى (مانولسكى) بكل هدوء واحترام قبل أن يبدأ جولته الأولى، فى ربوع (أوروبا) لجمع ودراسة ردود الأفعال، تجاه ذلك الزحف الشيوعى الجديد..

ولم تكن هناك أى وسيلة تتيح له نقل المعلومات فى لمح البصر، ومواكبة الأحداث لحظة بلحظة، كما يحدث الآن..

فتحول إلى آلة استماع ومتابعة، وتخزين وتحليل معلومات لانظير لها..

وانبهر رؤساؤه فى (موسكو)، بذلك السيل المنهمر من المعلومات، الذى يرسله إليهم (سورج) طوال الوقت، حتى أنهم أعادوا دراسة الرجل مرة أخرى، للافادة من إمكاناته المدهشة..

ولقد كان..

فما أن عاد (سورج) من (أوروبا) حتى استقبله (مانولسكى)، وأخبره أن الأوامر قد صدرت بإنهاء عمله فى مخابرات (الكومنترن)، ونقله إلى المكتب الرابع، فى المخابرات السوفيتية، التى بدأت تبرز فى وضوح، وتنال شهرة واسعة فى عالم الاستخبارات فى تلك الفترة بالتحديد..

وبرقت عينا (سورج)، وهو يستمع إلى حديث (مانولسكى)، ورقص قلبه بين ضلوعه طربا، فقد كان هذا بالضبط ما يسعى إليه منذ البداية..

والتقى (سورج) بالكولونيل (بالدن)، رئيس المخابرات السوفيتية، الذى أسند إليه أولى مهماته القوية، وطلب منه السفر إلى (شنغهاى) فى (الصين)، لجمع كل مايمكنه من معلومات عن جنرال شاب، هو(شيانج

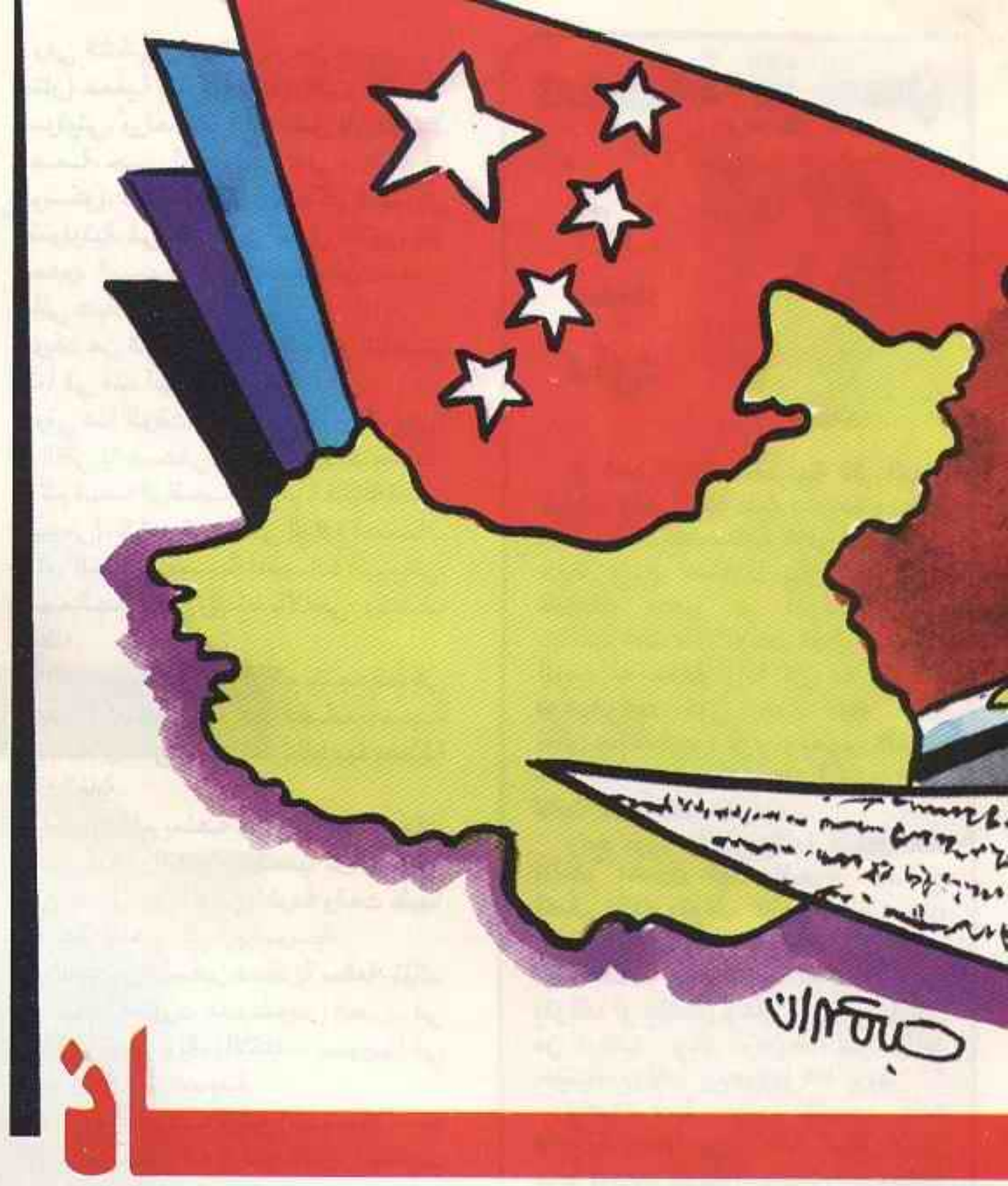

ماذا

كاى شيك)، كما كلفه بإعادة تأهيل شبكة جاسوسية مهلهلة هناك..

وسافر (سورج) إلى (شنغهاى) عام ١٩٣٠م، وإجتمع بعملاء تلك الشبكة هناك، وأبلغهم فى صرامة أنه مصر على أن يصنع منهم أفضل شبكة جاسوسية عرفها التاريخ ثم أطلق عليهم اسم (وحدة الصين)..

وأعاد تنظيم الشبكة بأكملها من الألف إلى الياء، كما أبدى اهتماما ملحوظا بأجهزة اللاسلكى، باعتباها واحدة من أفضل وسائل الاتصال فى ذلك العصر، حتى أنه استعان باثنين من الفنيين فى هذا المجال، ونجح فى ضمهم إلى الشبكة، ثم طلب من رؤسائه فى (موسكو) إرسال خبير لايشق له غبار فى هذا المضمار..

ولأول وآخر مرة فى حياته، انتحل (سورج) شخصية أخرى، وحمل جواز سفر أمريكى باسم (مستر جونسون) ليقيم بهذه الصفة فى فندق (أنكر)

وكان لهذا ضرورة قصوى..

ففى ذلك الفندق، التقى بأهم عضو جديد فى (وحدة الصين)بالكاتبة الأمريكية الشيوعية (أجنس سميدلى)..

ولقد كان لهذه الكاتبة الشهيرة - آنذاك - دور كبير فى حياة ومهمة (سورج) فلقد تولت تقديمه لمجتمع (شنغهاى)، وساعدته على مصادقة عدد من كبار المسئولين فيها، وعديد من الديبلوماسيين الأجانب، وعلى رأسهم القنصل الأمريكى، الذى أدرك (سورج) بحاسته المتطورة أنه شخص ذو شأن واضح فى (شنغهاى) وأن الارتباط به سينلل الكثير من العقبات، فراح يوطد صلته به، ويقوى صداقته معه.

وفى الوقت ذاته، نجح (سورج) فى ضم عضو جديد إلى (وحدة الصين)، وهو شاب يابانى ثرى، من أسرة عريقة فى (طوكيو)، يعتنق الشيوعية سرا ويعمل بفضل اتصالات أسرته، كمراسل صحفى فى (شنغهاى) لصحيفة يابانية ذات نفوذ..

وهكذا اكتملت الشبكة، ولم يعد ينقصها سوى وصول خبير اللاسلكى، لوضع اللمسات الأخيرة للأمر..

ولم يطل انتظار (سورج) طويلا..

ففى أوائل عام ١٩٣١م، وصل إلى (شنغهاى) رجل ألمانى بدين، تفوح من ثيابه وأناقته رائحة الثراء والأستقراطية، وقدم نفسه للجميع باعتباره (فريدريك مانهايم)، مندوب واحدة من الشركات الاقتصادية الكبيرة، ولكنه لم يكن فى الواقع سوى (ماكس كلوسن)أفضل خبير للاتصالات اللاسلكية فى العالم..

ويقدر ما أعجب (سورج) بمهارة (كلوسن) انبهر هذا الأخير انبهارا شديدا ببراعة وجرأة وعبقرية الأول، إذ فوجىء بأن (سورج) قد أقنع القنصل الأمريكى بتأجير حجرتين من حجرات منزله الكبير، ليقيم فيهما (كلوسن).

وكانت مبادرة شديدة الجرأة من (سورج)، ولكنها حققت نجاحا مبهرا، فطوال عامين كاملين، كانت (موسكو) تتلقى المعلومات لاسلكيا من داخل منزل القنصل الأمريكى فى (شنغهاى)، دون أن تدرك الولايات المتحدة الأمريكية دورها فى هذه اللعبة قط..

وهكذا، حققت (وحدة الصين) نجاحات مدهشة، تحت قيادة (ريتشارد سورج) بعد أن ظلت تعانى من الخمول والبلادة والفشل لسنوات وسنوات، وأعلن (سورج) نفسه كجاسوس عبقرى، فى فن إدارة وتنظيم شبكات الجاسوسية، مما استحق معه نقله إلى جبهة أكثر أهمية وخطورة فى ذلك الحين إلى (اليابان)..

انطلاقا من أسلوب تفكيره المنظم وجرأته اللامحدودة، أدرك (سورج) أن جواز فاعليته فى طوكيو سيكون مدى مايحققه من شهرة ونجاح فى (برلين)، لذا فقد سعى، وبأقصى جهده ، ليلتحق بصحافة النازى، مؤيدا بشهادتين من اثنين من أصدقائه، يشيدان فيها ببراعته وأمانته، وإخلاصه المتناهى لعمله..

وكانت خطوة انتحارية جريئة من (سورج)، إذ كان يكفى أن يقوم جهاز (الجستابو) ببعض التحريات الجادة عنه، حتى ينكشف أمر التحاقه بالحزب الشيوعى الألمانى، الذى مازال يحمل بطاقته فى جيبه، وتنفضح خطته كلها..

ولكن العجيب أن هذا لم يحدث، فقد اكتفى رجال (الجستابو) بخطابى التأييد، وبعض التحريات الهامشية البسيطة، قبل أن يسمحوا للدكتور (ريتشارد سورج) خبير العلوم السياسية، بالعمل فى صحيفة (ريتونج)، أشهر صحف النازى فى ذلك الحين، وصاحبة أقصى تأثير فيمن هم خارج الحدود الألمانية..

ونجح (سورج) فى اقناع رئيس تحرير جريدة (زيتونج) بتعيينه كبيرا للصحفيين والمراسلين الألمان للجريدة فى (طوكيو)..

وارتسمت على شفتى (سورج) ابتسامة كبيرة، وهو يتلقى القرار، وبادر بإبلاغه شخصيا لأكبر رجل فى الحزب النازى، بعد (أدولف هتلر)... (هملر) قائد (الجستابو) آنذاك..

وفى ليلة رحيله، أقام نادى الصحافة الألمانية حفلا لوداعه، حضره (هملر) بنفسه، بصحبة (بوهل)، رئيس القسم الأجنبى فى الحزب النازى، مما أعطى انطباعا بأن الحزب يؤيد (ريتشارد سورج) رسميا..

وبعد الحفل بعدة ساعات، استقل (سورج) الطائرة إلى (طوكيو) ليبدأ مهمته الجديدة.. أخطر مهمة جاسوسية عرفتها الحرب العالمية الثانية..على الإطلاق.

منذ الأيام الأولى لعمله فى (طوكيو) حرص (ريتشارد سورج)، الجاسوس السوفيتى، الألمانى الأصل، على الالتقاء بكل الصحفيين والمراسلين الأجانب، فى العاصمة اليابانية، وتوطيد صلاته بهم، ولم يمض وقت طويل، حتى كان (سورج) واحدا من أبرز وأشهر شخصيات المجتمع اليابانى..

ولأن الحذر والدقة جزء من طبيعته، فلقد بلغ (سورج) هذه المكانة، دون أن يحاول، ولو لحظة واحدة، أن يمارس مهمته كجاسوس، حتى لايدع أدنى احتمال لسقوطه فى قبضة العدو، قبل أن ينتهى من تكوين شبكة جاسوسية جديدة فى (طوكيو) تنافس، وتتفوق على تلك الشبكة المحكمة، التى تركها خلفه فى (شنغهاى)..

وفى تتابع متقن، راح أفراد الشبكة يتوافدون..

فى البداية، التقى (سورج) بذلك الشاب الثرى اليابانى (أوزاكى)، الذى أنهى عمله فى (شنغهاى)، وعاد إلى (طوكيو)، ليستغل شهرة أسرته ونفوذها مع براعته الصحفية والأدبية والسياسية، ليصبح واحدا من أشهر المحللين السياسيين للعلاقات اليابانية الصينية، وإصداره لعدة كتب فى هذا الشأن، جعلته وثيق الصلة برجال الجيش والسياسة وعلى رأسهم الأمير (كونوى) نفسه، وسمحت له بأن يكون أحد البارزين، فى مجموعة للدراسات الصينية، تحت رعاية رئيس الوزراء..

وبعد (أوزاكى) يأتى (فوكوليتش) الضابط اليوغسلافى السابق، والمراسل الحالى لجريدة (لافيو) الفرنسية، وجريدة (بوليتيكا) اليوغسلافية فى (طوكيو)، والوثيق الصلة بعدد لا بأس به من موظفى السفارات والقنصليات الأجنبية فى العاصمة..

ثم (مياجى بوتوكو) الفنان اليابانى الرقيق الطباع، والذى سافر بعض الوقت إلى (كاليفورنيا) فى الولايات المتحدة الأمريكية، وأصابه الفزع من تفاوت مستويات المعيشة هناك، مما سبب له رجة نفسية عنيفة، جعلته يلتحق بالحزب الشيوعى، قبل أن يعود أدراجه إلى (طوكيو) لدراسة وعمل النقوش الكلاسيكية الفنية هناك..

وأخيرا (كلوسن) .. (ماكس كلوس) عبقرى اللاسلكى، الذى استعد لبناء شبكة اتصالات لاسلكية، تنافس تلك التحفة العبقرية التى تركها خلفه فى (شنغهاى)..

وبمنتهى السرعة والحماس ، جمع (سورج) مجموعته، وحدد أهدافها، ثم أطلقها فى المجتمع اليابانى..

وكان على الجميع، وبمختلف الوسائل، أن يحصلوا على أجوبة لعدة أسئلة رئيسية:هل تعتزم اليابان مهاجمة (الاتحاد السوفيتى) أو (الصين) يوما؟!

ومادور الجيش اليابانى فى الشئون السياسية والاجتماعية؟!..

ثم مامدى علاقة (اليابان) بكل من (المانيا)، و(انجلترا) و (أمريكا)؟!..

وأخيرا مدى تقدم وتطور الصناعات اليابانية الثقيلة، وتأثيرها على أية حروب محتملة، من الناحيتين، العسكرية، والاقتصادية؟!..

وأطلق (سورج) الحرية لرجال مجموعته، لجمع كل مايمكن من المعلومات، حول هذه الأمور..

ولم يكن هذا راجعا إلى دقة (سورج) وحذره فحسب، ولكن أيضا إلى النشاط الزائد للشرطة السرية اليابانية (الكمبتاى) فى ذلك الحين، والتى بدأت تتعامل مع كل الأجانب باعتبارهم جواسيس، حتى يثبت العكس، مما يوحى، ويؤكد أن (اليابان) فى طريقها) إلى بعض التغيرات القوية، فى المرحلة القادمة..

وبكل ترقب ولهفة واهتمام، راحت (موسكو) تتابع أخبار شبكة (طوكيو) بمنتهى الحذر، فى انتظار ماستسفر عنه الأمور، خاصة وأن (سورج) قد حدد مصروفات الشبكة بما يساوى ثلاثة آلاف دولار شهريا وهو مبلغ باهظ للغاية، فى ذلك الحين..

ولكن الشبكة حققت أول انتصاراتها، على نحو جعل (موسكو) تطمئن إلى أنها تستحق كل سنت يصرف عليها..

فذات يوم، وبينما كان (أوزاكى) يحضر اجتماعا للجنة الدراسات الصينية، علم من رئيس الوزراء أن هناك تفكيرا فى غزو يابانى للصين و(منشوريا) وما أن وجد نفسه وحيدا مع بعض المسودات، حتى أسرع يلتقط بعض الصور لها، وقدمها فى المساء إلى (سورج) الذى أدرك خطورة الأمر، فسافر بنفسه لتسليم تلك المعلومات، يدا بيد، إلى أحد رجال المخابرات السوفيتية فى (أوروبا)..

وحدث الغزو اليابانى بالفعل..

وكانت كارثة عسكرية على كل المستويات، خاصة أن الطبيعة الجبلية الصينية المنشورية، كانت تقف مع سكان البلدين ضد المحتلين الذين وجدوا أنفسهم محاصرين وسط الجبال، فأسرعوا يتراجعون على نحو مخز، ثم لم يلبثوا أن تغلبوا على المقاومة ونجحوا فى احتلال شمال (الصين) كله..

وتنفس السوفيت فى ارتياح لأن عميلهم الألمانى الأصل أمكنه أن يبلغهم بتلك المعلومات شديدة الخطورة قبل أن يحدث الغزو بعدة أسابيع..

ولكن (سورج) ومجموعته كانوا يحملون مفاجأة جديدة..

وانتصارا جديدا..

ففى أواخر ديسمبر ١٩٣٥ م، وأوائل يناير فى العام التالى، أكد (سورج) فى رسالة لاسلكية إلى (موسكو) أنه توجد توترات عنيفة بين صفوف الجيش اليابانى ،وأنه من المحتمل أن يثور هذا الجيش على قادته، فى القريب العاجل..

وتشككت (موسكو) كثيرا فى هذه المعلومات، خاصة وأن كل شىء كان يبدو لها هادئا، وطلبت تأكيدها أكثر من مرة، فأكدها (سورج فى (إصرار) ثلاث مرات متتالية، كان آخرها فى الثالث عشر من فبراير ١٩٣٦م..

وفى السادس والعشرين من فبراير، حدثت ثورة الجيش، التى يطلقون عليها، فى التاريخ اليابانى الحالى اسم (حادث فبراير)..

وتأكدت (موسكو) أكثر وأكثر، فى دقة عميلها، وقوته، وبراعته المدهشة فى جمع وتحليل أدق وأخطر المعلومات..

ولكن (سورج) لم يلبث أن فاجأهم مفاجأة أكثر عنفا، جعلتهم يرتجون من الأعماق..

فمن خلال صداقته الشديدة للملحق العسكرى للسفارة الألمانية فى (طوكيو)